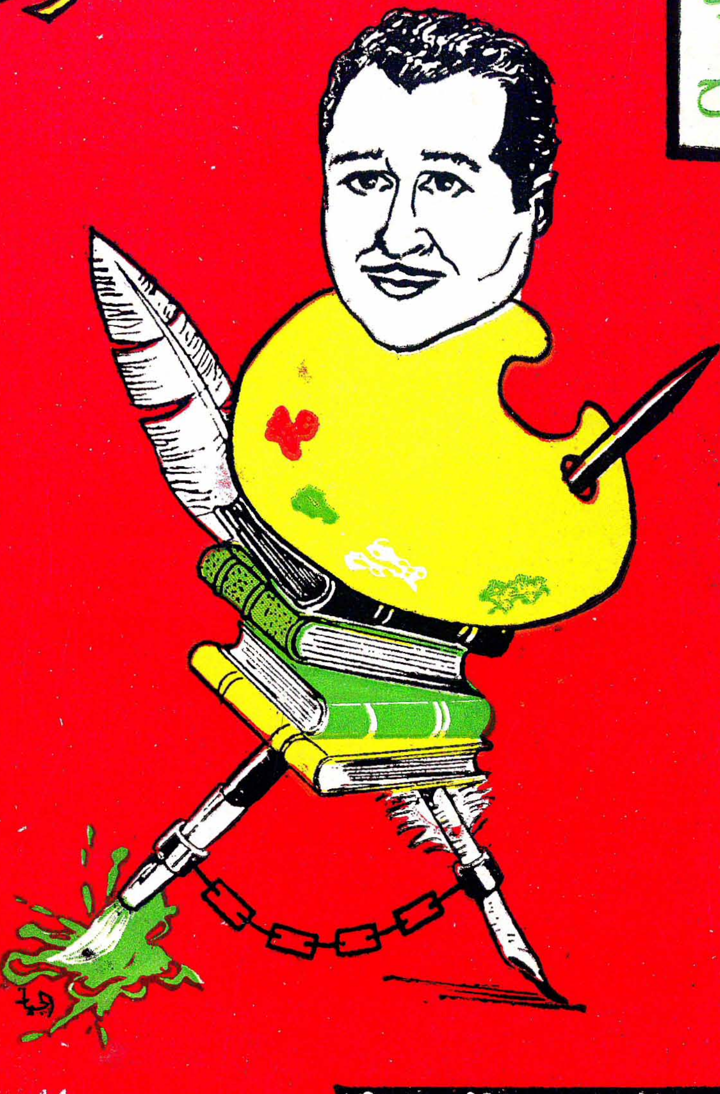
ربع قرن في القيود

الجزء الثاني

الكفاح



صبحي الجيار

دار النهضة العربية
٣٢ عبد الخالق ثروت - القاهرة

ربع قرن في القيود

الجزء الثاني

الكفاح

بقلم

صبحي الجيار

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

مقدمة

أخى القارىء :

حدثتك فى الجزء الأول من هذا الكتاب عن الجانب المأساوى من حياتى . والآن أصحبك معى فى مرحلة الكفاح ، التى قد تتسم بشىء من الغرابة ، وذلك لأنها محكومة بظروف معينة غير مألوفة . وقد آثرت أن أسردها لك بتفاصيلها منذ البداية . . . وبكل ما فيها من فشل وتوفيق ، ويأس وأمل .

ولم يكن الكفاح فقط من أجل لقمة العيش ، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان . ولذلك كنت حريصاً أيضاً على الاستمتاع بحياتى مادياً ومعنوياً بقدر ما ساعدتنى إمكانياتى فى انتزاع السعادة من أنياب الشقاء .

وإذا كانت صحبتى قد أرهقت أعصابك فى الجزء القاتم من رحلة حياتى ، فأرجو أن تكون هذه المرحلة أكثر بهجة وإشراقاً .

الطبعة الأولى ١٩٦٨

صبحى الجيار

فــراغ .. وهوايات

بعد أن فقدت الأمل فى أداء الإمتحان فى مقر لجنة التوجيهية ، حاولنا أن نسعى لدى إدارة الإمتحانات بوزارة المعارف « التربية والتعليم الآن » كى تنتدب مندوبين ليحملوا أوراق الامتحان إلى بيتى، حيث يشرفون على إجاباتى فى جو من السرية . لكننا لم نوفق إلى إقناعهم . حتى إذا كنت قد نلت الشهادة التوجيهية والتحقت بالجامعة ، فكيف كنت سأحضر الدروس العملية فى كلية الهندسة أو الطب ؟

اقترح علىّ زوج أختى الكبرى أن أدرس الحقوق . حيث المواد كلها نظرية يمكننى استيعابها فى البيت . وكدت أقتنع بالفكرة على أساس الحكمة المشهورة . « إن لم يكن ما تريد فأرد ما يكون» ولكن عندما درسنا الموضوع قامت مشكلة الامتحانات كعقبة فى سبيل حصولى على الليسانس .

إذن لماذا أتعب فى دراسة علوم لا أميل إليها كثيراً ، إذا لم أكن

سأحصل فى النهاية على مؤهل يساعدنى على شق طريق فى الحياة العملية ؟ . إننى فى الواقع لا أكره القانون ، وكثيراً ما استعرت بعض المراجع القانونية من أصدقائى المحامين حتى أدرس موضوعاً يهمنى . وكثيراً ما يحلو لى مناقشتهم فى بعض قضاياهم على سبيل المعلومات العامة . أما أن التزم بدراسة القانون كله دون هدف فهذا ما لم أستسغه . وفضلت أن أوزع دراساتى وإهتماماتى على كل ما يحلو لى من منهل المعرفة دون خطة مدروسة أو هدف واضح .. إلا مجرد المتعة الذهنية والتسلية وملء الفراغ القاتل ، خاصة بعد أن أصبحت عاجزاً عن ممارسة هواياتى العملية واليدوية بحرية كاملة .

أخذت أقرأ كثيراً من الكتب الأدبية ، بعد أن تذوقتها من مكتبة زوج أختى . وبعد أن أتيت على مكتبته المليئة بالأدب والشعر وعلم النفس ، بدأت اشترى من مصروفى المتواضع ماتيسر من سور الأزبكية عن طريق أخى ، أو من المكتبات عن طريق الفهارس التى تطبعها كل مكتبة . . أو من إعلانات الجرائد حيث يثير نى من وقت لآخر اسم كتاب جديد .

ملهمتى الاولى :

حينما تزوجت أختى الكبرى سنة ١٩٤٣ ، كان عمرى ستة عشر عاماً ، وكنت أرتدى فى حفل زفافها آخر حلة صنعها لى ترزى

والدى ، قبل أن يدهمنى المرض ، ولم أكن ارتديتها سوى مرات تعد على أصابع اليد الواحدة ، ثم انزوت فى ركن من الدولاب حزينة على صاحبها ، حتى جاء حفل زفاف أختى ، فتحاملت على نفسى وارتديتها بصعوبة . واتخذت لى مكاناً مريحاً قبل أن يفد المدعوون ، حتى لا أضطر إلى التنقل أمامهم على عكازين . وكان الجميع يبدون نحوى إهتماماً كبيراً ، وحناناً متدفقاً ، وكأنما فوجئوا بأن وجدونى فى كامل هيئتى بعد أن ارتسمت صورتى فى مخيلتهم طوال عامين فى ثياب البيت . فكانت نظراتهم تنبىء عن ارتياحهم لهذا الفأل الحسن ، وعندما كان يشد أحدهم على يدى مهنئاً بزواج أختى يهتف مستبشراً :

— مبروك .. ربنا يتمم لك الشفاء ...

كانت ضمن المدعوين صديقة لأختى استخفها الفرح ، فقامت تشد وشاحاً على وسطها ، وراحت ترقص فى حركات متأودة رشيقة ، وتميل برأسها نحوى من باب المجاملة . فتلتهب بشرتى حياء . وبعد أن أسكرت غرائزى المراهقة بأنوثتها المتدفقة ، كانت الرقصة قد أرهقت أنفاسها ، فجاءت لتجلس بجانبى وهى تلهث وصدرها المشرئب يعلو ويهبط فى شباب ونضارة . ومالت نحوى قائلة :

— أعجبك رقصى .. ؟

أجبت فى حماس :

— رائـع ...

ـ أعـدك بأن أرقص لك وحدك عنـدما يتم شفاؤك بإذن الله . . .

ومدت يدها فانتزعت وردة حمراء من باقة كبيرة تصادف وجودها بجانبها . وقدمت لى الوردة بإبتسامة عريضة انفرجت لها شفتاها المليئتان الساخنتان، وأقسم أنى لمحت شبهاً كبيراً بين شفتيها وأوراق الوردة الحمراء .

كانت صديقة أختى هذه امرأة متزوجة ، تعدت العشرين بعدة سنوات، بينما كنت بالنسبة لها فتى غريراً لاتهتز له شعرة من رأسها، ولاشك أنها عادت ليلتها إلى زوجها ، وقد نسيت تماماً تلك المجاملة العابرة التى لم تشغل من تفكيرها سوى لحظات خاطفة . لكنى لم أنم فى تلك الليلة إلا بعد أن غلفت الوردة القانية فى ورقة من « السوليفان » الشفاف ، ووسدتها بحنان فى علبة الملبس الفضية التى كانت نصيبي من حفل الزفاف .

تراءت لى أطيافها فى المنام ترقص لى وحدى، فى غلالة شفافة. ومع تباشير الصباح قمت من نومى نشوان ، وأمسكت قلمى ورحت أكتب أول قطعة شعرية جادت بها قريحتى . وصفت فيها ميزاتها الجسدية الصارخة ، وكيف كان الوشاح يعانق أردافها فى شوق وإصرار. ووصفتها عندما جلست لاهثة بعد الرقص ، ولاحظت أن نظراتى الخجلى تتركز على ركبتيها العاريتين ، فأسرعت تغطيهما

بوشاحها الشفاف ، ثم عرجت على وردتها الحمراء وكيف بدت لى شبيهة بشفتيها المكتنزتين القرمزيتين .

هكذا شطح خيالى المراهق فى أول لقاء له مع نموذج أنثوى ناضج . وبالطبع كان الشعر ركيكاً لفظاً ووزناً ، لكنه كان يحمل صوراً صادقة لأحاسيس شاب ملتهب العواطف ذى خيال خصيب. وأذكر بعضاً من تلك الأبيات دون ترتيب ، أكتبها هنا على سبيل التفكهة . قلت أخاطبها ، وكان اسمها يبدأ بـ « نون وألف » فدللتها باسم « نانا » .

أرنى جمالك يا « نانا » سبحان الخالق سبحانا

ساقاك قدت من مرمر من حر فؤداى قد لانا

ووشاحك غطى بعضهما فـزادك حسناً فتانا

إلى أن قلت على ما أظن :

فتعالى وارقصى لى وحدى رحماك بقلبى الولهانا

***

أول قصة :

وفى سنة ١٩٤٥ خطر لى أن أكتب قصة من تأليفى . لم أكن أتصور بالطبع أن أنشرها بأجر أو بغير أجر ، ولم يكن قد وصل بى الغرور إلى حد الاعتقاد بأن أحترف الأدب وأتكسب منه . لكنى كتبتها بدافع من ذاتى . ولعلى كنت أنفس بها عن أحاسيسى وانفعالاتى الجياشة .

وماذا كان يشغل أحاسيس مراهق في الثامنة عشرة ... غير الجنس؟ فإذا أضفنا إلى هذا المراهق قيوداً تمنعه من الحركة والانطلاق، وتحبسه داخل فراشه ، فان صراعه مع غرائزه سيزداد عنفاً وضراوة ، وإذا ما ابتلى هذا المراهق بداء الخجل فإنه يلتزم الكبت الذى يؤدى إلى الإنفجار .

إما أن يجن ، ويخلق له عقله المريض عالماً خيالياً ينفس به عن كبته ، وإما أن ينطوى على نفسه ويلجأ إلى العادة السيئة التى يستنزف بها الشباب المحروم حيويتهم فيحفرون قبورهم بأيديهم المرتعشة . أو يلجأ إلى التسامى بغرائزه فى ممارسة أحد الفنون الجميلة كالموسيقى أو الرسم أو الأدب،أو فى ممارسة الرياضة البدنية.

أما البند الأول . . أى الجنون فقد عصمنى منه المولى الرحيم. فكان من الطبيعى أن أتردى فى البند الثانى بافراط دون تبصر بالعواقب ، رغم قراءاتى الكثيرة حول هذا الموضوع . وما كانت القراءة لتردعنى عن تلك اللعبة الانتحارية ، بل كانت تزيدنى كآبة وتثقل ضميرى الذى كان يطاردنى باللوم والتأنيب . وبدأ لونى يشحب وغاضت وجنتاى . وهزلت عضلاتى ، ولم ينقذنى من المصير المؤلم غير البند الثالث . . التسامى .

إننى الآن أحلل الخطوات التى مررت بها ، وأرجعها لأسبابها بعد أن التقطت معلوماتى من بطون الكتب ، لكنى حينذاك كنت أتصرف بالغريزة والصدفة . فحينما فكرت فى التنفيس عن ميولى

الغريزية المكبوتة بالرسم والتأليف ، لم أكن فى الواقع أقصد التسامى بتلك الرغبات الجامحة ، بل لم أكن قد سمعت عن هذا الاصطلاح الذى يطلق عليه علماء النفس لفظ « التسامى » . وبالغريزة أيضاً اتجهت إلى كتابة أول قصة فى حياتى متخيلاً نفسى فى مكان البطل . الذى رسمت شخصيته فى حدود صفاتى ورغباتى، بما يشبه تداعى الأفكار فى أحلام اليقظة .

اخترته طبيباً شاباً . وكانت رغبتى أن أحترف الطب فى فترة ما كما تقدم . ثم جعلته شاباً وسيماً ذا شارب رفيع أنيق ، ولم أشطط فى ذلك عن الواقع المرتقب فى صفة الشباب ، ثم جاملت نفسى فى بند الوسامة كنوع من الإرضاء الذاتى ، ثم تخيلت الشارب الأنيق الذى كنت أترقب ظهوره بفارغ صبر ، وكانت تلك الصفات مجتمعة تخدم الخط الرئيسى فى القصة . فقد كان الطبيب الوسيم خجولا مفرطاً فى الحياء . وهذه هى الصفة المعيبة التى كانت ترهقنى حينذاك . وما زلت أعانى من بعض آثارها . ولما كان الطبيب الوسيم خجولا ، فانه بالتالى كان يتجنب بنات حواء ، رغم أنه يتحرق شوقاً إليهن . وهنا يبدأ التنفيس عن المراهق المكبوت . فإن الطبيب يدعى إلى حفل كبير يغص بالمدعوين والحسناوات ، ثم تعجب به إحداهن وتحاول أن تلفت نظره إليها بحركة ساذجة ، لكنها كانت مقبولة منذ عشرين سنة قبل أن يستهلكها المؤلفون ، إذ أسقطت منديلها حتى تجعله مادة للتعارف . لكن صاحبنا الخجول يناولها المنديل

فى ارتباك دون أن يستغل الفرصة . وبعد قليل جاءه الخادم يستدعيه لاسعاف إحدى المدعوات التى أصابها إغماء . فيقوم معه الطبيب الشهم ، فيدخله إحدى غرف البيت ، وينسحب الخادم معتذرا بانشغاله مع الضيوف ، ويقف صاحبنا مبهوتاً وهو يرى فتاة رائعة بضة تستلقى فى إعياء على السرير .. عرف فيها لأول وهلة فتاة المنديل ، وحار الطبيب الخجول ماذا يفعل وليس معه « سماعة » . وهنا يشطح تفكير المؤلف المراهق فيجعله يضع أذنه على صدرها العارى . ثم تنتهى القصة بمفاجأة ، إذ يتضح أن الغانية الحسناء كانت تتصنع الاغماء حتى تستدرج الطبيب الوسيم إلى شراكها ، وهنا يتخلى عنه خجله ويتلقاها فى أحضانه !

هكذا شاء قلمى المراهق أن يقيمنى من سريرى . ويجعل منى طبيباً ، ثم يجعلنى وسيماً تتهافت عليه الحسان . ثم يلقينى فى مغامرة مثيرة مع حسناء جريئة تذيب خجلى فى أنوثتها الفائرة .

راقت لى هذه المغامرة اللذيذة ، فشرعت أكتب قصة أخرى بطلها ضابط مباحث يطارد حسناء تروج الأوراق المالية المزيفة . وهكذا رحت أصول بقلمى وأجول فى أجوائى الحالمة التى يجسمها خيالى الثائر العربيد ، فى قصص ساذجة مليئة بالمبالغات والصدف والحلول القدرية لمشاكل أبطالها ، لكنها على أى حال قامت بدور خطير فى هدهدة أعصابى فى تلك الفترة العصيبة من شبابى المبكر .

وبعد القصة الخامسة ، صور لى غرورى أن إنتاجى جدير

بالنشر ، وليس من العدالة أن أحرم منه اخوانى المواطنين !! ..
ولكن كيف السبيل إلى تلك الحصون الشامخة التى يهيمن عليها عمالقة الصحافة ؟

محاولات النشر :

كان أخى خجولاً مثلى .. فلم يستطع أن يحمل إنتاجى إلى دور الصحف ، أما أبى فكان يهزأ بانتاجى فضلاً عن خجله هو أيضاً . وهنا برز فى حياتى العملية شخص خدوم كان له فضل كبير فى مساعدتى لسنوات طويلة ، ولولاه لتعثرت خطواتى فى مزيد من العقبات . وكان رغم صغر سنه الذى لم يتعد الخامسة عشرة ، جريئا لبقاً لا يهاب أحداً ، ولا يخجله أى موقف .

إنه إبن عمى « وليم ناشد » . وأعتبره أخى الثانى ، فقد نشأ معنا فى بيت الأسرة ، ثم انفصلنا فى المرحلة الإبتدائية ، ولكنا كنا على تزاور دائم ، مما جعل الروابط بيننا قوية متينة إلى الآن ، حيث يسكن البيت الملاصق لبيتى مع زوجته وأبنائه الأربعة ، وما زال يلبى طلباتى كلما استطاع إلى ذلك سبيلا .

راح ابن عمى يحمل إنتاجى القصصى إلى دور الصحف فى جرأة عجيبة ، فكان يقابل من رؤساء التحرير بتعليقات ساخرة ، وآخرون يتطلعون إلى قامته القصيرة ذات الخمسة عشر ربيعاً ، فى مزيد من الدهشة والاشفاق ، ثم يشيعونه بنصائحهم الغالية فى

الاستزادة من القراءة قبل أن يمسك بالقلم . فيقسم لهم أن هذه القصص ليست من تأليفه وما هو إلا سكرتير الأديب الكبير صبحي عزيز الجبار !! « هكذا كنت أرصع قصصي بإسمي الثلاثي حينذاك » . لكن مستوى القصص التي بين يديه كانت تؤكد أن كاتبها ليس أديباً ولا كبيراً .

أذكر أني أرسلته حينذاك بقصة « ضابط مباحث » إلى جريدة « المصرى ». وكانت من أكبر الصحف اليومية ، لكن طموحى لم يكن له حدود ، ولم يكن اليأس يعرف سبيله إلى طاقات الأمل التي تدفعنى دائماً إلى المحاولة مهما عظمت .كذلك ابن عمي . . لم يكن يشكو أو يمل أو ييأس .

قابل فى جريدة « المصرى » الأستاذ زكريا الحجاوى ، الذى قدم له نفسه على أنه المشرف على الصفحة الادبية . فقدم له ابن عمي نفسه على أنه سكرتير الكاتب الكبير المذكور أعلاه بالخط العريض . تناول الأستاذ الحجاوى صفحات الفلوسكاب العشر ومر بنظرته الخبيرة بين السطور فى لمحات سريعة. انعكست آثارها على ملامحه المشمئزة ، ثم أعاد إليه كومة الأوراق المكتوبة ، وكأنه يتمنى لو أنها ظلت بيضاء من غير سوء . ثم شيعه بابتسامة مشفقة معتذراً بضيق المجال .

وما كاد وليم يخبرنى بما حدث حتى ثرت على ذلك الظلم البين، ولعنت هؤلاء الادباء الكبار الذين يحقدون على الموهوبين

الناشئين ، خشية على مراكزهم حتى لا ينتزعها منهم من هم أكثر كفاءة وعبقرية .. !! ولم يساورنى الشك فى ضعف إنتاجى ، فقد كنت أعتقد يومئذ أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان . وأرجعت كل فشلى إلى حقد الحاسدين من المسيطرين على أدوات النشر فى الصحف .

كانت حماستى أقرب إلى الغرور منها إلى الثقة بالنفس ، ولعل هذه الصفة المقيتة قد أفادتنى فى ذلك السن ، لأنها لم تدع لى فرصة لليأس . ومن يدرى ؟ . . فلو عرفت إنتاجى يومئذ على حقيقته ، فربما تقاعست عن متابعة جهودى الادبية ، رحمة بنفسى وبالقراء .

وخطر لى أن أرسل إنتاجى بالبريد ، حتى لا يتأثروا بمظهر سكرتيرى الصغير . فقمت بحملة واسعة على دور الصحف ، لم تسفر عن اى تقدم ملحوظ فى الموقف ، وظل الجمهور محروماً من نفحات قلمى !! .

وبعد أن امتلأت سلال المهملات فى دور الصحف ، أفقت من غرورى ، لكنى لم أفقد ثقتى بإمكانياتى الأدبية ، بشرط أن أنميها وأصقلها بكثرة المران والاطلاع الغزير . وقررت أن أعفى المجلات من الحاحى لفترة مؤقتة ، لكنى لم أتوقف عن الانتاج لمتعتى الخاصة .

نساء عاريات :

كان الفراغ أكبر من أن تملأه ساعات الكتابة والقراءة والاستماع إلى برامج الاذاعة ، فاتجهت بغرائزي إلى الرسم ، تلك الهواية القديمة التي لم تحظ مني بالاهتمام الكافي اثناء المرحلة المدرسية .

بدأت أرسم نساء عاريات ، فأجد لذة كبرى وأنا أجسم المرأة المثالية على الورق . كنت استمتع بعملية الخلق هذه ، فقد كان في إمكاني أن أخلق المرأة التي أريدها من لا شيء . أوجدها من العدم . بامكاني أن أجعل شعرها طويلا أوقصيراً ، وبلمسات من أصابعي أحيلها سمراء أو شقراء . وبحركة صغيرة من طرف قلمي أضفي على شفتيها شيئاً من الامتلاء والحيوية.وبارادتي وحدي أضع عليها الثياب التي أريدها شفيفة أو معتمة . . ثم إذا شئت ، أجردها من ثيابها وأجعلها عارية أمامي .. في أي وضع أهواه .. !!

المرأة .. ذلك المخلوق البديع الرائع ، الذي كان يداعب خيالي ويضرم النار في غرائزي الجامحة . . . أصبحت طوع بناني أتحكم فيها بسن قلمي . وبأهداب فرشاتي ، ولم تعد تعبر بخيالي الجامح ، فلا أجني من أطيافها سوى اللوعة والحرمان . فقد أصبح في امكاني أن استجمع خيالي وأصبه على الورق . . مخلوقات بشرية رائعة .

بمثل هذا المنطق رحت أرسم في شغف وافراط.بالقلم الرصاص

أولاً ، ثم بالفحم بعد أن أكتشفت أنه يعطى تأثيراً أفضل ، لما يبرزه من درجات متباينة بين الاسود الحالك، والرمادى الخفيف. ولما لم تكن فى ذهنى صورة واضحة عن مواطن الفتنة فى جسد المرأة ، فقد استعنت ببعض المجلات الأجنبية ، التى كنت اشتريها خفية لتؤنس وحدتى عندما أنفرد بنفسى فى حجرتى . بدأت أخرج تلك المجلات المكتظة بأجساد الحسان ، وأقتبس منها فى رسم لوحاتى . لم أكن أنقل صوراً كاملة وأحاكيها كآلة التصوير ، بل أقتبس حركة من هنا ، وفماً من هناك ، ثم اقتطف نهدين أعجبانى لأزين بهما أنثاى التى تبرز على الصفحة البيضاء رويدا رويدا ، كأنها شبح يتضح من خلف ضباب منقشع .

أما ملامح الوجه فكانت معظمها من بنات أفكارى ، ومن وحى ذوقى الخاص .. لذا جاءت متشابهة إلى حد ما ، وهذا مالم ألاحظه حين رسمتها ، فقد كانت رسومى فى الواقع تعبر عن ميولى ورغباتى الخاصة أكثر مما تعبر عن الجمال المجرد فى قوالبه الفنية .

وعندما اتصفح اليوم بعض هذه اللوحات العارية التى رسمتها منذ حوالى عشرين عاما ، أجد أن مستواها الفنى لا بأس به وإن لم يكن ممتازاً،وهو لا يخلو من أخطاء ساذجة استطعت أن أتلافاها فى المحاولات التالية . لكن الشيء المذهل الذى أحارفيه الآن ، هو قدرتى الفائقة حينذاك على رسم لوحتين أو ثلاث لوحات كبيرة بالفحم فى يوم واحد ، وهى لوحات معقدة كاملة الظلال

والتفاصيل ولا تعليل لذلك إلا أنى كنت أفرغ طاقاتى الجنسية المكبوتة ، فى تلك الرسوم العارية . والأعجب من هذا أن تلك الرسوم لم تكن تثيرنى بعد أن أرسمها ، فعندئذ تصبح كأنها بناتى ، تثير إعجابى وإحساسى الفنى ، ولا تثير غرائزى .. ألسن من « بنات » أفكارى ؟

كانت هاتان الهوايتان تستغرقانى تماماً ، فلا تدعان لى فراغاً للتفكير السيء ، وصرفنى هذا التنفيس الفنى البريء عن العادات المادية السيئة . وهكذا وجدت نفسى أتسامى فوق الغرائز ، تلقائياً وبلا قصد .

* * *

لم يكن إشباع الرغبات الذاتية بالرسم مقصوراً على الجنس ، بل كنت أحياناً أرسم نفسى فارع القامة مفتول العضلات معوضاً بذلك الضعف الجسدى الذى أعانى منه . وذات مرة رسمت نفسى مرتدياً بذلة سهرة سوداء أنيقة ، ورباط عنق مجنح « بابيون » ولعلى بذلك كنت أتوق إلى شيء محروم منه ، إذ كانت المنامة « البيجاما » هى الرداء الوحيد الذى يكسو جسمى طوال ساعات النهار . ولعلى ، وباختيارى رداء السهرة ، كنت أتصور نفسى فى منصب رسمى ، أو فى ثياب العرس ! .

وأمامى الآن .. ومنذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، تحتل زاوية من حجرتى ثلاث لوحات زيتية رسمتها بنفسى ، الأولى تصور

رجلاً رياضياً ذا جسم مثالى رائع التكوين ، واللوحة الثانية تمثل امرأة تتمتع بكل ما يهزنى من صفات الجمال ، الشعر الطويل المموج ، الشفاه القرمزية المكتنزة ، الصدر المشرئب ، البطن الضامر .. إلى آخر هذه الصفات المثالية فى نظرى . أما اللوحة الثالثة فهى تضم طفلاً جميلاً مليئاً بالصحة والحيوية والذكاء .

واللوحات الثلاث لا تحتاج لتفكير طويل فى فهم مدلولاتها ، فهى تعبير واضح عن رغباتى المكبوتة . الجسم القوى ، والزوجة الجميلة ، والابن الذكى المعافى . حقاً لقد بالغت بريشتى فى تحديد التفاصيل المثالية ، فأنا فى الواقع أرضى بنصفها وأسعد به تماماً ، ولكن الحرمان الكامل تقابله قمة مثالية من باب التعويض .

كيف تعلمت الرسم :

كنت أرسم العرايا فى الخفاء ، لكن فى أوضاع محتشمة ، ولما كان والدى لا يؤمن بالفن ، ولم يقتن لوحة أو تمثالا طول حياته ، فقد كان من الطبيعى أن يبدى شيئاً من الاعتراض على تلك الصور « الخليعة » من وجهة نظره . وحاولت أن أقنعه بأنى لا أهتم إلا بالقيم الجمالية فى المرأة ، وضربت له مثلا بطلبة كلية الفنون الجميلة ، وكيف تجلب لهم الدولة نماذج حية عارية ليدرسوا عليها التشريح الخارجى للجسم . فقال مناوئاً :

— ولماذا لا ترسم النساء محتشمات داخل ثيابهن الجميلة ؟

فقلت صادقاً :

— لأنى رسام ولست مصمم أزياء .. والفنان يستخلص اللمحات الفنية من الطبيعة الصامتة والحية ، كما أبدعها الفنان الأعظم خالق الكون . . .

وعندما لم يجد مخرجاً لرأيه الرجعى ، اتهمنى بإضاعة وقتى فى هذا الكلام الفارغ . لكنه بعد إلحاح طويل كف عن مهاجمتى ، لا عن اقتناع ، ولكن تمشياً مع سياسة الأمر الواقع ، ومراعاة لظروفى المرضية على أساس أن أتسلى وأشغل فراغى ولو بكلام فارغ .

بعد أن امتلأت حوائط حجرتى بالنساء الفاتنات ، كان قلمى قد اشتد عوده واستقامت خطوطه ، وارتفعت كلمات التشجيع إلى مرتبة الاعجاب . لكنى وجدت بعض الصعوبات تعترضنى أثناء الرسم ، خاصة فى رسم الأيدى والأرجل بما فيها من أصابع وحركات . وأحسست أن رسمى يفتقر إلى الحيوية عندما ابتكر تكويناً من محض أفكارى . وأدركت أنى محتاج إلى دراسة تكشف لى دقائق هذا الفن الجميل .

عدت إلى كتاب كبير إسمه « الفن والجمال » كنت أقتنيه منذ سنوات وقرأته نظرياً ، لكنى لم أطبقه عملياً لانشغالى بالأعباء المدرسية . ورحت أطبق تمريناته على الورق ، وأتمرن على النماذج المبسطة فى الكتاب ، وعلى انفعالات الوجه فى حالات الغضب والفرح والرعب والحيرة والألم .. إلى آخر هـــذه

الانفعالات التى تحتاج إلى مهارة ومران حتى يتقنها الرسام .

أول إنتاج مطبوع :

فى مايو سنة ١٩٤٦ ، قرأت فى إحدى الجرائد اليومية إعلاناً صغيراً عن طلب رسام لمجلة إقليمية اسمها « المصباح » . لكنها كانت تطبع فى القاهرة . فأسرعت أكتب رسالة لصاحبها أخبره فيها بتطوعى بالرسم فى « المصباح » مجاناً بدون أى مقابل. وأبديت استعدادى لرسم الفكاهات الكاريكاتير ، ورسم الصور التوضيحية للقصص بالفحم . ولم أذكر له حالتى الصحية حتى لا ينفر من التعاون معى خوفاً من تعطيل مصالحه . وأرفقت برسالتى بعض الفكاهات الكاريكاتير كنماذج من إنتاجى ، وطلبت أن تكون معاملتنا بالمراسلة إن أمكن .

لم تكن عندى فكرة عن الطباعة بالزنكوغراف ، التى تحتم أن تكون الرسوم بالحبر الشينى ، لذا أرسلت إليه الفكاهات المذكورة مرسومة بالقلم الرصاص. وكان هذا الجهل الفاضح كفيلا بأن يجعله يمزق رسالتى بما فيها . لكن صاحب « المصباح » كان رجلا عملياً مرناً . وكانت ميزانيته لا تتحمل رساماً بالأجر ، فلم يجد غضاضة فى أن يمر على خطوطى بالحبر الشينى الأسود ، قبل أن يطبعها فى مجلته التى صدرت فى يونيه ١٩٤٦ حاملة أول ثلاث صور كاريكاتير من إنتاجى . ورغم أن خطوطها كانت مهزوزة قليلا

بعد تحبيرها من يد غير خبيره ، فإنها بدت فى نظرى يومئذ أروع من لوحات مايكل انجلو ! . إنها أول محاولة ناجحة لنشر إنتاجى على الجماهير .

لكنى ظللت قلقاً على مصيرى إذا ما علم صاحب تلك الدار الصحفية بأن رسام المجلة ليس إلا فتى مقعداً فى التاسعة عشرة من عمره. وإذا بالبريد يحمل لى نسخة من المجلة التى تحمل إنتاجى الأول ، ومعها رسالة مستطيلة مطبوع على غلافها « كليشيه » فخم باسم المجلة ، وتحتها رئيس التحرير : محمدعلى أحمد. وكانت الرسالة معنونة بإسمى مسبوقاً بلقب « أستاذ » ، ومن بعده إسم أول وظيفة شغلتها فى حياتى .. « رسام مجلة المصباح » .

يا فرج الله !! .. ما هذا النصر العظيم ؟ ! .. إذن فقد أصبحت رساماً صحفياً . . وزميلا للفنان العبقرى رخا !! وأحسست بأنى فتحت عكا ! وماذا تكون عكا بجانب المصباح ؟ !

فضضت الرسالة بلهفة ، فكانت من سكرتيرة التحرير السيدة خديجة القباح . يا للهول . ! إذن فالمجلة ضخمة كما ظننت ، وبها سكرتيرة تحرير ومحررون . ولو أنى خجول فى معاملة النساء . . لكن لا بأس .. الشغل شغل .. ويجب أن أملأ مركزى .

كانت سكرتيرة التحرير فى رسالتها ترحب بجهودى فى رسم المجلة ، وتطلب منى استلام عملى فى إدارة المجلة . . !! وأسقط فى يدى .. كيف أذهب إلى إدارة المجلة؟وكيف أواجههم بوضعى

الخاص ؟ وكيف أتعامل معهم بالمراسلة ؟ . ولم أجد مفراً من مصارحتهم بالحقيقةورزقى على الله . و « الرزق » هنا يذكر مجازاً لأنى وعدتهم بالرسم دون مقابل .

أوفدت إليهم « سكرتيرى الخاص » الذى هو ابن عمتى « وليم » وكان قد تقدم فى العمر سنه ، فأصبح ستة عشر عاماً ، فازداد بذلك جرأة و « لماضة » .وزودته بنماذج أخرى من إنتاجى وطلبت من سكرتيرى إفهامهم بأنه — أى وليم — سيكون همزة الوصل بين المجلة ورسامها ، فيأتى إلى بطلباتهم ، ويأخذ إليهم الرسوم المطلوبة فى مواعيد منتظمة ثابتة .

لم يجد سكرتيرى المزعوم أية عقبات فى التفاهم معهم . فقد اتضح له أن ادارة المجلة تقع فى غرفتين بالدور الأرضى فى بيت قديم ينزوى فى حارة ضيقة.وأن رئيس التحرير إنسان مكافح على قد الحال ، وسكرتيرة التحرير هى زوجته النشيطة التى تساعده فى كفاحه..وكان الله يحب المحسنين .. لا محررون ولا حتى سعاة .

هكذا تطابقت ظروفنا العسيرة .. فطاعنا « بَصْرة » .

جاءنى « وليم » بالقصص والموضوعات والفكاهات المطلوب رسمها ، فانكببت عليها وأنجزتها بسرعة . لكن مسألة الحبر الشينى قامت عقبة فى طريق عندما بدأت أمارس الرسم به .

فمن خصائص الحبر الشينى أنه يجف بسرعة ، فيتجمد على طرف سن الريشة ،وبالنسبة للشخص الجالس على مكتب يكون سن الريشة

إلى أسفل ، وقد امتلأ تجويفه بالحبر فيظل محتفظاً بسيولته حيث يتسرب إلى طرف السن أولاً بأول . أما بالنسبة لوضعى فى الفراش فإنى أكتب وسن القلم متجه إلى أعلى ، فتتسرب عبوة الريشة إلى باطنها حيث تجف هناك دون أن تصل إلى طرف سن الريشة ، مما يستدعى غمسها باستمرار فى الحبر ، فضلاً عن أن الخطوط تبدو موصولة مشوهة لأنها ترسم على ثلاث أو أربع دفعات .

أخيراً اهتديت إلى فكرة بسيطة جداً ، فقد صنعت من قطعة صفيح ما يشبه الخزان يوضع فوق سن الريشة العادى ، فأصبح يمتص كمية كبيرة من الحبر الأسود ، الذى لم يعد يجف قبل أن يتسرب من طرف السن خطوطاً طويلة غير موصولة .

بعد أن توطدت علاقتى برئيس التحرير عرضت عليه قصة « الطبيب الخجول » ، التى وضعت لها عنوان « من أول نظرة » وأرفقتها برسم بالفحم لأحد مواقف القصة ، وفيه يبدو الطبيب الوسيم يقف مرتبكاً أمام الحسناء المستلقية على السرير وقد كشفت عن صدرها . وفوجئت بنشرها مع الرسم فى العدد التالى ، وتحت العنوان هذا السطر الطويل « بقلم الرسام صبحى عزيز الجيار » . كان هذا فى أول يوليه ١٩٤٦ .

ما كدت أفرح بعملى الجديد كرسام وقصاص ، حتى اختلت ميزانية الرجل ، فأوقف نشاطه واحتجبت مجلة « المصباح »

واحتجب معها شعاع الأمل الذى بزغ فى سماء حياتى .
وكانت تلك أول مجلة يلحقها نحسى فتغلق أبوابها !!

النحس يطاردنى :

لست مبالغاً أو متجنياً على الحقيقة إذا ما اعترفت هنا بأن نحسى قضى على عدة مجلات رسمت فيها . ولا أخشى أن يقيم أصحابها الآن دعاوى ضدى مطالبين بالتعويض ، فقد سقط حقهم فى إقامة الدعوى العمومية .. بالتقادم ، حسب نص القانون . والواقع أن ضميرى يؤنبنى ، ولكن فى غير عنف . فإنى لم أتعمد إيذاء أحد ، لأنى أنا أيضاً كنت من ضحايا النحس .

كانت المصباح هى الضحية الأولى ، وبدأت بعدها أغزو المجلات برسومى فقط ، مستعيناً فى ذلك بسلاحين ، أحدهما سكرتيرى الخاص ، وثانيهما تطوعى بالعمل دون مقابل مادى . فكان السلاح الأول يعوض قيودى الجسدية ، والاغراء الثانى يعوض عيوبى الفنية . فإن أصحاب المجلات الصغيرة كانوا يفضلون رساماً لابأس به وبدون أجر ، عن رسام مجيد بالأجر . وإنى لأنصح الفنانين والأدباء الناشئين ألا يتعجلوا المكافآت المادية فى بداية حياتهم ، حتى يجدوا مجالات لنشر إنتاجهم ، فالمكسب الأدبى هنا خير لهم من قروش لاقيمة لها .

بعد احتجاب « المصباح » بأيام نشرت لى مجلة « بلادى » رسماً كبيراً بطول الصفحة لحسناء تلبس ثوباً من ورق التوت ، وعلقت عليها بجملة « حواء تهبط من الجنة » .. كان هذا فى ٢٣ يوليه ١٩٤٦ . وقبل أن تنشر لى الصورة الثانية احتجبت مجلة «بلادى» التى كان يصدرها الأستاذ محمود سمهان ، فإليه إعتذارى وأسفى .

أما الضحية التالية ، فكانت مجلة رائعة اسمها « أخبار الدنيا » يصدرها الصحفى السواح الأستاذ عبد المنعم حسن ، وكان يخرجها على النظام الأجنبى من طباعة فاخرة وألوان زاهية وورق ممتاز . لم تتحمل منى غير نكتة واحدة من ثلاثة مناظر .. كان ذلك فى أكتوبر ١٩٤٦ ، ثم احتجبت تاركة فى قلبى الحسرات .

استمرت المحاولات دون يأس ، حتى نشرت بعض فكاهات كاريكاتورية فى مجلة فنية اسمها « السينما » كان يصدرها الأستاذ كامل حفناوى . كان ذلك فى ١٦ يونيه ١٩٤٧ . وكانت المجلة ناجحة راسخة الأقدام ، فلم تصرعها أول إصابة ، وتحملت عدداً آخر زودته برسومى ، ثم فاضت روحها تشكو لبارئها نحسى المشئوم .

وكانت تصدر فى ذلك الحين مجلة فكاهية واسعة الانتشار اسمها « البعكوكة » يصدرها الصحفى العريق محمود عزت المفتى ، كانت « البعكوكة » تحظى بشعبية ضخمة لم تحظ بها مجلة أسبوعية حتى الآن . وقيل إن توزيعها وصل إلى ٧٥ ألف نسخة فى كل عدد . وهذا رقم قياسى بالنسبة للمجلات الأسبوعية . ورأيت أن

أجرب حظى مع مجلة راسخة الأقدام حتى يذوب نحسى فى سعدها.

وفى ١٠ أغسطس ١٩٤٧ تمكنت من نشر إحدى فكاهاتى الكاريكاتير فى صدر الصفحة الأولى من « البعكوكة » . ووجدت الفرصة مواتية للاستفادة مادياً من إنتاجى . ومادام صاحب المجلة الغنية قد قبل نشره ، فلا داعى أن يستغلنى مجاناً . وطالبت صاحب المجلة عن طريق « سكرتيرى الخاص » بأن يدفع لى أجراً عن الفكاهات الجديدة . فإذا بديكتاتور الصحافة الفكاهية ، يعيد إليه فكاهاتى وهو يقول باستهزاء :

— لا يابنى . . متشكرين . . أنا عندى كليشيهات قديمة تملأ دولاباً بأكمله . . يمكننى أن أعيد نشرها مع تغيير النكتة تحتها . .

تملكنى العناد ، فرفضت أن أتعامل معه دون مقابل ، وهو المليونير الذى يبنى العمارات من مكاسب « البعكوكة » التى تعتمد فى تحريرها على الهواة من الزجالين والقصاصين ، وفكاهات القراء المجانية والأغانى الجديدة التى يحصل عليها مجاناً بالطبع .

هكذا خدمته الظروف ، فأفلت بجلده من نحسى ، وخطر لى أن أتطوع بالرسم فى مجلته مجاناً حتى أنتقم منه ! لكن حظه السعيد غلب حقدى ، ولم تسمح لى كرامتى بالخضوع لجبروته وشروطه المتعسفة الجائرة .

سنوات تجربة :

من ١٠ أغسطس ١٩٤٧ إلى ٤ فبراير ١٩٥١ ، لم أنشر كلمة ولا صورة فى أية مجلة أو صحيفة . ثلاث سنوات ونصف مرت بطيئة ثقيلة مجدبة أحارب فيها اليأس والفشل ، محاولاً أن أنمى هواياتى وأتعمق فى دراستها ، متربصاً لفرصة مواتية استأنف بها نشر إنتاجى فى الرسم والقصة .

درست كتابين أو ثلاثة فى النقد الأدبى ، وقرأت نماذج كثيرة فى القصة القصيرة . وركزت جهودى على هذا النوع الذى شعرت بميل نحوه قراءة وكتابة ، لأنى بطبعى أميل إلى التركيز ، وأحب أن أصل إلى هدفى بسرعة ومن أقصر طريق . كما أنى ملول ، أميل إلى التجديد المستمر ، وأفضل أن أقرأ كتاباً يحوى عشرين قصة قصيرة ، من أن أقرأ كتاباً بنفس الحجم يحوى رواية طويلة . وإن كنت بحكم عملى فى الحقل الأدبى أطلع على النوعين من باب الدراسة ، والإنسان الدارس لا يقرأ ما يحب فقط ، بل ما يوسع مداركه فى ميدان تخصصه . ولست أعنى بهذا أنى لا أستمتع بالروايات الطويلة ، لكنى فقط « أفضل » القصص القصيرة .

أما من حيث التأليف ، فإن كتاباً يحوى عشرين قصة قصيرة يحتاج مجهوداً ذهنياً فى تأليفه أضعاف ما تستنفده رواية طويلة بنفس الحجم ، لأن القصص القصيرة تحتاج كل منها إلى فكرة

جديدة قائمة بذاتها ، لها بداية وقمة ونهاية ، ولها شخصياتها المستقلة وأحداثها وأجواؤها التى لا تتكرر فى بقية الكتاب . بعكس الرواية الطويلة التى لها بداية وعقدة وخاتمة، تماماً كالقصة القصيرة، مع تفريعات واستطراد فى تطوير الأحداث المتعددة بما يتفق مع المنطق وطبيعة الأحداث ذاتها . ولست استهين بالرواية الطويلة أو أقلل من شأنها . لكننى فقط أعقد مقارنة بديهية لا ينكرها الكتّاب الذين يجمعون بين ممارسة النوعين . وقد مارست انا أيضاً ـ فيما بعد ـ كتابة الرواية والمسرحية والتمثيلية الطويلة ، لكنّى لم أتخصص فيها .

أرشيف الرسوم :

أما فى الرسم فقد وجدت أنى أجد بعض الصعوبة فى ابتكار أوضاع الشخصيات التى أرسمها ، وكانت حركاتها تبدو مفتعلة خالية من الروح . وأحياناً كانت الأطراف تبدو مقيدة جامدة أو نافرة من الجسم . وأدركت أنى أحتاج لمزيد من الدراسة والتمرين .

ثم اهتديت إلى طريقة أخرى أدرس بها حركات الجسم فى مختلف أوضاعه مستعيناً فى ذلك بالصور الفوتوغرافية فى المجلات والرسوم اليدوية بوجه خاص . سواء منها الكاريكاتير أو ما يحاكى الطبيعة ، ثم تطورت هذه الطريقة البدائية إلى شىء من التنظيم .

فكنت أجمع كل الصور والرسوم التى تروق لى فى كراسة كبيرة حتى ألجأ إليها عندما احتاج إلى دراسة حركة أو زاوية صعبة . لكنى كنت أجد صعوبة فى العثور على الحركة التى ابتغيها وسط هذه الألوف من الرسوم والصور . فلجأت إلى طريقة أكثر تنظيماً بحيث يسهل الرجوع إليها ، واختيار المطلوب فى أسرع وقت .

هكذا بدأت أعد الأرشيف الضخم المبوب الذى أصبح فيما بعد مرجعاً هاماً أدرس فيه أدق الحركات والزوايا والظلال ، فأتمرن على الصعب منها حتى أتقنه .

كان الأرشيف يضم أقساماً مختلفة . منها قسم للوجوه بتفاصيلها وتعبيراتها..وقسم لجسم الإنسان واقفاً فى كل الأوضاع.. وقسم آخر للإنسان النائم . . وآخر للجالس . . وقسم للأيدى والأصابع فى حركات وزوايا مختلفة . . وآخر الأقدام . . وقسم كبير للحيوانات والطيور . . وقسم للمناظر الطبيعية .. الخ ..

وأخذت أرسم بشراهة مستعيناً بذلك المرجع الضخم الذى أغنانى عن النماذج الحية . حتى اختزنت فى رأسى معظم محتويات الأرشيف لدرجة أنى استغنيت عنه تماماً بعد بضع سنوات ، عندما أصبحت عندى فكرة واضحة عن جسم الإنسان من الخارج ، وعن مواطن الجمال فيه ، ومقاييس التناسب فى الأجساد البشرية العارية ذكوراً أو إناثاً .

والحكمة من الرسم العارى ، وإن اتخذته أنا فى بداية شبابى

كأداة للتنفيس عن مراهقتى الجامحة ، إلا أنه ضرورة لازمة لكل من يرسم الطبيعة الحية . ولو كان يرسم أناساً فى كامل ثيابهم ، فيجب عليه أولا أن يرسمهم عرايا بخطوط سريعة حتى يطمئن إلى سلامة الحركة ، ثم يكسوهم بما يشاء من ثياب . بل إنه فى فن النحت يجب أن يبنى المثال تمثاله هيكلا عظمياً ، ثم يكسوه بالعضلات ، ثم يكسوه بالثياب . وهذه نظرية معروفة لايختلف فيها اثنان ممن مارسوا الرسم والنحت . لكن بعض الناس يظنون أن الفنانين إباحيون وهم أبرياء من هذه التهمة . رغم أنهم يقدسون الجمال العارى فى الصورة التى فطرها عليه الفنان الأعظم ، وليست كما شوهها مصممو الأزياء . وهم فى هذا يستمتعون بالجمال منزهاً عن الغرائز ، ولا يرون فيه أكثر من تمثال متناسق الأعضاء أو لوحة فنية رائعة ، أو زهرة زاهية الألوان ، أو منظر طبيعى ترتاح إليه العين والنفس معاً .

دراسة الرسم بالمراسلة :

ذات يوم كنت أقرأ مجلة انجليزية ، فوجدت فيها إعلاناً عن معهد لتعليم الرسم بالمراسلة اسمه « كلية لندن للفن » « London Art College » . وكان من ضمن برامجها الرسم الكاريكاتير ، فأسرعت بالكتابة إليها . وسرعان ماجاءنى الرد مرحباً بانضمامى إلى الكلية نظير رسوم شهرية لاتزيد عن

جنيه استرليني وبضعة شلنات تحول على بنك باركليز « وهو بنك الاسكندرية الآن » . أرفقوا بأول رسالة بعض الرسوم التخطيطية الناقصة . وطلبوا مني أن أكملها ، حتى يستدلوا من خطوطي على مدى إلمامي بهذا الفن . كان هذا الاختبار البسيط يسيراً بالنسبة لمقدرتي على الرسم حينذاك رغم ضآلتها . لهذا تملكني الغرور فأرفقت برسالتي التالية بعض الفكاهات الكاريكاتير التي نشرت لي في بعض المجلات التي ذكرتها ، بعد أن ترجمت كلمات الفكاهات إلى الانجليزية .

وجاءتني رسالتهم التالية متضمنة الدرس الأول في كتيب صغير مطبوع . وبالطبع امتدحوا رسومي الكاريكاتير مجاملين ، فلم يكن من الحكمة أن يخسروا طالباً جديداً .

كانت الدروس موضحة بالرسوم ، ومعها تمرينات أنفذها وأرسلها إليهم مع القسط الشهري . فتصحح وتعاد مع الدرس التالي وهكذا . وكان برنامج الدراسة لايزيد عن اثني عشر شهراً . وصلني خلالها عن كل شهر كتيب صغير عبارة عن ملزمة في ست عشرة صفحة ، وعدة تمرينات أقوم بتنفيذها كدراسة عملية لما جاء في الدرس الشهري .

لا أنكر أني استفدت فعلا من هذه الدراسة ، وأحطت على الأقل بالقواعد الأساسية لهذا الفن ، ولم يبق غير التمرين الكثير

حتى تنضج موهبتى ، ويصبح لى أسلوبى الخاص المميز بعد أن أتخلص من التقليد الذى بدأت به حياتى الفنية .

رغم أن خبراء الفنون ينصحون المبتدئين بعدم التقليد ، وبأن يستمدوا مادة الرسم من الطبيعة الحية والصامتة . إلا أنى كنت مضطراً لهذا السلوك . لأنه لم تكن تتوفر لى بين جدرانى المغلقة تلك الطبيعة الصامتة ، ولا « الموديلات » العارية . لهذا لجأت إلى الاقتباس فى محاولاتى الأولى كما ذكرت . وكان فى مقدمة من تأسرنى أعمالهم الفنية الرسام العظيم محمد عبد المنعم رخا . وقد جمعت له أرشيفاً كاملا لكل مانشره فى المجلات الأسبوعية ، كذلك اقتنيت كتابه الكبير الذى أصدره سنة ١٩٤٦ واسمه « صور ضاحكة » . . وإنى اعتبر الفنان رخا من أساتذتى وأصحاب الفضل على ريشتى المتواضعة، رغم أنى لم أتشرف حتى الآن بمقابلته أو التعرف عليه .

ومن الرسامين العالميين الذين كنت أتابع لوحاتهم بشغف ، الرسام الأمريكى «فارجا » ، وكانت لوحاته تنشر فى كثير من المجلات منها «آخر ساعة » و « أهل الفن » وغيرها وكانت لوحاته تضم نساء بارعات الجمال ممشوقات القدود . فى غلالات وأردية رقيقة وأوضاع رائعة . كذلك كانت تعجبنى لوحات « داڤيد رايت » التى كانت تحتكر نشرها « آخر ساعة » فى فترة ما . وكانت مجلة « مسامرات الجيب » التى صدرت عام ١٩٤٥ تنشر سلسلة من

القصص الخيالية مترجمة بقلم الاستاذ يوسف السباعى . كانت هذه القصص موضحة بلوحات كبيرة غاية فى الروعة والاتقان ، لا تخلو إحداها من النساء العاريات . وكانت هذه اللوحات بريشة الرسام العالمى « متانيا » . وقد جمعتها جميعاً فى كراسة خاصة ، وكنت أدرس منها الظلال والمقاييس الجمالية المتناسقة التى لم أر لها مثيلا حتى الآن ، رغم أنى اقتنيت بعد ذلك آلافاً من اللوحات العالمية المكدسة فى الكتب الفنية ، ومنها كتاب يحوى أشهر خمسمائة لوحة عالمية . لكن مقاييسها الفنية القديمة تختلف عن مقاييس الجمال الأنثوى فى عصرنا الحديث الذى كان «متانيا» يجسده فى لوحاته الخالدة . وكان « فارجا » أيضاً يصور الجمال العصرى، ولكن فى خطوط مبسطة . أما « متانيا » فكان له أسلوب مميز فى التظليل يجسم الأعضاء ويبرزها حتى تكاد شخصياته أن تقفز من صفحة الورق وقد دبت فيها الحياة .

لقمة العيش

فى الفتره المجدبة بين سنة ١٩٤٧ وسنة ١٩٥١ ، حدثت نكسة فى نشر إنتاجى كما أسلفت ، وبدأ القلق يساورنى على مستقبلى الاجتماعى . كان لابد لى أن أفكر فى مصيرى بسرعة، قبل أن تنهار معنوياتى عندما يتخرج زملائى فى الجامعة ويمارسون أعمالهم ، ويعيشون حياتهم المستقلة ، بينما أنا مستسلم لعجزى فى السرير. كان هذا أمراً عسيراً على نفسى لا يمكن احتماله على الإطلاق. لهذا كنت دائب التفكير والمحاولة فى حدود امكانياتى الحركية والمالية . وكان رصيد كل منهما . . لاشىء . لهذا كان على أن أبدأ من نقطة الصفر ، إذا أردت أن أطفو مع الآدميين على سطح الأرض .

صرفت نظرى عن التكسب من التأليف والترجمة والرسم ، لكننى لم أتخل عنها كهوايات تسعدنى وتشغل فراغى وتؤنس وحدتى . ذلك الفراغ الممل القاتل ، والوحدة الحزينة التى توحى بالأفكار اليائسة .

كنت أكتب قصصاً من نوع جديد لا تدور حول الجنس والغرائز المتوهجة، بقدر ما تنضح باليأس الأسود المرير. وأذكر فى تلك المرحلة أيضاً أنى عالجت نظم الشعر والزجل لمجرد التعبير عن خواطرى وواقعى الكئيب الحزين الساخط.

إنى لست شاعراً ولا زجالا، ولم أحترف التأليف فى هذا الميدان على مستوى النشر، لسبب بسيط هو أن انتاجى لم يصل فيه إلى مستوى يستحق النشر. لكننى أسجل هنا شذرات من أزجالى وأشعارى، كنماذج تعبر بوضوح عن حالتى النفسية فى تلك الفترة.

هذا جزء من قطعة طويلة بعنوان «يادنيا فانية يا مسخرة» أقول فيه:

يادنيا فانيـــه يامسخره يا مسرح كبير للهنكره
حتى اللى عيشته ميسره مصيره برضـــه لقبره
يادنيا فانيه يامسخره

الغنى تلقاه عليـــل والسليم عايش ذليـل
وانا اللى عندى الهم تقيل كان ليـــه داكله ياترى
يادنيا فانيه يامسخره

وهذه صورة أخرى قاتمة متذمرة، فيها مناجاة وعتاب للمولى عز وجل، فاضت بها نفسى اليائسة فى تلك الفترة العصيبة. وهى زجل بعنوان «يارب أنت قوى جبار»، هذا جزء منها:

يارب انت قوى جبار من حكمتك أنا عقلى إحتار
تدى الظالم بالقنطـــار والمؤمن ترميه فى النـــار
يارب انت قوى جبار
النحس دايمـــاً ملازمنى وفى كل مشروع تعـــاندنى
واشمعنى انا بتقيـــدنى وتخلى آمالى تنهـــار
يارب انت قوى جبار
تدى الحرامى فلوس .. والدون وقوتنا إحنا ماهوش مضمون
والمنحوس يفضل مديونـــ مهما يسعى ليل ونهـــار
يارب انت قوى جبار
باخلـص وبراعى ضميرى ما قبلش يوم أظلم غيرى
وغيرى لص ومتـــدارى يزرع شوك يلاقيه أزهـــار
يارب انت قوى جبار

أعمال تجارية :

بدأت أتطلع إلى ممارسة بعض الأعمال التجارية التى يتيسر لى أداؤها فى وضعى المقيد، بل فكرت أن أستغل قيودى فى أعمال لا يتقنها إلا المقيدون . ولم يكن يعنينى أن ابدأ بأى عمل مهما كان تافهاً ، ثم أنميه بالاتقان والمثابرة .

كانت تعن لى أحياناً أفكار مضحكة . تمليها حدود إمكانياتى الضيقة . وقد خطر لى ذات يوم أن أستغل رقدتى الثابتة الدائمة

فى تفريخ بيض الدجاج !! كانت العملية سهلة ولن تضايقنى فى شىء، فإن بين ساقى المنفرجتين فراغاً دافئاً لم يستغل، وما علىّ إلا أن أضع كمية من البيض المخصب . وأقلّبه كل يوم كما تفعل الدجاجة . وبعد ثلاثة أسابيع تخرج منه الكتا كيت !.

الفكرة ساذجة بالطبع . بل سخيفة وغير إقتصادية ، لأن تفريخ البيضة فى أى معمل لايزيد عن قرش صاغ . وعلى هذا فلن يزيد إيرادى من هذه العلمية عن عشرة قروش فى الشهر . . إذا نجحت، لكنى كنت محتاجاً نفسياً إلى القيام بأى عمل ولو كانت ثمرته ضئيلة . لهذا أقدمت فعلا على تنفيذ الفكرة السخيفة ولو كتجربة مسلية . وحاول الذين حولى أن يسخروا منى ، وينالوا من رجولتى لأنى أمارس عمل الإناث . فاحتضان البيض من إختصاص الدجاجة وحدها ، أما الديك فهو يترفع عن هذه المهمة الأنثوية . لكنى دفعت عن نفسى هذ الاتهام المشين بأن طيور السماء كلها كالحمام واليمام والعصافير يتناوب فيها الذكر والأنثى احتضان البيض. ثم عدلت عن تلك التجربة قبل أن تكتمل، عندما أيقنت أنها فكرة غير عملية ، وتأ كدت من عدم جدواها اقتصاديا .

سكرتير عمومى :

ثم خطر لى أن أعمل كسكرتير عمومى ، وهى فكرة أستغل فيها التليفون الذى لا يفارق جانبي ليل نهار ، وهى ميزة لا تتاح

لأى إنسان متحرك ، قد يضطر إلى الخروج لزيارة أو لعمل أو للترويح عن النفس . وقد تفوته مكالمة هامة كان ينتظرها ، أو أمر مفاجىء عاجل . وليس فى إمكان كل رجل أعمال أن يستخدم سكرتيراً خاصاً لتلقى مكالماته التليفونية أثناء غيابه ، لهذا لجأ العلماء فى الخارج إلى اختراع « ديكتافون » ملحق بالتليفون ، وظيفته أن يسجل هذه المكالمات أثناء غياب صاحبها .

كانت الفكرة أن أجعل من نفسى هذا « الديكتافون » ، لكنه « ديكتافون » بشرى عاقل متفاهم يمكنه أن يبلغ رسائل معينة فضلا عن تلقى المكالمات . وما على المشترك إلا أن يضع رقم تليفونى فى مطبوعاته تحت عنوان « استعلامات » مثلا . ثم يطلبنى قبل أن يغادر مكتبه ليبلغنى بما يريد أن يجيب به على عملائه . وبعد عودته إلى مكتبه يرفع السماعة ليعرف منى تقريراً مفصلا عن كل من اتصلوا به فى غيابه . ولاشك أن كثيرين من أصحاب الأعمال سوف يرحبون بهذا السكرتير الدقيق ، خاصة إذا كانت قيمة الاشتراك لاتزيد عن جنيه واحد شهرياً . ومن هذه الاشتراكات البسيطة كنت أستطيع أن أجمع مبلغاً لابأس به كل شهر .

لكن هذه الفكرة لم تأخــــذ طريقها إلى حيز التنفيذ لعدة أسباب :

أولا : أنه كان لزاماً علىّ أن أقابل المشتركين شخصياً لاقناعهم بجدوى الفكرة الجديدة . ولم أجد حولى من يقوم بهذه المهمة غير

إبن عمى ، أى سكرتيرى فى الأوساط الصحفية ، لكنه لم يكن — بحجمه الضئيل وعمره الصغير — يستطيع أن يقنع العملاء بجدية المشروع . وفكرت فى أن أنشر إعلاناً فى الجرائد، لكنه كان سيحتاج أيضاً لمندوب لشرح الفكرة وتحصيل الاشتراكات .

كذلك كان هناك سبب نفسى يعرقل حماسى للمشروع . فقد خشيت أن يتوهم أحد المشتركين أنه اشترانى بالجنيه الشهرى ، فيلقى إلى أوامره فى صلف وعجرفة مما لا تقبله طبيعتى الحساسة ، أو قد يخطر لأحد ضعاف النفوس أنى موظف لديه ، فيغلق السكة فى وجهى دون تحية أو كلمة شكر . وهذه الحركة لا أقبلها بتاتاً — إلى الآن — حتى من أعز أصدقائى ، فإنى أعتبرها كمن يصفق الباب فى وجه ضيف دون إستئذان أو إعتذار . ويتضاعف إحساسى بالإهانة إذا كنت أنا الذى طلبت المكالمة. لذلك أحرص على إنهاء حديثى بسرعة حتى لا أترك لمحدثى فرصة إنهاء المكالمة ولو بأدب . فإن طالب المكالمة — فى رأيى — كمن يطرق باباً للزيارة . ومن حقه وحده أن ينهى الحديث ، كما أنه ليس من حق المضيف أن يطلب إنهاء الزيارة حتى لا يؤذى شعور ضيفه ، خاصة فى مجتمعنا الشرقى . وكثيراً ماقاسيت من مكالمات طويلة تنخلع لها ذراعى العليلة دون أن أجرؤ على إنهاء المكالمة حرصاً على شعور محدثى . وقد يكون فى تصرف هذا حياء متطرف ، لكنى أعترف بأن هذا الخجل هو أحد عيوبى التى لم أتخلص منها تماماً .

دروس خصوصية :

ثم تراءى لى أن أعطى دروساً خصوصية للطلبة . وهى مهمة أستطيع أداءها بسهولة . وبدأت فعلا بأبناء الجيران الذين كانوا يلجأون إلى استشارتى من وقت لآخر، ثم انتظم بعضهم فى دروس دورية . لكنى شعرت بحرج شديد جداً فى أن أتقاضى أجراً عن خدمة جيرانى . ولست نادماً على هذا . فقد كبر هؤلاء الأطفال ، وأدوا لى خدمات كثيرة فى شبابهم تفوق مجهودى فى الدروس الخصوصية . هذا فضلاً عن العلاقات الطيبة التى تربطنى بهم حتى الآن .

ثم أتى لى جيرانى بطفل من أقاربهم لأعطيه دروساً خصوصية فى اللغة الفرنسية. واشترطوا أن أتقاضى أجراً عن تدريسى له، لأنه غريب بالنسبة لى . تمنعت فى أول الأمر لحرجى الشديد من المعاملات المادية . ثم رضخت تحت ضغط الحاحهم المستمر ، وبعد أن أفهمونى أن الأجر سيكون على شكل هدية إذا تم لتلميذى النجاح .

كان والد التلميذ يريد أن يدخله مدرسة فرنسية ، لكن عمر الولد كان أكبر من السن المحددة للسنة الأولى ، وكان من الممكن قبوله فى السنة الثانية إذا نجح فى دروس السنة الأولى . حيث يتم امتحانه بعد شهرين . وكانت مهمتى أن أجعله يستوعب

دروس سنة كاملة فى تلك المدة الوجيزة . خشيت ألا تسعفنى معلوماتى المحدودة فى اللغة الفرنسية لانجاز هذه المهمة ، خاصة وأنها مغامرة قد تضيّع على الطفل فرصة الالتحاق بالمدرسة الفرنسية. حاولت أن أتنصل من تلك المسئولية لأدع لهم فرصة التعامل مع مدرس متخصص ، لأن فشل المتخصص سيرجعونه إلى ضعف التلميذ ، أما إذا رسب التلميذ معى فسوف يعزى الفشل إلى عدم تخصصى . لكنهم رفضوا تنحيتى وأصروا على قيامى بالمهمة استناداً إلى توفيقى السابق مع أبناء الجيران .

عندما طلبت الكتب لاختبر مستواها بالنسبة لى ، وجدت أنهما كتابان فقط . أحدهما فى اللغة والآخر للحساب . واطمأنت وساوسى إذ وجدت مستواهما أقل بكثير من حصيلتى فى اللغة الفرنسية ، وهى ليست حصيلة المدرسة الثانوية فقط ، بل لأنى نشأت فى بيت نصفه يتكلمن الفرنسية بطلاقة، فإن والدتى وأخواتى تعلمن فى مدارس الراهبات الفرنسية . وكنت ألتقط منهن كثيراً من التعبيرات ... فضلا عن النطق السليم .

كان تلميذى فى الواقع طفلاً مؤدباً مطيعاً ، فلم يتعبنى كثيراً . لكنه كان يجـــد صعوبة كبيرة فى نطق الحروف المتحركة ، وهى صعبة فعلاً على اللسان العربى فى البداية لأن مخارجها ليس لها نظير فى اللغة العربية .

مضى الشهران ، ونجح تلميذى، وكانت فرحة أهله به لا يوازيها

إلا فرحتى بانتصارى على هذا التحدى الذى ائتمنونى عليه . ولو أنه فشل فى الالتحاق بالمدرسة الفرنسية لما رحمنى ضميرى من الإحساس بالمسئولية عن المستقبل الذى كان ينشده له والده .

أسرع أبوه يشكرنى ويقدم لى علبة فاخرة من الحلوى، ومعها مظروف بداخله ورقة مالية من فئة الخمسة الجنيهات . وما كدت ألمسها حتى شعرت كأن تياراً كهربائياً يهزنى بعنف ، واندفع الخجل اللعين يصبغ وجهى بحمرة فاضحة . حاولت أن أعتذر عن قبول « الهدية » لكن مقاومتى ذابت أمام تشكراته الحماسية . وأمام إغراء الورقة المالية التى كانت أكبر مبلغ أكسبه بعرق جبينى !

لكن مهنة التدريس لم تنجح كمورد مادى . لأن تلاميذى إما أن يكونوا من الأهل والأصدقاء ، فلا أسمح لهم بمجرد الحديث فى الناحية المادية وأعتبرها إهانة لكبريائى . وإما أن يكونوا غرباء فلا يعرفونى أو لا يثقون فى هذا المدرس المريض، ويفضلون عليه مدرس الفصل الذى يرعى ابنهم فى المدرسة ويجامله فى الدرجات. وظل التدريس هواية أمارسها مع أولاد أختى والآخرين كلما اتسع لها وقتى .

أعمال يدوية :

رحت أبحث عن إمكانياتى اليدوية حتى أستغلها ، لأن رأسى لم يكن حينذاك يحوى شيئاً من العلوم النظرية يمكن استغلاله

للكسب المادى . ولم يكن عسيراً أن أعثر على مواهبي اليدوية لأنى كنت شغوفاً بمثل هذه الفنون . أمسكت ورقة كتبت فيها المهن التي أستطيع أن أمارسها فى وضعي المقيد ، بحيث أتكسب منها ، ولو مؤقتاً إلى حين أن أتمكن من إتقان هواياتى الأولى التى أستطيع أن أقتحم بها ميدان الصحافة . وهى القصة والترجمة والرسم .

بعد أن استبعدت الأعمال العنيفة التى تحتاج إلى مجهود عضلى فوق طاقتى ، اتضح لى أنى أتقن عدة أعمال فنية بدرجة تسمح بتداولها فى السوق .

كنت أجيد تلوين الصور الفوتوغرافية . . بنوع خاص من الألوان المائية . وكانت هذه الألوان مركزة على صفحات من الورق مجموعة فى كراسة مستطيلة كدفتر « الشيكات » . كانت شركة « كوداك » تنتجه خصيصاً لتلوين الصور الفوتوغرافية ذات السطح الجيلاتيني . وبلمسة صغيرة من طرف الفرشاة المبتلة ألتقط اللون المطلوب ، فأذيبه فى قطرات من الماء ، ثم أنشره مخففاً على الصورة .

إتصلت ببعض محلات التصوير عن طريق ابن عمى ، وعرضت عليهم نماذج من الصور الملونة . فكان بعضهم يرفض لأنه يقوم بالتلوين وعمل « الرتوش » بنفسه . ووافق البعض على أن يدفع خمسة قروش فى الصورة « الكارت بوستال » لأنه يتقاضى من

عميله ضعف هذا المبلغ . وكان عليّ أن أقتسم القروش الخمسة مع الرسول الذى يحضر الصور ثم يعيدها بعد التلوين .

كذلك كنت أتقن تلوين التماثيل « والفازات » بالألوان الزيتية ، وهى عملية سهلة ، لكنها تحتاج إلى لمسات فنية وذوق فى اختيار الألوان . كنت أشترى التماثيل من المصنع الصغير الذى يصبها من مادة المصيص ، ثم أطليها بطبقة من الغراء حتى لا تمتص زيت البوية . لكنى بالتجربة وجدت الغراء يتقشر مع الوقت . وعرفت أنهم يطلون « الفازات » الفخارية بمادة « الجملكة » المذابة فى الكحول الأحمر . فتجعل السطح المسامى صلباً أصم . ومع الوقت كنت لا أقنع بتلوين « الفازة » كما هى ، بل أتفنن فى تغيير ملامحها حتى أبتعد عن الأشكال التقليدية المتداولة فى السوق . وكنت أحياناً أرصعها بأصداف البحر اللامعة على شكل زهرات زخرفية ألصقها بمعجون من زيت البوية و« والاسبيداج » . ولما كانت هذه « الفازات » من الفخار ، فكانت لا تصلح لوضع الزهور الطبيعية فى الماء بداخلها . فلجأت إلى طلائها من الداخل بطبقة من « الزفت » المنصهر ليكسبها مناعة ضد الماء . وقد أقتبست هذه الفكرة من أحد السباكين الذى كان يغلف أنابيب المياه بالخيش المغموس فى الزفت ، ليحميها من المياه فى أرض الحديقة . أما التماثيل فكنت لا أجرى فيها تعديلات غير توضيح بعض الأجزاء المطموسة ، أو أزالة بعض عيوب الصناعة ، لكنى

اضطررت أن أتدخل يوماً فى تمثالين لأسد ونمر . كانت أنيابهما مطموسة لتعذر إبرازها بالمصيص فى عملية صب القالب . ولم يعجبنى منظر ملوك الغابة بدون أنياب ، فصنعت لهما أنياباً حادة مقوسة من الخشب . وحفرت لها ثقوباً فى فكى الوحش، ثم ثبّتها بمعجون لاصق . وبعدئذ طليتها « باللاكية » الأبيض الناصع . فأبرزت شراسة الحيوان المفترس .

ثم فكرت فى الدمية المتحركة التى سبق أن شرحت كيف صنعتها ، وخطر لى أن أنتجها على نطاق تجارى ، خاصة وأن خاماتها زهيدة الثمن . وقد صنعت فعلا عدة دمى مبتكرة طورت فيها آلية الحركة . كذلك ابتكرت خامات جديدة لشعر الدمية ، فتارة أجعله من القطن المندوف ، وتارة من فراء الخروف أو الأرنب . لكنى فى النهاية أوقفت نشاطى فى هذه الصناعة الخاسرة ، فكلما كنت أنتهى من دمية تحلو فى نظر إحدى بنات العائلة ، وتتمسك بها باكية ، فلا يسعنى إلا أن أهديها إليها . وأحياناً كان الآباء والأمهات يضعوننى فى موقف حرج عندما يعرضون علىّ ثمن الدمية ، فيطعنون كبريائى وخجلى ، ولا يسعنى إلا أن أمنحهم الدمية بلا مقابل رداً لاعتبارى . وحقناً لدماء الخجل اللعين التى تصبغ وجهى .

الواقع أن المعاملات المادية تشكل فى نفسى عقدة متأصلة يبدو أنى ورثتها عن الوالد ، ولا أعنى الميراث بمعناه المادى ،

كالصفات الشكلية التي تحملها « كروموسومات » الوالدين المكونة للجنين . فالمعروف أن الصفات المعنوية لا تورث ، بل تكتسب بحكم البيئة والظروف . ورغم أني كنت أعيب على والدي خجله المفرط في معاملاته التجارية ، مما أفقده كثيراً من حقوقه ، ورغم ادراكي الواعي لهذا النقص ، فإني لم أستطع أن أتخلص حتى الآن من الحرج الذي يربكني في معاملاتي المالية ، وأتعفف عن المساومة ، وتمنعني كبريائي من أن أمد يدي لأتناول نقوداً ، حتى لو كانت من حقي . وقد ساعد هذا الداء السخيف على فشل محاولاتي التجارية التي ذكرتها ، فضلا عن إفتقادي لوسائل التسويق ، والسعي بإنتاجي لدى المحال التجارية . وهنا فكرت أن يكون لي محل تجاري خاص أوزع فيه إنتاجي مع بعض السلع الأخرى .

محل كل شيء :

كانت أول عقبة صادفتني بالطبع هي رأس المال . وأحصيت مدخراتي منذ سنوات طويلة ، فوجدتها لا تزيد عن الثلاثين جنيها إلا قليلا . وهذا المبلغ لا يكفي بالطبع لانشاء المحل التجاري . ولم يخطر لي أن أستدين ، فإني — وقد كنت أتعفف عن أخذ حقي — فلم يكن ممكننا أن أريق ماء وجهي باستجداء قرض ، خاصة وأني لا أضمن نجاح المشروع حتى أفي بسداد الدين . وكان طبيعياً أن أبحث عن شريك في رأس المال . وفاتحت زوج أختي

الصغرى « فؤاد عوض » فى الموضوع فهو تاجر ويستطيع أن يشرف على المحل من وقت لآخر . واستطعت أن أقنعه بوجاهة الفكرة بعد أن درستها من كافة الوجوه ، وأضفت عليها بعض التعديلات ، ثم راقت الفكرة لابن عمى « قدرى فهمى » فأراد أن يستثمر بعض مدخراته فى المشروع . فرحبت به حتى يساعد فى مراقبة المحل كلما سمح وقته بذلك .

لم أختلف مع شريكىّ ، فقد كنا أصدقاء متفاهمين، فضلا عن صلة القرابة الوطيدة ، ومنذ البداية تركا لى حرية التصرف فى تنفيذ المشروع حسبما رسمته فى خيالى .

أجّر لى أخى محلا فى شارع القصر العينى ، يحيط به عدد من المدارس ، ورسمت أثاثاته « وفتريناته » حسب المقاسات الفعلية للمحل ، وحسب طبيعة البضائع المختلفة التى أنوى عرضها على الجمهور بطريقة تلفت النظر .

كان من رأيى أن أجمع فى المحل أكبر مجموعة من البضائع المختلفة حتى يجد كل عميل مطلبه . ورفعت فوقه لافتة حمراء بارزة تحمل اسم « كل شىء » . وقسمت المحل إلى اثنى عشر قسماً . . . تحوى الأدوات المدرسية، والحلوى ، والروائح، وأدوات التجميل، والتسالى « لب وحمص وفول سودانى . . . الخ » والسجاير ، والمثلجات ، والخيوط، ولعب الأطفال، إلى آخر هذه الأصناف التى تستهلك يومياً .

واستأجرنا شاباً بأجر ضئيل ليقوم بمهمة البيع فى المحل ، وشراء البضائع من تجار الجملة . وقام أخى — وكان طالباً بكلية الطب حينذاك — بالإشراف على تأسيس المحل .

وقبل أن تحتل البضائع أماكنها فى المحل، جاءوا بها إلى حجرتى فرصدتها تفصيلاً ، وعينت لها نسبة الربح، وألصقت عليها بطاقات بأثمانها ، ثم سلمتها للموظف بعد أن وقّع على كشف الجرد . وكان عليه أن يدون كل مبيعاته فى دفتر خاص يطلعنى عليه أولاً بأول . وعلى ضوئه أحدد له البضائع المطلوبة ، فيشتريها من تجار الجملة فى يوم محدد من الأسبوع ، وأرصـــدها فى دفاترى قبل أن أسلمها إليه . . .

هكذا سارت العملية فى دقة ونجاح . وأستحدثت أساليب طريفة فى الدعاية . فاستأجرت بائع الصحف ، وأعطيته كمية من الاعلانات المنمقة ليوزعها على صناديق البريد فى الحى . وكان كل إعلان يحمل رقماً مسلسلا . وأعلنت أنه سيجرى سحب يانصيب على هذه الأرقام ، وللفائزين زجاجات عطور قيّمة . وكان بديهياً أن يجتمع عدد كبير عند باب المحل يوم السحب حتى يشهدوا عملية السحب النزيهة . كان معظمهم من الأطفال والشغالين . ولعل الكبار ارتابوا فى جدية اليانصيب لأنه كان بلا أى مقابل .

أجرى السحب فى موعده وسط دهشة الجمهور، وفاز خمسون عميلا بزجاجات من العطور ، وكسبنا ثقة العملاء وصداقتهم بهذه

الحركة الدعائية البسيطة التى لم تكلفنا إلا جنيهات قليلة ، فقد أشترينا العطور بسعر الجملة بالطبع ، وكان ثمن الزجاجة فى علبتها المذهبة لا يزيد عن خمسة قروش !

ولما نجحت الفكرة ، خطر لى أن أستغلها بصورة أوسع . فطبعت تذاكر باسم المحل « بونات » يصرفها البائع لكل عميل ، ويرصد فى كل تذكرة قيمة المشتريات ولو كانت قرشاً واحداً . وإذا جمع العميل من هذه « البونات » ما قيمته جنيهاً واحداً ، فله الحق فى زجاجة عطر مجاناً نظير هذه «البونات» . كانت تلك الفكرة فى الواقع تعنى أننا تنازلنا عن خمسة فى المائة من الربح الذى لم يكن يقل فى المتوسط عن ٢٥ فى المائة . وهى تضحية طفيفة إذا قورنت بالفائدة التى جنيناها من ورائها . فقد كان العملاء طبعاً يفضلون الشراء من محل « كل شىء » طمعاً فى الهدية المجانية .

كان شريكاى وأخى يمرون فى فترات متفاوتة لمراقبة المحل والموظف . وبدا لنا جميعاً أن المشروع قد نجح فعلاً . كذلك كانت المبيعات المتزايدة تشير إلى إقبال الجمهور على بضائعنا الرائجة . ومرت ثلاثة شهور ، فقررنا أن نجرى جــــرداً شاملاً لتحديد الأرباح ، وإعادة النظر فى أنواع البضائع المتداولة على ضوء التجربة خلال الأشهر الثلاثة الأولى . وإذا بنا نفاجأ بعجز ضخم فى محتويات المحل ، فقد كان الموظف الهمام يوزع أثمان البضائع المباعة بين درج النقود وجيبه الخاص ! وبالطبع لم يكن فى إمكانى

أن أضبط اختلاسه رغم مراجعتى الدقيقة ، لأنه لم يكن يرصد فى الدفتر ما كان يورده لجيبه الخاص .

كان فى إمكاننا أن نبلغ عن الموظف المختلس حتى ينال جزاءه بين جدران السجون ، لكنه توسل إلينا فى رعب كى نمنحه فرصة ليسدد فيها المبلغ المختلس من مرتبه . وآثرنا هذا الحل العملى لاسترداد مالنا ، فإن سجنه لم يكن يعوضنا عن خسائرنا . لكن قرارنا هذا كان خاطئاً ، فقد أثبت الجرد التالى أن العجز قد ازداد تضخماً . وبدت أرفف المحل خاوية كرأس الأقرع ! .

استخدمنا موظفاً آخر لينقذ المشروع . فلم يكن أكثر أمانة من سابقه . واضطررنا أمام الاختلاسات المتوالية أن نبيع المحل لتاجر يديره بنفسه . وخرجت من هذه التجربة بمبلغ هزيل هو كل ما تبقى من مدخراتى . لكنى اكتسبت مبدأ هاماً من تجربتى هذه ، ظللت أطبقه طوال حياتى . وهو أنى إذا قمت بعمل لابد أن أشرف على كل دقائقه ، وأن احتفظ بكل الخيوط فى يدى لأن المال السائب يعلم السرقة .

اللوحات الزيتية :

وعدت أنبش هواياتى لعلى أستطيع أن أستغل بعضها فى كسب مادى . فقررت أن أرسم لوحات زيتية على نطاق تجارى . وكلفت

نجاراً بعمل إطارات «وشاسيهات» تكفى لست لوحات، وأشتريت القماش والأنابيب والفرش. وبدأت المشروع.

كنت — ومازلت — أميل إلى رسم الطبيعة الحية رغم صعوبتها عن الطبيعة الصامتة. فخصصت أول لوحة لإمرأة عارية. وضعت فيها كل الصفات الأنثوية المثالية فى تصورى. ثم رسمت صورة لرجل مثالى أظهرت فيها التشريح الخارجى لعضلاته القوية. وفى اللوحة الثالثة رسمت طفلاً يفيض صحة ونضارة، يقف عارياً، وهو يلوح «كالمايسترو» بعصا صغيرة لفرقة موسيقية مكونة من الطيور الصداحة. ثم رسمت فى اللوحة الرابعة ببغاء بألوانه الزاهية، وفى الخامسة راقصة شرقية فى وضع منبعج طروب.

جاء دور التسويق، فلم أجد المندوب الكفء الذى يعرض إنتاجى على المحال الخاصة ببيع التحف واللوحات. ولم تستسغ كبريائى المريضة أن أبيع لوحاتى للأفراد رغم العروض المعقولة. وكانت النتيجة أن ظلت المرأة والرجل والطفل المثاليون يزينون الحائط فى حجرتى حتى الآن. أما الببغاء فهو يحتل ركناً من الردهة. أما الراقصة الشرقية فقد طمع فيها رئيس تحرير مجلة «روايات الأسبوع» فيما بعد، عندما نشرها على غلاف مجلته بالألوان. فاحتفظ بها لنفسه على سبيل التذكار رغم أنى لم أتقاض أجراً عن نشرها!.

صناعات مختلفة :

ومن الصناعات التى أتقنتها .. « ألبومات الصور » فكنت أشترى أفرخ الكرتون ، وأفرخ الورق الملون لكسوة الغلاف المقوى ، وأفرخ الورق الداكن السميك الذى يشكل صفحات الألبوم . وصنعت عدة ألبومات بأحجام مختلفة و بأشكال مبتكرة، وكنت أكسوها بورق « السلوفان » اللامع المشدود ، ليحفظها من الاتساخ ويضفى عليها رونقاً وتألقاً .

ثم تحطم هذا المشروع أيضاً على صخرة التسويق . ولم يمنعنى الفشل من المحاولات الجديدة ، فقد كانت هذه الأعمال الفنية تسليني وتملأ فراغى الكبير ، وترضى نزعاتى الفنية.ثم هى فى النهاية تنتج أشياء نافعة لاستعمالى الشخصى . فضلا عن أنى أجد لذة كبيرة فى صنع حاجياتى بنفسى ، ولا ألجأ إلى صانع محترف إلا إذا عجزت امكانياتى الحركية عن تحقيقها .

هدية من السماء

وسط هذه الدياجير الحالكة والآلام المتزايدة، والمشروعات الفاشلة، ترفقت بى رحمة السماء. فأهدتنى أروع منحة يحتاج إليها إنسان فى مثل ظروفى ... منحة إلهية لم أكن أحلم بها رغم طبيعتى المتفائلة.

إنها سكرتيرتى النشيطة، وممرضتى الحنون .. نعمات.

فى ٤ مارس سنة ١٩٤٨ تعرفت بها، كنت قد جاوزت سن الرشد بخمسة أيام، وكانت هى فى مثل سنى. وسارت بجانبى فى رحلة حياتى الشاقة حتى الآن وقد جاوزنا الأربعين.

بددت كثيراً من ظلمات يأسى، وعوضت كثيراً من قيودى وعجزى. وأعانتنى على الكفاح والتفرغ لمعارك الحياة، بعد أن أمنت بعض مخاوفى من المستقبل، ووفرت لى سبل الراحة والطمأنينة، ولم تتخل عنى يوماً واحداً، وتفانت فى خدمتى .. بإخلاص وتضحية .. ويقظة ضمير .. وتقدير للمسئولية الجسيمة فى تولى جميع شئونى.

لو أنى كنت أملك خاتم سليمان، وأتيح لى أن أضع مواصفات

الإنسانة التى تقوم على خدمتى وتشاركنى حياتى الخاصة القاسية ، لو أنى أملك حرية الاختيار لما اخترت خيراً من نعمات ، ثمة اعتقاد راسخ يؤكد لى أن الله لم يخلق نعمات إلا من أجلى .

لست أدعى أنها ملاك بأجنحة . فإن لها عيوباً كأى إنسان ، والكمال لله وحده . ولكن حتى بعض عيوبها جاءت فى مصلحتى ! من عيوبها أنها تنفق فى حرص شديد، وشبح الفقر القديم يخيفها من المستقبل . لكن هذا التقتير يحفظ لى مالى ، ويجعلنى أثق فى تصرفاتها المالية ، فأمنحها ثقتى التامة ، وحرية التصرف دون مراجعة ، ليقينى أنها لن تصرف قرشاً فى غير موضعه . ولو أنى أحياناً أضيق بحرصها ، فأتدخل بأوامرى الصارمة لأحصل على أكلاتى المفضلة .

ومن عيوبها أنها « مسترجلة » ، ولا تثق كثيراً بالجنس الخشن ، لعقدة قديمة غرسها فى أعماقها زوج أمها كما سيأتى فيما بعد .

وكثيراً ما تصطدم بمن يحاول أن يتظرف معها . وتلوى سحنتها لمن يطمع فى ممازحتها ، ولست أدّعى أن التحفظ عيب ، ولكن التزمت يسبب لى أحياناً شيئاً من الحرج أمام المتظرف إذا كان حسن النية . لكن هذا النفور من الرجال ، فضلا عن حساسيتها المفرطة وكبريائها العنيدة جعلها تضرب عن الزواج خشية أن تتعرض لإهانة أو إذلال من زوجها . وهذا الاضراب فى النهاية كان فى مصلحتى ، لأنها كانت ستتركنى لتتفرغ لبيتها وزوجها وأولادها .

وما كنت أسمح لنفسي أن أعرقل خطواتها إذا وجـــدت هي سعادتها في الزواج .

ومن عيوبها أنها جريئة في إيقاف المخطيء عند حده . فإذا ماطرق بابي زائر مفاجيء دون موعد سابق ، ترسم على ملامحها تكشيرة كبيرة تتراجع أمامها بسمة الزائر «العشمان» . ولا تتورع عن سؤاله ببرود إذا ما كان على موعد معي . وقد تصرفه بعد أن تحرجه بكلماتها الصارمة . وهي في الواقع ليست خشنة الطبع ولا وقحة، فإن نفس الضيف إذا جاء بناء على موعد سابق أو في اليوم المحدد لزيارتي ، فإنها تستقبله في منتهى الرقة والأدب .

إنها تعرف ما أعانيه من هذه الزيارات المفاجئة. فتندفع بعصبية لتجنبني المتاعب . وبعض أصدقائي المقربين يعرفون شراستها هذه . فإذا ما اتفقتُ مع أحدهم بالتليفون على موعد الزيارة ، يرجوني في خوف أن أحيط سكرتيرتي الحازمة علماً بمقدمه ، حتى لا تصعقه بنظراتها القاسية إذا ما أستقبلته عند الباب .

الواقع أني أقاسي كثيراً من الضيف الذي لا يحترم موعد الزيارة بقدر ما أسعد بالضيوف الذين يقدرون ظروفي . فإنني لوضعي الخاص لا أستطيع — كأي إنسان متحرك — أن أجمع بين نوعين من الضيوف في حجرتين مستقلتين ، فأجامل كلاً منهما بعض الوقت . لهذا يحرجني كثيراً أن تكون عندي زيارة عائلية أو نسائية ، ثم أفاجأ « بخنشور » يطرق بابي على غير موعد . حتى

ولو كنت شخصياً لا أمانع فى لقائه، فليس من حقى أن أفرضه على ضيوفى. ولا يكون أمامى حينئذ غير أحد أمرين. فإما أن أصرف الضيوف الموجودين بناء على موعد سابق، لاستقبل الضيف المقتحم، وهذا لا يتفق إطلاقاً مع الذوق والعدل والمنطق. وإما أن أرفض مقابلة القادم الجديد. لكنى بصراحة لاأجرؤ على صد إنسان يطرق بابى وهذا من عيوبى، لأنه ليس من حقى أن أقحم دخيلاً على ضيوفى...

ولما كانت نعمات تعرف عنى هذا الضعف، فهى تسرع بالتصرف دون أن ترجع إلىّ أحياناً. ولا أنسى يوم منعت عمى وهو عميد الأسرة ويحمل على كاهليه ثلاثة أرباع قرن من الزمان، منعته من دخول حجرتى وقادته إلى حجرة الاستقبال. فقد كانت فى ضيافتى صديقة من عائلة محافظة لا تحب أن تنكشف على غرباء، ويومها ثار عمى لتلك المعاملة التى اعتبرها إهانة بليغة. ومنذ ذلك اليوم لم يعد عمى يدخل بيتى رغم الاعتذارات التى قدمتها له أنا ونعمات ووالدتى، بل والسيدة التى أحرجها الموقف.

ولو أنى أعتقد أن نعمات لم تتعد حقوقها فى تلك الحادثة، إلا أن صرامتها فى تنفيذ «الأصول» قد سببت لنا مشكلة عائلية. وكان أجدر بها أن تتصرف بلباقة وفى غير تزمت. فمن غير المعقول أن تتأذى صديقتى من مقابلة شيخ عجوز، خاصة وأنه عمى.

وإن كنت لا ألوم نعمات فى الحادثة السابقة إلا أنى ألومها

بشدة في مواقف أخرى . إنها تعلم أن لي مواعيد ثابتة في الأكل والنوم ، وزيارة دورة المياه ، وتغيير ثيابي خاصة في الصيف ، عندما يتحول السرير تحتي إلى بركة من العرق . تعرف نعمات هذا جيداً وتطبقه بحذافيره حرصاً على راحتي وصحتي . خاصة وأن قرحة معدتي تتطلب تلبية عواتها بسرعة ، لأن الجوع - كما هو معروف - يشكل خطراً على القرحة . أمام هذه الأسباب جميعها لا تستطيع نعمات أن تقاوم ضميرها حيال الضيف الذي ينسى نفسه عندي حتى الساعة الثانية ظهراً أو التاسعة مساء ، حينئذ لا تتورع عن التقدم نحو حجرتي بخطوات ثابتة . ثم تهتف في لهجة حازمة :

- هل أحضر لك شيئاً تأكله ؟ .. ألا تؤلمك القرحة في معدتك ؟ .

هنا أشعر بأن دلواً من الماء البارد ينسكب على أم رأسي ، فأجيبها بالنفي في عصبية جافة ، حتى أداري ارتباكي ، وأخفف من وطأة الخجل الذي أتصور أنه أغرق ضيفي . وبعد انصرافه لا أعفيها من التعنيف ، لكنها تقابل إنفعالي ضاحكة في برود بعد أن تكون قد تخلصت من الضيف الثقيل .

ورغم تحذيري لها مراراً وتكراراً ، فهي لا تستطيع أن تسيطر على أعصابها في مثل هذه المواقف . ولو أن تصرفها هذا لمصلحتي ، فإني أشبهها في هذه الحالة بالدب الذي ألقى حجراً على صاحبه ليخلصه من الذبابة ! فإن تقلص القرحة في معدتي ، أو دبابيس

العرق فى ظهرى لا تساوى حرجى الشديد فى تلك اللحظات الرهيبة !

إننى أحياناً ألوم سكرتيرتى المخلصة والعيب فى شخصى ، لكننى ذكرت من قبل أن هذه عيوب من وجهة نظرى ، لكنها فى النهاية تهدف لمصلحتى .

إن الأهل والأصدقاء يحترمونها ويحبونها ، ويمجدون إخلاصها وتفانيها فى تعويض قيودى ، والسماء أيضاً تبارك إنسانيتها . . . والدليل على هذا أن نعمات لم ترقد يوماً واحداً ـ رغم هزالها البادى ـ طوال عشرين عاما . وهذه فى رأيى معجزة إلهية لا يفوز بها أقوى الأصحاء . لكنها مكافأة عادلة لإنسانة نبيلة وهبت حركتها لأخ لها فى الإنسانية لا يتحرك . ولأن السماء تعلم جيداً أن توقفها عن الحركة ، ولو ليوم واحد ، سوف تنهار أمامه صخرة إيمانى وصبرى ، التى صمدت أمام أفدح الكوارث وأقسى الآلام . فأى خطب يمكن إحتماله مهما عظم إذا كانت إرادتى أقوى منه ، لكن إهدار إنسانيتى يجعل الحياة بلا معنى ولا هدف . وهل هناك إهدار للكبرياء والإنسانية من أن يكون المرء كمية مهملة بلا حراك ، لا يجد من يخدمه ، ويلبى نداءه ، ويلازمه كظله ، حتى ينقله بسرعة إلى دورة المياه .. وهذه ضرورة قد تأتى فجأة فلا أجد أحداً بجانبى يستطيع مساعدتى بطريقة كريمة . . . ومدربة . . . وراضية .

أقول «كريمة» لأنى لا أتصور أن أقضى هذه المهمة فى وضع أفقى على السرير ، ولا أطيق أن يشمئز إنسان من حمل فضول أمعائى. وأقول طريقة «مدربة» ، لأنه لا يستطيع أى إنسان أن ينقلنى سليماً ودون ألم — إلى دورة المياه غير نعمات .... أو أحد المصارعين . وكان أخى يستطيع أداء هذه المهمة قبل أن يتخرج ويعمل خارج القاهرة .

وقد تبدو مدهشة هذه القدرة السحرية التى تتمتع بها نعمات دون سائر البشر رغم نحافتها . والواقع أنها لا تحملنى بقوة خارقة ، بل تساعـــدنى على الإنتقال بحركات فنية مدربة . أكتسبتها من خبرتها الطويلة فى خدمتى .. والتى بدأت مع بداية القيود ، حيث كنت أنعم ببعض الحركة ، وكان انتقالى إلى الكرسى المتحرك ميسوراً بقليل من المساعدة . ثم إزدادت القيود تدريجياً . فكانت تتطور معها بطريقة تحركى تبعاً للوضع الجديد ، وسرعان ما تتقن نعمات الطريقة الجديدة ، حتى تتمشى مع القيود المتزايدة ، ولكن بوسيلة أكثر تعقيداً لا تلبث أن تتقنها نظراً لخبرتها السابقة . وهكذا وصلت إلى مقدرة عجيبة تستطيع بها أن تنقلنى وحدها من السرير إلى الكرسى المتحرك بحركات آلية سهلة أتقنتها عضلاتها المدربة فى توافق مع جهازها العصبى الذى يزن كل جذبة ودفعة فى ثقة وإحكام .

والصفة الثالثة التى يجب أن تتوفر لمن يقوم على خدمتى ،

أن يكون راضياً برسالته النبيلة ، ويؤديها فى سماحة عن طيب خاطر فإنى إذا لمحت تأففاً أو معارضة ممن أطلب منه خدمة ، أثور لكبريائى وأصمم على رفض خدمته فى عناد . حتى لو أداها فعلا . فإن عزة نفسى تأبى أن تتقبل مِنّة أو إحساناً .

ومن فضائل نعمات أنها تحرص على مراعاة شعورى فى هذه الناحية. فهى أولاً لا تناقش طلباتى الخاصة حتى لا يتبادر إلى ذهنى أنها تعترض عليها . وهذه نقطة هامة لم يدركها حتى المقربون منى . وهناك كلمات تجرحنى كثيراً ولا يدرك تأثيرها إلا الذين وهبوا نفوساً شفافة خيرة . وكم يؤلمنى أن أطلب شيئاً فيجيئنى الرد عفوياً أو متسرعاً أو عامداً : « إنتظر قليلا » أو « لماذا لم تطلب هذا قبل أن أجلس » أو « أطلب من فلان فإنى مشغول » . قد تكون هذه الردود هادئة ، وقد تكون الأعذار حقيقية . لكنها تشعرنى بأنى محتاج للآخرين فى قضاء أبسط حاجاتى . لكن نعمات تحرص إلى حد بعيد على تجنب هذه الردود .

أحياناً أناديها دون أن أعرف أنها تتناول طعامها . فتبطىء فى الحضور قليلا مما يجعلنى أسألها إن كانت مشغولة ، فتجيب بالنفى لأنها تعلم أنى سأمتنع عن طلبى حتى تنتهى من طعامها ؛ ثم أعرف من شخص آخر أنها تركت طعامها ، وأدرك أن سبب تأخيرها لم يكن إلا لتبتلع ما فى فمها حتى لا أفطن إلى تركها لطعامها ، فأمتنع عن طلبى .

بمثل هذا الشعور النبيل تلح فى توسل أن أوقظها أثناء الليل كلما احتجت شيئاً . وبما أنى عادة أسهر فى عملى إلى ساعة متأخرة ، فإنى أحتاج لإيقاظها أكثر من مرة . . فلا تبدى تبرماً أو تأففاً . بل إنها تتعمد ألا تجهز لى احتياجاتى قبل نومها ، حتى أضطر لإيقاظها ، فهى فى الصيف مثلا ترفض أن تجهز لى بعض أكواب الماء المثلج حتى لا يفقد برودته مع الوقت واضطر إلى شربه فاتراً. وهى ترفض أن تعدنى لوضع النوم مقدماً حتى لا تنتقص من راحتى أثناء عملى .

هذه الخدمة المثالية هى التى تمنحنى تعويضاً كاملاً عن حركتى المقيدة . وهى تفعل هذا بوحى من ضميرها فقط ، دون هدف مادى أو غرض معنوى أو طموح شخصى . ولأكن أكثر صراحة وأجيب على علامة الاستفهام الكبيرة التى تواجهنى دائماً فى عيون الأصدقاء . فأقول . . إنه لا تربطنى بها أية علاقة عاطفية أو حسية . والدليل الدامغ الذى أواجه به المتشككين هو أن نعمات صديقة حميمة لمعظم صديقاتى ، وتبارك كل علاقاتى بلا حقد ولا غيرة ولا تذمر .

وإذا لم تكن تربطنى بنعمات علاقات غريزية بين جنسين مختلفين ، فإنه تربطنا معاً علاقات أقوى وأنبل وأبقى . تربطنا وشائج إنسانية وأخوية وعشرة طيبة ، ومشاركة وجدانية ، واحترام متبادل ، ومصالح مشتركة . نعم . . فإذا كانت هى قد أدت واجبها

نحوى كاملاً ، فأنا أيضاً قمت بدور فعال فى حياتها وأعتبر نفسى المسئول الوحيد بعد الله — عن حمايتها ورعايتها ، بل ضمان مستقبلها إذا ما كتب لها أن تعيش من بعدى .

لقد قاست نعمات كثيراً فى طفولتها ، بعد أن توفى أبوها الذى لم يترك من بعده غير جاموسة حلوب وحمار سباخ، فاضطرت والدتها أن تتزوج برجل آخر تلوذ بحماه هى وابنتها . وما لبث أن رحل بهما إلى قرية أخرى بعيداً عن مسقط رأسها . وهناك كشف زوج الأم عن حقيقته البشعة ، واستطاع بسيطرته على الأم أن يستولى على الجاموسة والحمار ، ثم أرغم نعمات على العمل فى الحقل ليستولى على قروشها الضئيلة ، ويصرفها على « الكيف » . ثم تمادى فى جشعه وحاول أن يرغمها على العمل فى البيوت بالقاهرة ، حتى يضمن بضع ورقات خضراء كاملة آخر كل شهر، فضلاً عن توفير طعامها وكسائها. لكن الصبية الصغيرة أبت أن تتعرض لأنواع الذل والإهانة ، ومحاولات المراهقين للنيل منها ، كما كانت تسمع من بنات القرية اللاتى مررن بالتجربة ورفضت أن ترضخ لأطماعه الغاشمة ، وحاولت أن تستنجد بأمها المطحونة تحت صخرة المرض والإعياء، لكنها كانت أضعف من أن تجير ابنتها . وأخيراً انتزعها « البلطجى » من أحضان أمها ، وسافر بها إلى القاهرة حيث ألحقها بأحد البيوت ، لكنها لم تستسلم لمصيرها التعس . وصممت على

الهرب مهما كان الثمن . وكانت تعرف أن لها أقارب في حي السيدة زينب ، لكنها لا تعرف عنوانهم . فانتهزت أول فرصة سنحت لها ، وغافلت أصحاب البيت وهربت .

خرجت إلى الشارع على غير هدى لا تدرى إلى أين تذهب، وكيف تحتمى من الذئاب البشرية ، وكيف تأكل لقمة نظيفة بلا إهانة أو إذلال .

وفى تلك اللحظة الحالكة تدخلت رحمة السماء وحدثت المعجزة !! كان ذلك فى صباح يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٨ ، حيث قابلها ابن عمتى « سكرتيرى الصغير » صدفة أمام أحد محلات الخردوات تسأله عن عائلة طيبة تحتمى بها حتى تعثر على أقربائها. فقفز « وليم » يعرض فى حماس أن يرشدها إلى مبتغاها . وفى دقائق كانت نعمات فى بيتنا . .

ولم تخرج منه منذ عشرين عاما !!

كان والدى — كما أسلفت — رحيماً بالضعفاء ، فتأثر لظروفها العصيبة وعاملها كأخت لنا . عندما لمس أمانتها وقوة أخلاقها ، وتفانيها فى خدمتى ، بعد أن تأثرت من وضعى الخاص . وكانت والدتى احياناً تصطدم بعصبيتها لأن نعمات لا تقبل الإهانة بسهولة. لكن والدتى كانت مضطرة لاحتمالها نظراً للحماس البالغ الذى أبدته فى خدمتى بدافع نبيل من ذاتها .

أدركت نعمات، الفرق الشاسع بين حياتها السابقة وبين المعاملة

الإنسانية التى تلقاها فى بيتنا . وبدأ معدنها النفيس يشع نبلاً نادراً. وأبدت إستعداداً طيباً للترقى والتهذيب . فساعدتها بكل حماس الممتن والمقدر لأفضالها . فبدأت بتعليمها القراءة والكتابة ، ومن خلال هذه النافذة تسربت الثقافة إلى ذهنها المستعد لتقبل المعرفة. وبدأت تقرأ المجلات فى نهم ، ثم تحولت إلى مكتبتى تختار منها المواد الخفيفة . ثم لقنتها بعض التعبيرات الفرنسية والإنجليزية ومبادىء الحساب ..

ثم تطوعت أن أجعلها تتعلم فى جسمى طريقة الحقن تحت الجلد وفى العضل وفى الوريد . وكانت مترددة فى البداية خشية إيلامى أو إيذائى ، لكنى ألححت وشجعتها ، ومرنها أخى — الطالب بكلية الطب — فسرعان ما استقرت يدها المرتعشة وأتقنت هذه العملية ، وغدت تسعفنى بالحقن المخـــدرة فى نوبات المغص الكلوى وغيرها .

ثم دفعها طموحها أن تتعلم التفصيل والحياكة على يد أختى، حتى أتقنت هـذا الفن وأصبحت الآن تحيك ثيابها ، وتتفنن فى تحويرها ، وتغيير معالمها بالإضافة والحذف . وهذه هى هوايتها المفضلة ، ويأتى بعدها فى قائمة الهوايات ، حبك الصوف «التريكو» الذى علمتها إياه بنفسى منذ سنين طويلة . ولديها الآن مجموعة من « البلوفرات » لاتزيد عن خمسة أو ستة ، لكنها تبدو للآخرين أضعاف هذا العدد ، لأنها لاتتركها على نمط واحد ، بل تفكها

وتعيد حبكها فى أشكال مختلفة بعد أن تخلط ألوانها وتغير نوع « الغرزة » ، وأحياناً تطلب مساعدتى ، فأقوم بدور مصمم الأزياء ، ولكن رأيي دائماً إستشارى غير ملزم .

وكانت تلميذتى أيضاً فى تلوين الصور الفوتوغرافية ، وتلوين « الفازات » والتماثيل . وشاركتنى معظم هواياتى ، حتى أعمال الكهرباء والنجارة والميكانيكا والطلاء وغيرها . . حتى أصبحت تقوم الآن — تحت إرشادى — ببعض الأعمال التى أعجز حركياً عن أدائها . وكثيراً ما نفذتْ بيديها بعض أفكارى ، كمصيدة العصافير وبرج الحمام ، وبعض ديكورات مسكنى .

وعندما اتسعت دائرة أعمالى، لم تجد صعوبة فى أن تضيف إلى إختصاصاتها - بجانب التمريض وإدارة بيتى - وظيفة السكرتيرة النشيطة ، فهى تنظم زياراتى على نحو ماذكرت من قبل ، وتنسخ إنتاجى على الآلة الكاتبة ، بعد أن درستها بطريقة اللمس . وهى الآن همزة الوصل بينى وبين الجهات التى أتعامل معها جميعاً ، تأخذ إليهم إنتاجى ، وتقبض لى أجورى بمقتضى توكيل عام يخول لها التوقيع بدلا منى .

ألا يحق لى بعد هذا أن أعتبرها هدية من السماء؟

إنى أعتبر يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٨ من أسعد أيامى . ونحتفل فيه جميعاً بعيد ميلاد نعمات بيننا ، وكنا فى الماضى نقدم لها هدايا رمزية تتفق مع مواردنا ، ونهيىء لها أكلاتها المفضلة

فى هذا اليوم ، ومع الوقت كانت هديتى إليها تزداد إزدياداً طردياً مع ميزانيتى . وفى عيدها الخامس عشر قدمت لها حلية ذهبية مكتوب عليها اسم الله بقطع من الماس . وعلى ظهرها نقشت هذه العبارة : « إلى ذات القلب الكبير نعمات . . إعترافاً بفضلها وتقديراً لخدماتها النبيلة - صبحى الجيار ١٩٤٨/٣/٤ - ١٩٦٣/٣/٤ » .

يوم عصيب :

إن الأعباء الخطيرة التى تقوم بها نعمات فى حياتى ، والخدمة الكاملة قد عوضت جزءاً كبيراً من عجزى الجسدى ، وجعلتنى أتناسى مرضى . فإن قسوة المرض بالنسبة لى ليست فى آلامه العضوية . . فهذه من الممكن أن أحتملها أو أخدرها بالمسكنات إذا زادت عن احتمالى . وليست فى عدم القدرة على الخروج من البيت مع كل ما يتبعه من متعات لا حصر لها ، فقد عرفت كيف أمارس السعادة داخل جدران بيتى . وليست فى منعى عن المدرسة والجامعة لأن فى استطاعتى أن أغترف من المعرفة ما أشاء وأنا فى وضعى الثابت ، وليست فى عدم قدرتى على العمل ، فقد وجدت مع الوقت أن هناك أعمالاً أستطيع أن أنجزها فى مخدعى . وقد وفقنى الله ، فاستطعت أن أتأقلم مع وضعى الخاص وأقنع به . لكن هناك نقطتان فقط تتركز فيهما متاعبى . . . أنى لا أستطيع أن أخدم نفسى داخل البيت ، ولا أستطيع أن أباشر عملى خارج البيت . وإذا كانت نعمات تسد هاتين الثغرتين على الوجه الأكمل ،

فإن ذلك لم يكن يعفيني من القلق والانزعاج !

أصبحت لا أستغني عن مساعدة نعمات في أية فترة من النهار أو الليل. وتخيلت نفسي بدونها ، ومدى المهانة والاضطراب الذي سيصيبني إذا حدث لها أي مكروه، أو مرضت أو تزوجت، أو أستكثرتها عليّ رحمة السماء فاختارها الله إلى جواره . وهنا كانت الدنيا تظلم أمام عيني . ولا أكاد أتصور الحياة دون مساعدتها . ويصور لي خيالي القلق صوراً قاتمة لما سأكون عليه حينذاك . وأتلفت حولي فلا أجد أختيّ الكبيرتين اللتين تزوجتا ، واستقلت كل منهما ببيت خاص مع أبنائها . أما والدتي فمنذ أن فتحت عينيّ على هذا العالم وأنا أراها تشكو من روماتيزم المفاصل بحيث تكاد تحمل جسدها البدين بصعوبة . وهي بهذا عاجزة تماماً عن الجزء المهم من خدمتي ، وهو مساعدتي على الانتقال إلى الكرسي المتحرك لتلبية الاحتياجات الملحة الطارئة .

أما والدي فكان عصبياً متسلطاً ، يناقش كل طلب . كما كنت أخجل من تكليفه بطلباتي المتلاحقة ، فضلاً عن أنه لم يكن يظل بالبيت إذا كان لديه عمل، مما لا يجعلني أعتمد عليه في الطلبات المفاجئة. أما أخي فكان طالباً ، يقضي وقته بين الكلية ومذاكرة دروسها المضنية . ولو أنه كان الوحيد ممن حولي الذي يستطيع أن يحملني وحده بعضلاته الضخمة التي أبرزتها تمرينات الحديد .

وأغوص بخيالي الخصب في غياهب المستقبل ، فأجد أخي

مستقلا ببيت خاص ، ووالدتى وقد زادت عليها وطأة الروماتيزم ، فيزداد إحساسي بحاجتى إلى إنسان آخر يؤمن حياتى من الذل والمهانة ، إذا ما فقدت نعمات لسبب أو لآخر . ولم يكن فى وسعى أن أقوم بأى عمل إيجابى للحصول على هذا الضمان سوى الصلاة والضراعة إلى الله أن يحميني من تحقيق مخاوفى .

وذات صباح فوجئنا بنعمات تتلوى من الألم ، ولا تستطيع أن تتحرك من مرقدها . وحاولت عبثاً أن تحرر مفاصلها من الآلام المبرحة . ومع ذلك أصرت على أن تساعدنى فى الانتقال إلى الكرسى المتحرك لآداء حاجتى اليومية . وقامت متحاملة على نفسها ، وهى تكبت أوجاعها حتى لا تزيد محنتى . وإذ بها تسقط من الإعياء ، وهى تغسل وجهها بدموعها . ثم أنفجرت فى نشيج عنيف ، وهى تنتحب خلال كلماتها المتضرعة إلى الله حتى لا يقعدها بجانبى فلا نجد من يخدمنا معا .

تراءى لى الشبح المخيف يقترب منى ، وحار أخى طالب الطب فى هذه الآلام الشديدة التى فاجأتها دون مقدمات ، وراح يجرب معها خبراته المحدودة بالمسكنات تارة ، وبما تسعفه به معلوماته عن الأدوية التى تعج بها صيدلية بيتنا ، وهى من بقايا علاجى وعلاج والدتى ، وفجأة . . وقبل أن ينقضى يوم واحد ، لفتت نظره حبوب صفراء فى زجاجة منزوية فى ركن الصيدلية ، وكانت — وأنا أذكر جيداً هذا الحادث الذى هزنى بعنف —

كانت حبوب خلاصة المبيض ، فأعطاها منها جرعة .. ثم جرعة أخرى ، وإذا بآلامها تزول بعد بضع ساعات ، وكأنها لم تكن .

البحث عن زوجة:

حقاً إن مرض نعمات لم يستمر غير ساعات معدودة ، ونسيه الجميع حتى نعمات نفسها ، لكنه كان انذاراً ترك فى نفسى أثراً عميقاً وجسّم أوهامى، فأخذت أفكر جدياً فى البحث عن شخص آخر بجانب نعمات ، يؤمن فزعى من الشبح المخيف . ومن هنا بدأت أفكر فى الزواج . فالزوجة هى الإنسانة التى تستطيع أن تنقطع لخدمتى وتريح أعصابى ، وتهدىء مخاوفى . وأخذت أفند العقبات التى تعترض طريقى دون تنفيذ هذه الفكرة . وكان والدى هو صانع العراقيل ، أما والدتى وأخى ونعمات ، فقد رحبوا بالفكرة من حيث المبدأ ، وتركوا لى تفاصيل المشروع .

لم يكن التبكير بالزواج هو الذى يلقى إعتراضاً كبيراً من والدى، لأنه تزوج والدتى وهو فى الثالثة والعشرين ، أى فى مثل عمرى. لكنه كان حينذاك موظفاً فى مصلحة الدمغة ، ويستطيع أن يتكفل بأعباء بيت الزوجية . أما أنا فكنت فى ذلك الوقت مازلت أحبو بإنتاجى لدى المجلات نظير قروش ضئيلة أحياناً، ولوجه الفن والشهرة فى معظم الأحيان . وكان إيرادى كله فى المتوسط لا يزيد عن جنيهين فقط !! منها جنية ونصف مصروفى الشهرى الذى

أتقاضاه من والدى ، ومنه أتكفل بكل مايلزمنى من ملابس ومجلات وكتب وأدوات رسم . ومن حسن الحظ أنى لم أكن أستعمل من الثياب غير منامة « بيجامة » كستور للشتاء ، وأخرى « بوبلين » للصيف ، أما الحلل والأحذية والطرابيش ، فكنت فى غنى عنها بحكم ملازمتى للفراش . . .

حاولت أن أقنع والدى بأن يفترض أن إحدى أخواتى لم تتزوج بعد . ويتعهد بمصاريف زوجتى كأنها أختى . لكن هذا المنطق لم يقنع رجلا حريصاً كوالدى ، يعانى من البطالة أغلب شهور السنة ، بعد أن توقف نشاطه بسبب الضرائب كما أسلفت . لكننا رحنا نتحايل عليه ونبسط له الأمور ، ونحمله نتائج إصراره على الرفض ، فتظاهر بالقبول على مضض . لكنه تساءل :

— ومن أين الجهاز والمهر وتكاليف الفرح ؟ .

أفهمته أنه لن يكون هناك حفل للزفاف . أما المهر فليس له لزوم ، لأنى سأبحث عن فتاة فقيرة « ترضى بقليله » ويكفى أن أستبدل بسريرى ذى الأعمدة سريراً خشبياً مع دولاب صغير ، وكان الله بالسر عليم . وانبرت والدتى — ولا أنسى لها هذا الفضل — تعرض الغوايش الذهبية المتبقية فى معصمها كمساهمة منها فى مشروع الزواج ، وكنت مدخراً من إيرادى الهزيل ما يكفى لثمن الدبل والمصاريف النثرية . ! !

بدأنا نعقد المؤتمرات لنتدبر أمورنا ، ونبحث عن العروس

الفدائية التى تقبل هذا الوضع . أما والدى فلم يكن يستسيغ مناقشاتنا تلك ، فينزوى فى حجرته ليدبر أيضاً لهذا المشروع بأسلوبه الخاص الذى لم نفطن إليه إلا فيما بعد .

بدأت بنشر إعلان فى باب « إعلانات زواج » بمجلة روز اليوسف . ولم أشأ أن أرسل الإعلان بالبريد فيهمل . لذلك أرسلت أخى بصيغة الإعلان إلى محرر هذا الباب ، وكان على ما أذكر الأستاذ عبد المنعم السباعى ، الذى كان يحرر أيضاً باب « جراح قلب » بجانب إشرافه على إعلانات الزواج ، وظهر الإعلان فى المجلة يحمل الحروف الأولى من إسمى حتى لا يسخر منى أحد إذا ما فشلت الفكرة . وحتى كتابة هذه السطور لم يعرف أحد بأمر ذلك الإعلان غير أعضاء المؤتمر الرباعى بالطبع المهتم بموضوع زواجى وهم كما ذكرت .. والدتى ونعمات وأخى وأنا .

ذكرت فى الإعلان — وياللخجل — إيراد أبى ، وأنى شاب وسيم « ! » يعانى من حالة صحية قابلة للشفاء . « وكنت أعتقد فعلا حينذاك أن مرضى قابل للشفاء » . ولم أشترط أن تكون عروسى عذراء ، بل أعلنت أنى أقبل أرملة أو مطلقة متوسطة الجمال ، ثم خيل لى أنى قد أجد العروس الفدائية المتواضعة فى لاجئات فلسطين ، وكنت أقرأ كثيراً عن الضنك وشظف العيش الذى يقاسون منه فى معسكراتهم الخشنة ، فأضفت إلى الإعلان ما معناه

أنى لا أمانع أن تكون العروس — بعد هذا التساهل — من لاجئات فلسطين .

عشت أياماً أحلم بالأمل الجديد ، وصاحبة الحظ السعيد التى سيحملها لى القدر على أجنحته البيضاء . ولكن بالطبع لم يلتفت أحد إلى الإعلان الحماسى . وعلمت فيما بعد أن المشرف على باب إعلانات الزواج أشر على إعلانى بالموافقة من باب العطف والمجاملة ، وهو يقول لأخى فى اشفاق : « إن أخاك محتاج لواحدة من الملائكة حتى ترضى بهذا الوضع » .

وإذا كنت قد ندمت على بعض تصرفاتى خلال حياتى الشاذة ، فإنى أشعر بندم شديد على نشر هذا الإعلان ذات يوم ، وكلما ذكرته أشعر بجرح غائر فى كرامتى لأنى تطفلت على مائدة لا يحق لى أن أشارك أصحابها فى طعامهم . وأحس بأنى عرضت نفسى سلعة رخيصة لم يلتفت إليها أحد ، رغم أن سر هذا الإعلان ظل مكتوماً كما ذكرت ، وأنا أذكره الآن لأول مرة ساخراً من غرورى وسذاجتى . لأنى لم أكن أملك حينذاك ميزة واحدة ترشحنى للزواج .

بعد صدمة الإعلان . بدأت أتواضع قليلا فى تفكيرى ، لكنى لم أنصرف عن فكرة الزواج . ولم يعد لى مطمع أو شرط فى زوجة المستقبل إلا أن تكون إنسانة شريفة وفية . أما شكلها ، عمرها ، عائلتها ، أصلها ... فلم يكن هذا يعنينى فى شىء . وعلى هذه

الأسس الجديدة بدأنا نبحث من جديد . .

اقترحت على والدتى أن تذهب إلى ملجأ اللقطاء، وتختار لى زوجة من هناك. واقنعت نفسى بوجاهة هذا العمل الخيرى . وتصورت أنى باختيارى هذا أستطيع أن أمنح زوجتى شيئاً مقابل تضحيتها . والواقع أنى لم أكن قد فقدت الأمل فى أن أتكسب من إنتاجى الفنى والأدبى ذات يوم رغم فشل محاولاتى الأولى . فقد كنت أحاول أن أستزيد من الدراسة والتحصيل والاستعداد لمحاولات قادمة . وكانت طبيعتى المتفائلة تؤكد لى أن شفائى مضمون إذا ماعولجت فى الخارج . وذلك لما كنت أقرأه من وقت لآخر عن المفاصل الصناعية التى يثبتها الجراحون الأجانب فى أجسام المرضى أمثالى فيتحركون ويلعبون « التنس » و كرة السلة ! ! وظل هذا الأمل راسخاً فى نفسى ، أتصرف فى حياتى على هديه حتى سافرت إلى الخارج فعلا فى سنة ١٩٥٩ .

لذلك لم يكن غريباً فى اعتقادى أن أفكر فى الزواج والإنجاب مادمت قادراً على أداء واجباتى كزوج من الناحية الفسيولوجية ! كانت والدتى متحمسة لفكرة زواجى — ومازالت — فاقتنعت بزواجى من ملجأ اللقيطات . وكان علينا بالطبع أن نتجنب الملاجىء والمؤسسات الحكومية ، لأن نزيلاتها يعتبرن من أبناء الدولة الإسلامية ، وبالتالى لن أتمكن من مصاهرة الدولة وشهادة ميلادى تؤكد أنى مسيحى . لذلك لجأت والدتى إلى مدرسة

الراهبات التي تعلمت فيها أخواتي ، وهي كلية سان ڤانسان دي بول، وكان بها قسم مجاني منفصل للفقيرات — عسى أن تجد بينهن بغيتي . لكن رئيسة الراهبات اعتذرت بلباقة مبدية تأثرها الشديد ؛ وأشارت على والدتي بأن تبحث عن طلبها في أحد الملاجيء التي تديره الراهبات بحي شبرا .

وهناك أيضاً مصمصت الراهبة بشفتيها تأثراً ، واعتذرت بأن هؤلاء البنات أمانة في عنقها . وأعلنتها بابتسامة رقيقة أنها لا تطمئن لمثل هذه الزيجة الشاذة ، ولم تتراجع عن رأيها عندما أخرجت والدتي صورتي من حقيبتها لتقنعها بأن إبنها « شاب زي الورد » !.

وكانت طعنة ثانية تصيب كبريائي في الصميم .

صممت على العدول عن الزواج حتى لا أتعرض لمزيد من الطعنات، وحتى أتجنب تعليقات أبي الشامتة. لكن والدتي لم تستسلم للفشل . فذهبت لزيارة « الست زكية » ، التي تمت لنا بصلة نسب ، وكانت سيدة متدينة تشارك في الجمعيات الخيرية ولها صلات واسعة بالعائلات المتواضعة. وما كادت تشرح لها والدتي هدفها من الزيارة حتى تحمست للفكرة ، وطلبت مهلة قصيرة حتى تجس النبض وتبحث لي عن بنت الحلال .

وبعد أيام زارتنا واسطة الخير ، وعرضت علينا عروسين . إحداهما أرملة في الأربعين ، تعيش وحيدة بعد أن تزوجت

إبنتها . وقد رحبت بى كزوج يؤنس وحشتها ، وأبدت استعداداً طيباً للسهر على رعايتى . لكن والدتى أسرعت ترفض الأرملة الوحيدة، مرددة المثل المعروف « من همه إنجوز واحدة قد أمه».

وما لبثت « الست زكية » أن أخرجت من جعبتها العروس الثانية ، وهى فتاة شابة لم تبلغ العشرين ، مليحة ، متينة البنيان. لكنها من عائلة فقيرة ، إذ أن أباها نجار من الدرجة الثالثة . وعرضت أن تحضرها معها فى زيارة قادمة دون أن تشعرها بسر الزيارة ، حتى لا تجد حرجاً من مقابلتى . على أن تفاتحها فى الموضوع تدريجيا بعد الزيارة .

وافقنا على الفكرة بالاجماع ماعدا أبى بالطبع ، فقد اعتصم بحجرته متنصلاً من المشروع ، ومحملاً إيانا مسئولية تصرفاتنا ، بعد أن صبغ لنا المستقبل بأفكاره السوداء . ولم يفت تشاؤمه فى عضدى ، فقد كنت مندفعاً لتحقيق هدفى حتى أبعد شبح القلق الذى يهددنى بفقد نعمات، واعتبرت أن عيب عروسى الوحيد — وهو أباها — ميزة تعوض تضحيتها عندما يضحى أبى المقاول الكبير بمصاهرة والدها نجار الدرجة الثالثة ! حقاً ربما كان والدى متعطلاً عن العمل فى ذلك الوقت ، وربما كان أبوها يكسب أكثر منه ، لكن . . ولو . . الناس مقامات !! هكذا كان منطق والدى ومنطق ذلك العصر . .

لو أن أبى استعمل «حق الفيتو» واستغل سلطاته الديكتاتورية

واعلن رفضه لموضوع الزواج أصلاً . لما استطاع أحدنا أن يعارض أوامره ، وليته فعل حتى يوفر علينا المشقة . لكنه — سامحه الله — كان يحلو له أحياناً أن يتركنى أحلق بآمالى مدعياً الحياد ، ومؤملا أن يعيقنى الفشل عن الوصول إلى هدفى ، فإذا ما أشرفت على النجاح يتدخل بجبروته ليحطم ما تعبت فى بنائه . وهكذا فعل فى موضوع الزواج . فقد ظل مبتعداً عن المشروع فى جميع مراحله حتى جاءت العروس لزيارتى ؛ ووجدتها فعلاً مليحة الوجه ، ممشوقة القوام ، خفيفة الظل . وخيل لى أنها ارتاحت لمظهرى وحديثى . ولم يخب ظنى ، فقد صارحتنا الست زكية فى زيارتها التالية أن العروس رحبت بالفكرة ، وأقسمت بحياة المسيح الحى والعذراء مريم .. أن تجند نفسها لخدمتى مدى الحياة ، لأنى دخلت قلبها من أوسع أبوابه . لكنى قبل أن أتورط معها فى الزواج ، إدعى والدى أنه عرف من مصادر موثوق بها أن قلبها له أبواب أخرى خلفية من الممكن أن يدخل منها غيرى . .

وسواء كان ذلك الادعاء صحيحاً أم مختلقاً . فإن أهل العروس لم يدعوا لنا فرصة الرفض ، فقد جاءنا رفضهم متعللين بأنهم لم يتوقعوا أن تكون حالتى المرضية متأخرة إلى هذا الحد .

لم أحزن لفشل المشروع قدر ما آلمتنى عبارة ساخرة قالها أبى فى شماتة : « ألم أقل لك إنك لا تصلح للزواج ؟ إن التى ترضى

بك سوف تستغفلك فى الحجرة المجاورة مع رجل آخـــر دون أن تدرى » .

قالها ببساطة ليصرفنى عن التفكير فى الزواج نهائياً ، حتى لا يتحمل عبئاً جديداً . ولم يدر أنه كان يطعن رجولتى، ويعايرنى بذنب لم أرتكبه .

إن الزوجة المستهترة فى وسعها أن تستغفل رجلها سواء كان راقداً أم متحركاً . فإذا بلغت بها الجرأة أن تدخل عشيقها فى بيت الزوجية أثناء وجود زوجها الراقد ؛ فسوف يكون الأمر أكثر سهولة وإغراء فى غياب زوجها السليم أثناء تواجده فى عمله، الذى لا يعود منه إلا فى ساعة معينة . وإذا قلنا أن قعود الزوج سيغرى الزوجة المستهترة بخيانته خارج البيت ، لأنه ان يلاحقها بالمراقبة فإنى أتساءل : وأى رجل يلاحق زوجته خارج البيت سواء أكانت عاملة أو خاملة ؟

هكذا كان منطق كبريائى الجريحة فى مناقشة أبى ، لكنه كان مصراً على أن يعتبرنى مخلوقاً تافهاً دون سائر الرجال . كانت تلك النظرة المهينة من والدى تؤلمنى ، لكنها لم تحطمنى ، بل على العكس كانت تملأنى بشحنة من الإصرار على أن أكون شيئاً له وزنه فى المجتمع ، حتى أستطيع أن أتزوج من أشاء ، دون أن أدع لوالدى فرصة التدخل فى شئونى الخاصة . ولن يتاح لى أن أفرض رأيى وأتحكم فى مصيرى ، إلا إذا استطعت أن أستقل مادياً عن أبى .

الواقع أنى الآن وأنا أسجل هذه الذكريات أكاد التمس العذر لوالدتى ، وأقره على أنى لم أكن أصلح حينذاك للزواج . لكنى فقط أعترض على أسلوبه فى المعاملة ، فقد كان بوسعه أن يصرفنى عن غرضى دون تجريح . لكنه على أى حال كشف لى عن إصراره الأكيد فى عرقلة زواجى ، مما جعلنى أصرف النظر عن الاستمرار فى محاولات أخرى ، خاصة وأن النتائج السابقة لم تكن مشجعة. وقررت أن أضع أملى على الرف إلى أن أصنع من نفسى شيئاً ترضى به لاجئة من فلسطين ، أو لقيطة من ملجأ ، أو إبنة نجار من الدرجة الثالثة .

وبعد أربعة أعوام فقط طلبت منى الزواج مليونيرة حسناء !! قد يدهش القارىء ويظن أنى سأسرد عليه حلماً من نوع « الجوعان يحلم بسوق العيش » . كلا . . إنها حقيقة أذهلتنى أنا شخصياً ، وعشت أحداثها طوال سنوات أربع فى قصة غرام عنيف . . مع المليونيرة الحسناء ، إنتهت بـ . . .

ولكن لماذا نسبق الأحداث ومازالت هناك أربعة أعوام لم أتحدث عنها ؟ فنؤجل إذن موضوع المليونيرة الحسناء حتى تبزغ فى حينها على مسرح الحياة .

* * *

عـود إلى الصحافة

عدت أستنجد بهواياتى الرئيسية، الرسم والتأليف والترجمة ، محاولاً أن أعتصر منها جنيهات قليلة تكفل لى الإستقلال المادى ، وبالتالى أنتزع حريتى . وأؤكد شخصيتى كإنسان له كيان فى مجتمعه ، أو على الأقل فى بيته وبين أفراد أسرته .

كنت خلال سنوات الجدب ، التى انقطت فيها عن النشر ، لم أنقطع عن المحاولات للإرتفاع بمستواى الفنى والأدبى ، على الأقل إرضاء لهوايتى وليس لمجرد الكسب المادى . فإن من طبعى أن أدرس هواياتى بعمق وعلى أسس علمية ، حتى ولو لم أنتظر منها أى كسب أدبى أو مادى .

إننى على سبيل المثال ـ عندما هويت لعبة الشطرنج ، لم أكتف بممارستها ببساطة لمجرد التسلية ، لكننى ـ رغم إتقانى لها ـ اشتريت كتاباً ضخماً يشرح تاريخ اللعبة ودقائقها وخططها وتكنيكاتها وأشهر مبارياتها العالمية .

ومن هواياتى المحببة إقتناء الكلاب الوولف البوليسية

بالذات ، لوفائها وجمالها ويقظتها وذكائها . لكن إمكانياتى المادية لم تكن تسمح لى بشراء كلب من هذا النوع . كذلك كنت أرفض الكلاب المهداة لى لأنها لم تكن أصيلة تماماً ، وكان باستطاعتى دائماً أن أكتشف أى عيب فيها مهما كان طفيفاً ، فقد نميت هوايتى بقراءة عدة كتب عن الكلاب وسلالاتها وأمراضها وغذائها . وفى مكتبتى كتاب كبير عن كلاب الشرطة بالذات ، فقد كنت أعد نفسى للوقت الذى أستطيع فيه أن أشترى كلباً من هذا النوع الذى أحبه. وقد طبقت هذه المعلومات فيما بعد مع كلبتى الوفية « لاسى » فى تدريبها وعلاجها وغذائها .

كذلك عندما مارست هوايتى — منذ سنوات قليلة — فى تربية الدواجن ، أقتنيت عدة كتب جامعية تشرح بتوسع تربية مختلف أنواع الدواجن ، ثم طبقت النظريات العلمية على مزرعتى الصغيرة ، بين دهشة أفراد أسرتى، الذين درجوا على أساليب التربية المتعارف عليها ، وكانوا يسخرون من الدقة والحزم وعدم التهاون ، لكنهم آمنوا بالعلم أمام النتائج الباهرة التى حصلت عليها .وأصبحت مستشار العائلة والجيران فى هذا الميدان .

هذه نماذج سريعة تبين أسلوبى العلمى فى ممارسة هواياتى ، وهذا الأسلوب هو الذى أتاح لى أن ارتفع بهواياتى الأدبية والفنية إلى مستوى المحترفين ، وكانت سنة ١٩٥١ هى بداية الإنطلاقة الحقيقية لعملى كمحترف وعلى نطاق واسع ، من حيث الإنتاج

والنشر ، ولو أن رزقى ظل محدوداً لسنوات طويلة أخرى .

البعكوكة :

كانت مجلة البعكوكة — رغم تفاهتها — من أشهر المجلات وأوسعها إنتشاراً فى ذلك الوقت ، وكانت الفكاهة المصورة هى المادة الرئيسية فى المجلة بعد الزجل، ووجدت أن مستواى فى الرسم الكاريكاتيرى قد ارتفع فوق مستوى بعض ما ينشر فى تلك المجلة ، وصار فى إمكانى أن أفرض إنتاجى على صاحبها .. وبأجر .

أعددت مجموعة من الفكاهات المصورة وأرسلتها إليه مع « وليم » سكرتيرى الصغير. الذى كان قد نما عوده عن ذى قبل ، واستطاع أن يقنع محمود عزت المفتى بأنه سكرتير حقيقى .

كان « وليم » مرناً .. ولبقاً ، فلم يصطدم بغطرسة صاحب البعكوكة ، الذى كان يجلس فى عظمة خلف مكتبه الفخم ، ومن خلفه لافتة كبيرة مكتوب عليها «إختصر الحديث فأنا مشغول » . هذا غير العبارة المنقوشة على باب مكتبه من الخارج ، والتى تصفع الزائر قبل أن يدخل إليه ، فقد كانت تصرخ فى جرأة « ممنوع الزيارة .. حتى أنت » . لكن « وليم » كان أجرأ من اللافتة الصارخة ، فكان يقتحم عرين الأسد بوسيلة أو بأخرى . ولو كنت أنا مكانه لتراجعت فوراً ، ولو كانت الجنة ذاتها خلف هذا الباب .

كانت الصورة التى نقلها لى وليم كفيلة بأن أتجنب هذا الرأسمالى

المتغطرس طوال معاملتى معه . حتى التليفون .. لا أذكر أنى اتصلت خلاله بصاحب البعكوكة إلا مرة أو مرتين بناء على طلبه ، وذلك للتفاهم على موضوعات معينة خاصة بالعمل طبعاً .

كانت التسعيرة الثابتة للصورة هى خمسة وعشرين قرشاً . وكنت أرسم للمجلة حوالى خمس صور فى المتوسط كل أسبوع . ولما كانت المجلة أسبوعية ، فقد كنت أستنزف من خزينة الرأسمالى حوالى خمسة جنيهات شهرياً ، أدفع ثلثها لسكرتيرى المزعوم حسب الاتفاق المبرم بيننا ، لأنى لم أكن أضمن له مرتباً شهرياً بالطبع .

كنت سعيداً جداً بعملى الجديد ، الذى أنعش ميزانيتى ، ورفع من معنوياتى ، بعد أن إستطعت أن أحول هوايتى إلى عملة نقدية ، فضلا عن إسمى الذى كان ينقش حوالى خمس مرات على غلاف مجلة رائجة ، فقد كانت الرسوم الجديدة تحتل واجهة المجلة ذات الحجم الكبير .

استمرت علاقتى بمجلة البعكوكة من ٤ فبراير ١٩٥١ إلى ١٣ أبريل ١٩٥٢ . وفى تلك الفترة تعرفت بمجلة أخرى اسمها «روايات الأسبوع» ، فكنت أجمع بين المجلتين حوالى عشرة أشهر ، ثم تفرغت لروايات الأسبوع بعد أن تعددت فيها اختصاصاتى ، بحيث تعذر علىّ أن أجد وقتاً للبعكوكة ، بعد خمس عشرة ساعة يومياً من العمل المضنى فى روايات الأسبوع .

مدرستي في الصحافة :

في ربيع سنة ١٩٥١ ، وقعت في يدي بالصدفة مجلة « روايات الأسبوع » ، وكانت في حجم الكتاب ، أنيقة الطبع ، وتصدر كل شهر مرة ، رغم أن اسمها يعلن صراحة أنها أسبوعية . وكأي مجلة صدرت في القاهرة – بلا استثناء – أرسلت إليها إنتاجي في القصة والرسم .

كان صاحب المجلة ورئيس تحريرها هو الأستاذ توفيق الشمالي . أحد سكرتيري التحرير في جريدة الأهرام حينذاك . الذي رحب بسكرتيري المزعوم ، وأبدى إعجابه بإنتاجي ، لكنه اعتذر في رقة عن مكافأتي ماديا ، لأن المجلة كانت لاتزال تحبو في عددها السابع ، وميزانيتها لا تسمح بدفع أجور للمشتركين في تحريرها ، وكان معظمهم من زملائه في جريدة الأهرام الذين يجاملونه مجانا ، أو من الهواة والقراء . ولما سأله لماذا لم يحضر « الأستاذ » بنفسه ، إدعى وليم – حسب تعليماتي – بأني أعاني من وعكة بسيطة تمنعني من الحركة . وكنت أحرضه على تلك الكذبة البيضاء ، حتى لا ينفر رؤساء التحرير من التعامل مع شخص مقيد خشية تعطيل مصالحهم . ولا مانع من أن يعرفوا الحقيقة بعد أن أثبت جدراتي بالعمل الذي أقوم به . ولما سأل توفيق الشمالي عن طبيعة الوعكة التي أعاني منها ،

إرتبك وليم، فخرج عن مستوى الكذب الأبيض، وادعى أن ساقى المكسورة فى الجبس !

رغم أنى كنت أتقاضى أجراً من البعكوكة فى ذلك الوقت . فقد رحبت بالنشر مجاناً فى روايات الأسبوع . كان هدفى أن أفتح ميادين جديدة لإنتاجى طالما كان وقتى يتسع لها . وما كان أرخص وقتى حينذاك . فلم تكن البعكوكة تستهلك إلا جزءاً يسيراً من طاقتى .

لم يكن النشر المجانى فى الواقع لوجه الله ، فإن الكسب الأدبى بالنسبة للأديب أو الفنان الناشىء أجدى من المكسب المادى . والمكسب الأدبى هو الشهرة والخبرة فضلاً عن لذة ممارسة العمل الذى أهواه .

رحب صاحب روايات الأسبوع بإنتاجى المجانى ، وأبدى رغبته فى زيارتى للاطمئنان على ساقى المكسورة ! فسررت لتلك المجاملة الرقيقة ، ولم أشأ أن أضيع الفرصة . . . فرصة مقابلتى لأحد رؤساء التحرير ، هؤلاء الآلهة الذين اتخموا سلال المهملات بعصارة عرقى وفنى !. فأجريت دراسة شاملة على روايات الأسبوع، ورسمت لها تبويباً جديداً ، اقترحت فيه أبواباً مبتكرة تفتقد إليها المجلة .

كنت أشعر برهبة من هذا اللقاء الخطير . لكنها سرعان ما تبددت أمام الإبتسامة الرقيقة التى تطل من وجهه الصبوح الهادىء ، وألفاظه المهذبة الممتنة ، وبساطته الرائعة التى أزالت

من رأسى كل ما كان مختزناً فيها من صور بغيضة عن ملوك الصحافة المتألهين .

بادرته بالاعتذار عن كذبة الجبس البيضاء، وصارحته بظروفى الحقيقية . فلم تزده الحقيقة إلا ترحيباً وإصراراً على التعاون معى . وبدأت أشرح له وجهة نظرى فى مجلته ، وعرضت عليه اقتراحاتى واحداً بعد الآخر ، مؤكداً تعهدى بتنفيذها كلها وحدى . وإذ به يتقبل أفكارى فى سماحة واهتمام ، ثم هتف فى حماس :

ــ إسمع . . أنا عندى فكرة عملية . . . أريدك أن تتصور نفسك رئيساً لتحرير المجلة، وعليك أن تعد لى «ماكيت» أى نموذجاً كاملا للمجلة التى تقترحها . حتى الغلاف لك أن تضع له تصميماً مبتكراً . ولنا لقاء آخر بعد أسبوع نناقش فيه أفكارك الجديدة .

أسعدتنى الثقة الغالية التى منحنى إياها بهذه التجربة الضخمة . وشرعت فور انصرافه أخرج أفكارى إلى حيز التنفيذ . كانت اقتراحاتى تنبع من ظروف المجلة واحتياجاتها . ووضعت نصب عينى أهدافاً رئيسية : ألا أكبد ميزانية المجلة مزيداً من الأعباء . وأن أربط بين المجلة والجمهور بأبواب خفيفة ثابتة ، يشترك فيها القراء ، ثم بعض أبواب دسمة أستخدم فيها الكفاءات الموجودة فعلا فى المجلة . وفكرت أن أرسم لكل قصة رسماً مدروساً يعبر عنها ويشوق لقراءتها . وعرضت جهودى فى الترجمة والتأليف والرسم الكاركاتيرى . أما غلاف المجلة فأعدت تصميمه على أساس

طابع مميز ثابت يلتصق بذهن القارىء ويلفت نظره ، مع تغيير الصورة داخل الإطار الثابت .

اختصر حماسى المهلة المحددة ، فانتهيت من تصميم النموذج المطلوب قبل الموعد . ثم تقابلنا ، وتناقشنا . ولم يخرج من عندى إلا بعد أن أعطانى تفويضاً كاملا بتنفيذ مقترحاتى ، بل ترك لى أيضاً كتابة « كلمة المحرر » التى إعتاد أن يقدمها فى كل عدد . ثم طلب منى وهو يشد على يدى أن أصمم « ترويسة » جديدة للمجلة أضع اسمى فيها بجانب اسمه مسبوقاً بلقب « سكرتير التحرير والمحرر الفنى » . فكدت أصعق من فرط الدهشة الممتزجة بفرحة طاغية. وسألته وأنا لا أستطيع أن أسيطر على الضحكة الواسعة التى ملأت وجهى :

— وما ضرورة المحرر الفنى ، ما دمت سأكون سكرتيراً للتحرير ؟

فقال ، وهو يعتقد أن فى ذلك مزيداً من التكريم :

— سكرتير التحرير الأبواب التى ستحررها بنفسك أو تشرف عليها . أما المحرر الفنى فهو لقب تستحقه كرسام للمجلة .

لم أشأ أن أناقشه فى وجهة نظره ، فقد كنت متعطشاً الألقاب التى تحدد شخصيتى وموقفى من المجتمع . لكنى عندما سارعت بطبع بطاقات شخصية تحمل لقبى الجديد لم أذكر فيها إلا سكرتير التحرير. ليس من باب التواضع ، بل لعلها من دوافع الغرور ، فقد

استنكفت أن أكون مجرد « محرر » بينما أتمتع بسلطات سكرتير التحرير !

كان باقياً على صدور العدد التالى من المجلة بضعة أيام . ولم يكن ممكناً أن أبدأ بمشروعى فى تلك الفترة القصيرة . فاكتفى بأن نشر لى إحدى قصصى . . . وكانت بعنوان « وأخيراً وجدها » . كذلك قدمنى فى هذا العدد لقرائه ، ممنياً إياهم بالخير العميم على يدى الوافد الجديد .

كانت قصة « وأخيراً وجدها » هى القصة الثانية التى نشرت لى فى تاريخ حياتى الأدبية ، وكان ذلك فى أول يونية ١٩٥١ . أما القصة الأولى فكانت كما ذكرت بعنوان « من أول نظرة » فى مجلة المصباح سنة ١٩٤٦ . وإذا كانت القصة الأولى مستمدة من ذاتى أو على الأصح كانت ترضى طموحى وتحقق أحلامى على الورق ، فقد كان فى القصة الثانية تنفيس عن ناحية أخرى مكبوتة فى حياتى .

تتلخص القصة فى أن شاباً أصيب فى حادث حريق شوه وجهه ، مما جعله ينطوى على نفسه حتى يتحاشى نظرات النفور التى تطالعه فى وجوه الناس ، خاصة الجنس اللطيف . وذات يوم يلتقى بفتاة جميلة ترتاح إليه ، ولا يلمح فى عينيها أثراً للنفور . . . لأنها كانت ضريرة ! فيتمسك بها ويطلب يدها . . فقد كان عيبها يعتبر ميزة له ، لأنها لن ترى دمامته . كذلك كان هو فرصة نادرة بالنسبة لظرفها الخاص .

ولعله يبدو واضحاً أنى حاولت أن أبحث عن حلول سعيدة ترضى بطلى القصة المأزومين . ولا شك أنى حاولت بهذه القصة أن أقنع نفسى — لا شعورياً — بأن مشكلتى أنا أيضاً ليست مستحيلة الحل . حقاً . . لقد كان الحل قدرياً فى القصة ، وهذا يعيبها فنياً ، لأنه مبنى على المصادفة . لكنى لم أفطن إلى هذا الخطأ . . لأنى فى الواقع كنت حريصاً على محاباة نفسى فى شخص بطل القصة أو البطلة ، وكلاهما يمثل الإنسان الذى ظلمه القدر بعاهة لا ذنب له فيها . وكأنى وأنا أمد يدى بالحل الموفق للشخصيات التى خلقتها . كأنى بذلك كنت آمل أن تمتد إلى يد خالقى أنا أيضاً بالحل السعيد .

هكذا كانت قصتى الثانية ، مجرد أحلام يقظة فى قالب قصصى ضعيف ، ولحسن الحظ لم يفطن صاحب المجلة إلى هذا الخطأ الفنى لأن تخصصه فى المقال السياسى — كما عرفت فيما بعد — صرفه عن الأدب القصصى ، فلم يعالجه ككاتب أو يدرسه كناقد . حتى ولو أدرك أن القصة ضعيفة ، فلا أظن أنه كان سيرفض نشرها بعد أن تطوعت للعمل فى مجلته كسكرتير تحرير ورسام ومترجم . . بلا مقابل .

* * *

فى أول يوليه ١٩٥١ ظهرت مجلة روايات الأسبوع فى ثوب جديد تماماً . بعد إضافة الأبواب الثابتة التى نفذتها بنفسى والتى لاقت نجاحاً لدى القراء ، فانهالت علينا رسائلهم عارضين إنتاجهم

ومشكلاتهم وأسئلتهم واقتراحاتهم . وكان صاحب المجلة يزورنى من وقت لآخر ، ليحمل إلىّ بنفسه الرسائل الوافدة . فأوليها أشد الاهتمام ، وأقرأ كل رسالة بإمعان ، وأرد عليها فى الباب المخصص لها . ومن أنجح الأبواب التى حررتها فى تلك المجلة هو باب « بريد المفتى » . والمفتى هذا كما صممته فى الرسم المميز الثابت ، هو شيخ وقور مبتسم ذو لحية بيضاء وعمامة كبيرة . وأمامه صندوق بريد تتدفق منه الرسائل . وكنت أرد بلسان هذا المفتى على أى سؤال يصل المجلة . أحياناً يكون السؤال مشكلة عاطفية وأحياناً أنقد قصة أو زجلا لأديب ناشىء . وتارة يكون السؤال تافهاً فأعلق عليه برد مرح . وتارة يكون السؤال جاداً ، فأرد عليه بإجابة مفيدة ، ولو اضطررت إلى سؤال أهل الخبرة ، أو البحث عن الإجابة بين المراجع فى مكتبتى . وكثيراً ما كنت أرد على بعض القراء برسائل خاصة بالبريد .

ثم أنشأت باباً جديداً بعنوان « حكايات قصيرة » استوحيت فكرته من قصص الهواة العديدة ، التى كان يعج بها بريد القراء . كانت بعض القصص تنطوى على فكرة جديدة ، لكن أسلوبها ضعيف ، فأعيد صياغتها مختصرة فى صفحة واحدة ، حتى يتسع حيز هذا الباب لمجموعة من القصص القصيرة جداً . وفى هذا تشجيع لأصحابها بدلاً من إلقاء إنتاجهم فى سلة المهملات اللعينة التى قاسيت منها شخصياً .

كان لهذا التشجيع أثره الواضح فى دفع تلك الكفاءات الصاعدة لتنمية مواهبهم ، ومنهم من أثبت جدارته فيما بعد ، وقفز بإنتاجه من باب حكايات قصيرة إلى قلب المجلة مع المواهب الناضجة التى كنت أمول بها صفحات المجلة ، حتى تحولت بالتدريج إلى مجلة قصصية تعتمد على إنتاج الهواة الموهوبين فعلا ، الذين اكتشفتهم تباعاً .. من بين بريد القراء ، فكنت أكتب إليهم رسائل خاصة ، وأستدعيهم لمقابلتى ، وأرعى إنتاجهم وأفسح لهم الطريق على صفحات المجلة .

بداية الترجمة :

حينما وعدت صاحب روايات الاسبوع فى مشروعى المقترح بأن أموال المجلة بالقصص المترجمة، لم أكن فى الواقع قد مارست الترجمة فى عمل مكتمل ، لكنى كنت أقرأ بالإنجليزية وأفهم مضمون ما أقرأه، وألجأ إلى القاموس إن لم أفهم الكلمات الجديدة من سياق الكلام . لكنى مع هذا كنت واثقاً من مقدرتى على الترجمة طالما كنت أفهم الموضوع الانجليزى ، وأملك ناصية التعبير باللغة العربية ، ولو احتاج الأمر أن استخرج نصف كلمات القصة من القاموس .

إن الثقة بالنفس من اهم الصفات التى كانت ومازالت تدفعنى إلى التعرض للأعمال الجديدة دون خوف أو تردد . وحجتى فى هذا أنى لن أخسر من التجربة . فإذا كانت معلوماتى فى مستوى العمل

المطلوب فسوف أتقنه بسهولة ، وإذا كان ينقصنى المران ، ففى التجربة تمرين وممارسة . وإذا كانت خبرتى أقل من العمل المطلوب ، فلا بد أن أستكمل النقص بعد أن أشحذ أسلحتى الأكيدة ، وهى الكتاب والكفاح والإرادة .

وبالنسبة للترجمة ، فالكتاب هو القاموس ، والكفاح واجب مقدس تفرضه حاجتى الملحة لبناء مستقبلى ، أما الإرادة فهى صفة أصيلة فى شخصيتى صقلتها الآلام والمحن . فالأمر بالنسبة للترجمة إذن لن يحتاج منى إلا لمجهود مضاعف وساعات أطول .

بدأت الترجمة بقصة بوليسية صغيرة بعنوان « جاسوسة الفندق » ونشرت فعلا ، لكنى لم أجد فرصة لترجمة غيرها ، فقد كنت مرهقاً بالعمل الصحفى ، مما أثر على إنتاجى حتى فى القصص المؤلفة . أما فى الرسم فقد أثبتت ريشتى وجودها فى معظم صفحات المجلة .

الصدفة العملية :

سرعان ما اطمأن صاحب روايات الأسبوع إلى حسن تصرفى ودقتى فى المواعيد ، وجدارتى بتحمل المسئولية . فكان يعهد إلىّ بأعبائه واحداً بعد الآخر . وكنت أرحب بالمسئوليات الجديدة عن طيب خاطر دون أى هدف مادى . فقد كنت أعتبر نفسى فى مدرسة أتعلم فيها ما يفيدنى مستقبلا . وكان يبهرنى

الجو السيكولوجى الذى أعيش فيه . لاحساسى بأهمية العمل الذى أقوم به . بعد أن أطلق توفيق الشمالى يدى فى إدارة المجلة . . واختيار المواد وتنسيقها . ومراجعة الأصول من الناحية اللغوية. حتى مهمة الإشراف على « بروفات » المطبعة آلت إلىّ تدريجياً ، حتى أصبحت مسئولا عنها . فكان رئيس المطبعة يتصل بى مباشرة ويحضر إلى منزلى ليتسلم مواد العدد الجديد. مع « ماكيت » مفصل لتنسيقها . ثم يأتى لى « بالبروفات » مرة وإثنتين وثلاثة ، حتى أطمئن إلى خلوها من الأخطاء المطبعية . كذلك كنت أتصل بورشة الزنكوغراف ، لأتفق مع صاحبها على نوع « الكليشيهات » المطلوبة .

أما النواحى المالية والتعامل مع شركات التوزيع . فكانت من اختصاص صاحب المجلة . حتى لا أطلع على سر مكاسبها ، فأطمع فى أجر مادى نظير عملى بالمجلة . ورغم أن المحيطين بى كانوا يلوموننى على تهاونى فى المطالبة بحقوقى المادية إلا أنى كنت أجد حرجاً شديداً فى مناقشة مثل هذه الموضوعات المالية ، خاصةوأنه كان يأسرنى برقته ومعاملته الطيبة ، فضلاً عن أنى كنت حريصاً جداً على ألا أفقد هذا العمل الكبير الذى ملأ حياتى الخاوية ، وفتح لى ثغرة أنفذ منها إلى مستقبل طيب يشع بالآمال العريضة .

نكسة :

لكن هذه الآمال ما لبثت أن انهارت فجأة ودون مقدمات... ولم تمض ستة شهور على مولدها . فقد ظهر عدد يناير ١٩٥٢ خالياً من إسمى كسكرتير للتحرير ، وتربع مكانه بالبنط العريض اسم آخر مسبوقاً بلقب « المدير الفنى » . وكان هذا المدير الفنى قد ظهر فى الأفق منذ شهرين ، وقدمه لى توفيق الشمالى على أنه شاب نشيط متصل بالأوساط الفنية ، قد رأى أنه خامة طيبة يمكن الاستفادة منها وتوجيهها . لكنى لم أطمئن إليه وإلى أساليبه المقترحة . . والتى كانت سائدة فى ذلك العهد . فقد قدم لى موضوعاً عن أحد الفانين المعروفين، يلمح فيه إلى ماضيه وفضائحه، وختمه بوعد للقارىء بأن يوافيه ببقية الأسرار فى العدد القادم . وكانت خطته مبنية على أن ينشر المقال كخطوة أولى ، ثم تجىء الخطوة الثانية عندما يذهب المحرر النشيط إلى الفنان الضحية ليعرض عليه المقال ، ويلمح له بطلب إعلان أو اشتراك ، فى سبيل تصحيح المعلومات الفاضحة فى العدد التالى

رفضت بشدة هذه الطريقة القذرة لابتزاز أموال الفنانين ، حتى ولو كانت المعلومات المنشورة صحيحة . وبالتالى رفضت المقال رغم إدعائه بأن صاحب المجلة موافق على الفكرة . واتصلت بتوفيق الشمالى وفى عزمى أن أتنحى عن مسئوليتى الأدبية فى سياسة

المجلة ، وأن أسقط من حسابى الصفحات الفنية . لكن توفيق الشمالى تمتم محرجاً بأنه لم يكن يتصور هذا الهدف الخبيث للمحرر النشيط. ورجانى أن أقبل المقال على أنه يحوى معلومات مثيرة تجذب القارىء . ولما رأى اصرارى على الرفض وافق على رأيى ، لكنه كان يدبر أمراً فى نفسه . فقد ظهر العدد التالى وبه مقالتان بقلم المدير الفنى تحويان من البذاءة والتجنى والقحة ، ما جعلنى أحمد الله على حذف إسمى من المجلة ..

ولوجه التاريخ أحب أن أقدم هنا ملخصاً لتلك البذاءة حتى أعرض نموذجاً لصحافة ذلك العهد البائد ، الذى كان يتحول فيه قلم الصحفى إلى عصا فى يد بلطجى يهدد به من لا يدفع .

كتب المدير الفنى فى عدد يناير ١٩٥٢ ، وإنى لأمسك عن ذكر إسمه ، لعله تاب عن ماضيه المخجل ، لأن هدفى ليس التشهير ، بل مجرد التأريخ للحقائق :

« فكر المدعو « أنور وجدى » فى أن ينتج فيلماً جديداً تجرى حوادثه فى حى شعبى . فلم يجد أصلح من حى السيدة زينب لتنفيذ غرضه . وهناك هبط من سيارته بكبرياء ونفخة حتى ليخيل للناظر إليه أنه سلطان زمانه . ومع ذلك إحتفى أهل الحى بهذا الأنور الوجدى . وكان بينهم عجوز مسكين فى السبعين من عمره ، ظن أن تحت القبة شيخاً ، أو أن تحت الأكمة أسداً ، فتقدم

إلى الزائر مستعطفاً سائلا أن يعيطه إنما أعطاه الله . فما كان منه إلا أن نهره وزجره . بل صفعه على وجهه فى قسوة وغلظة .. صفع رجلاً فى سن أبيه ، بل فى سن جده ... قائلا : « إبعد يا راجل ياقليل الذوق ، وسخت بدلتى .. إيه التوحش والهمجية دى ! »

* * *

وفى العدد التالى « مارس ١٩٥٢ » فوجئت بحذف إسم المدير الفنى من المجلة ، وما كدت أقلب صفحاتها حتى قرأت بضعة سطور تحت عنوان « تحذير » جاء فيها :

« تعلن روايات الأسبوع أنه ليس لها مندوبون يتكلمون باسمها فى الأوساط الفنية وغير الفنية . وكل رغبة فى نشر أى خبر أو رأى أو إعلان إنما يكون بالاتصال الشخصى والمباشر بصاحب المجلة ورئيس تحريرها المسئول » .

الله أكبر ! لقد ظهر الحق وزهق الباطل. ووقع توفيق الشمالى فيما حذرته منه. فقد بدا واضحاً أن المدير الفنى قد ورطه فى مآزق غير مشرفة ، فتخلص منه ونشر هذا التحذير للضحايا .

* * *

وفى العدد التالى « أبريل ١٩٥٢ » بدا صاحب روايات الأسبوع أكثر عصبية وغضباً ، لأن المدير الفنى لم يتراجع عن ابتزاز الأموال باسم المجلة ... ولكن لحسابه الخاص . فنشر توفيق الشمالى التحذير السابق بمزيد من التفصيل . ثم وجه إلى القراء

والفنانين تحذيراً صريحاً ممن كان بالأمس مديراً فنياً . وذكر اسمه صراحة ، وزاده وضوحاً فذكر وظيفته الحقيقية وهى « كاتب البطاقات فى قسم باب الشعرية » وأكد أنه لم تعد له أية علاقة بالمجلة فى أى باب من أبواب تحريرها أو إعلاناتها . وأكد أن المجلة تتبرأ « مما كان يدسه عليها المغرضون من أنباء غير صحيحة ومن نقد مشوب بالاغراض ، غير منزه عن الهوى » .

* * *

بدأت أتألم للموقف العصيب الذى يواجهه الشمالى . وزال من نفسى كل أثر للشماتة التى أحسست بها فى الشهر السابق . وعز علىّ أن تحتضر المجلة التى أحببتها وساهمت بمجهود شاق فى إنجاحها . وتمنيت أن أعود إليها لأصلح ما أفسده المدير الفنى المزعوم . لكن نفسى لم تطاوعنى على إتخاذ خطوة عملية ، بعد الطريقة المهينة التى استبعدنى بها من المجلة . وتوقعت أن تجىء الخطوة التالية من صاحب المجلة ليرد لى اعتبارى .

لم أكن قد انقطعت عن مجلة البعكوكة خلال فترة عملى بروايات الأسبوع ، فعدت أركز فيها جهودى بالرسم الكاريكاتيرى . والواقع أن من أهم الخطوط الرئيسية فى سياستى العملية ألا أعتمد على مصدر واحد للرزق ، طالما كانت طاقتى الإنتاجية تسمح بالجمع بين عملين أو ثلاثة . وذلك حتى لا أركز أملى فى مصدر واحد فيتحطم مع نضوب هذا النبع ، كما حدث فى روايات الأسبوع .

ولولا احتفاظى بمكانى فى البعكوكة لـكانت صدمتى أشد وأقسى .

عود إلى روايات الأسبوع :

فوجئت برسالة من توفيق الشمالى تصلنى بالبريد ، معنونة بتاريخ ٩ أبريل ١٩٥٢ . كانت رسالة رقيقة ضمدت جراح كبريائى، وأعادت الثقة إلى نفسى بعد أن خيل لى أنى فشلت فى مهمتى ، وما زلت محتفظاً بهذه الرسالة الغالية فى صندوق ذكرياتى وأرجو ألا أثقل كثير على القارىء إذا نقلت هنا بعض عباراتها حرفياً . تقول الرسالة :

أخى الكريم صبحى

تحية وشوقاً وسلاماً حاراً .. وبعد . فلعلك فى ذهول ودهشة مما حدث . . تماماً كذهولى ودهشتى مما حدث بين الصديقين ، بل الشقيقين . فلقيت نفسى مسوقاً أمام فتى غرير طائش لاخير فيه ولا أمان له . على أمل فى سراب خادع ماكر . إنى آسف كل الأسف لما وقع .. ولكن أحب أن تعلم أن ماحدث سيزيد ما بينى وبينك من اخوة ان تنتزع .. وكل مايحز فى نفسى أنه قد خدعنى سراب فتى رقيع وتكلفت مالا كثيراً دون فائدة .. إلى جانب ألف قارىء خسرتهم من جراء هذا الكلام الفارغ الذى كان ينشره .

إنى آسف جداً لما وقع ، وأرجو أن تقبل عذر أخيك الأكبر عما وقع منه . ولم يكن له فيه أى ذنب إلا انخداعه وراء المرائين الكذابين الأدعياء . إن روايات الأسبوع ستظل مجلتك ، شئت أم لم تشأ . فأخوة الأشقاء خير شفيع لرأب الصدع ولم الشمل ، ودمت لأخيك

المخلص

توفيق الشمالى

* * *

أمام هذه الكلمات الرقيقة المعتذرة ، تبخر من رأسى كل أثر للجفاء ، بل وتلاشت من نفسى كل رغبة فى مجرد العتاب . والواقع أن توفيق الشمالى كان إنساناً نظيفاً شريفاً ، مهذباً رقيقاً ، ومسالماً طيباً ، لدرجة تجعل من السهل خداعه والتغرير به . ومهما كانت الأسباب التى جعلته يتخلى عنى ، فإنى أعتقد أنه كان ضحية لعملية نصب أغرته بتغيير طابع مجلته حتى يجنى ربحاً أكثر ، وهذا من حقه ما دمت أنا قد رفضت أن أتمشى مع سياسته .

ومهما كان هذا التصرف الذى آلمنى ، فإننى لا أستطيع أن أنكر فضل هذا الرجل على مستقبلى الصحفى والأدبى . ولو أنه لم يعلمنى شيئاً . . . خاصة فى الأدب أو الرسم أو الترجمة ، لأنه لم يكن مختصاً فى أحدها . إلا أنه أتاح لى فرصة عريضة للتجربة والممارسة ، ومنحنى التشجيع والثقة الغالية مما جعلنى أتقدم بسرعة . وحملنى مسئوليات جسيمة أرغمتنى على الاستزادة من العلم . فعندما عهد إلىَّ بتصحيح مواد المجلة لغوياً ، خشيت أن أتعرض

لخطأ يخجلنى أمامه ، وحتى أكون فى مستوى المسئولية ، شرعت أعيد دراسة كتب النحو والإعراب حتى لا يفلت منى خطأ يجعلنى غير جدير بثقته .

قد يقال إنه كان يستفيد بالتخلص من أعبائه ووضعها على كاهلى ، لكنى كنت أيضاً أجرب وأتعلم وأتمرن فى ماله . وكان من الممكن أن يخسر مجلته إذا أسأت التصرف ، كما حدث عندما خدعه ذلك النصاب الفنى !

أول مرتب :

فى أول زياراته لى بعد الصلح، راح يحدثنى بلباقة عن المجهود الشاق الذى أبذله فى مجلته ، وعن تقديره لخدماتى التى يخجله أنه عاجز عن تقديرها مادياً ، لأن المجلة تكاد تغطى مصاريفها ! ثم أخرج من جيبه — على استحياء — مظروفاً مغلقاً وناوله لى متمتماً بعبارات الإعتذار ، لأن محتويات المظروف لا تتفق مع كفاءتى وجهودى. وأفهمنى أن هذا المبلغ سيصلنى كل شهر لتغطية المصروفات النثرية التى أتكبدها من جيبى الخاص فى سبيل المجلة ، من ورق كتابة وورق رسم وحبر وطوابع بريد للرسائل الشخصية للقراء ، واشتراك التليفون الذى وضع رقمه فى المجلة أمام سكرتير التحرير ، إلى آخر هذه المصروفات المزعومة التى لم تكن تكلفنى فى الواقع

أكثر من خمسين قرشاً . أما عن التليفون فلم تكن أعمال روايات الأسبوع تستهلك إلا المكالمات الفائضة . لأن مكالماتى الشخصية كانت قليلة جداً .

لم تكن الجنيهات الخمسة فى الواقع شيئاً هيناً بالنسبة لميزانيتى الهزيلة . كذلك كانت أول أجر ثابت أحصل عليه حتى ذلك الحين . ولأول مرة أحس بالاطمئنان لدخل مضمون ، مما جعلنى أشرك المحيطين بى فى إيرادى المتواضع . فقد كنا جميعاً نعانى من الأزمة المالية الطاحنة .

كنت أعطى أمى خمسين قرشاً ، ولأخى مثلها . وكان لا يزال طالباً فى كلية الطب . ولم يكن هذا المبلغ التافه هيناً بالنسبة لميزانيته، فقد كان يشكل خمسين فى المائة من مصروفه الشهرى . كذلك أعفيته من الاشتراك التليفونى الذى كنا ندفعه مناصفة من مصروفنا الشخصى . وكنت أعطى نعمات أيضاً خمسين قرشاً ، فكانت هذه القروش الضئيلة هى أول مبلغ أعبر به عن امتنانى لجمائلها . وكانت تتقاضى من أبى مصروفاً مساوياً لنا ، ولا أقول أجراً ، لأنها كانت تستطيع أن تحصل على أضعاف هذا المبلغ إذا شاءت ، لكنها كانت تعتبر نفسها فرداً فى الأسرة تشاركنا السراء والضراء .

بقى أن يستفيد والدى من إيرادى الجديد ، لكنى كنت أعلم أن كبرياءه ستمنع يده من أن تمتد لمثل هذا المبلغ التافه ، فاكتفيت بأن تنازلت عن مصروفى الشهرى . وبحسبة بسيطة يتضح أن

إيرادى لم يزد مليما واحداً عن مصروفى الشهرى قبل أن أتقاضى مرتب سكرتير التحرير !!

لكننى كنت سعيداً بوضعى الجديد ، وبأهميتى فى محيط العائلة ، حتى أصبح فى استطاعتى أن أطلب فنجاناً من القهوة مثلما يفعل أبى ، دون أن أتعرض لأحد التعبيرات القاسية التى اعتادت أمى أن تصفعنى بها عندما تطمح نفسى لشىء من الرفاهية كفنجان من القهوة أو كوب من الليمونادة ، أو أوقية بسطرمة !

أما والدى فكان أميناً لمبادئه ، وفياً لعهده الذى سبق أن نادى به عندما واجهنى بقوله « عندما تكسب قرشاً تستطيع أن أن تبدى رأيك فى البيت » فما بالك وأنا أكسب خمسمائة قرش كاملة ! الواقع أنه بدأ يعاملنى كرجل ، ولم يعد يصطدم بى كثيراً ، بل كان يلاطفنى أحياناً ، مما عاد بذاكرتى إلى عهد صباى ، أيام كنت تلميذاً متفوقاً يبشر بمستقبل كبير .

الخروج من القمقم :

كانت عودتى إلى روايات الأسبوع بمثابة الإنطلاق من القمقم ؛ ومن جدران سجنى الأربعة . واندمجت فى حياة اجتماعية جديدة مليئة بالنشاط والمرح ، والصداقات المتعددة على مختلف المستويات . منهم الأدباء والفنانون والصحفيون ، وعمال المطابع ، والطلبة . وبدأ العنصر النسائى يدخل فى حياتى فينعش حرمانى الطويل .

كان جرس التليفون لا يهدأ ، أحياناً فى مكالمات جادة خاصة بالعمل ، وأحياناً للرد على المعجبين والمعجبات . حيث تنسكب فى أذنى عبارات الثناء والأطراء . ولم تكن كلها بالطبع خالصة من القلب . فهذا أديب ناشىء يريد أن يعرض علىّ إنتاجه ، وذاك تلميذ يسألنى عن الفكاهة التى أرسلها للمجلة ولماذا لم تنشر ، وتلك آنسة تعرض مشكلتها وتريد النصيحة . وبالطبع كان أصحاب الحاجات يمهدون لطلباتهم بكلمات رقيقة تفتح لهم الأبواب المغلقة . وكان بعضهم يطلب مقابلتى ، فأحاول أن أعتذر لضيق وقتى ، ولو أنى كنت فى الواقع أجد حرجاً كبيراً من مقابلتهم فى وضعى الأفقى . وكنت أوثر أن أدعهم يتخيلوننى فى الصورة التى ترضيهم . لكنى لا ألبث أن أرضخ لإلحاحهم . بعد مقدمة أفهمهم فيها أنى متوعك قليلا ، وسأضطر إلى مقابلتهم فى حجرة نومى .

كذلك كان قراء باب «بريد المفتى» يلحون فى طلب صورتى. فكنت أعتذر لهم فى المجلة بأسلوب مرح أفلت به من طلباتهم . ولاحظ توفيق الشمالى أنى لا أستجيب لرغبات القراء ، وشجعنى على أن أبعث إليهم بصورتى لتوطيد الروابط بينى وبينهم . فاقتنعت برأيه ، لكنى تساءلت « هل أبعث إليهم صورتى وأنا راقد فى الفراش ؟ » وسرعان ما رفضت الفكرة فهى إما أن تثير الشفقة فى نفوسهم أو تصدم خيالهم . فلا شك أنه لم يخطر لهم أن يكون نجمهم المفضل فى مثل هذا الوضع المستكين .

كذلك لم تكن لدى صورة نصفية حديثة . ولا يعقل أن أرسل المعجبين صورتى فى سن الرابعة عشرة . ولم يكن فى استطاعتى أن أنتقل إلى أحد الأستوديوهات ليلتقط لى صورة حديثة واضحة. وأخيراً تمكن زميل صحفى من إقناع مصور محترف بأن ينقل أنواره الكشافة إلى بيتى مع آلة التصوير الضخمة .

لكن بقيت هناك مشكلة أخرى . فكيف كان يلتقط صورتى دون ثياب معقولة . فقد كان عهدى بآخر بذلة وقميص وربطة عنق وحذاء قد مضى منذ عشر سنوات . وأخيراً استعرت ثياباً من أخى ، وبمجهود شاق استطاعوا أن يحشرونى فى القميص والسترة ، ثم طوقوا رقبتى برباط العنق ، وأجلسونى على الكرسى المتحرك . وكان نصفى الأسفل مازال مرتدياً سراويل « البيجاما » أما قدماى فظلتا حافيتين .

كان المصور بارعاً، فاستطاع أن يلتقط من هذا المنظر المضحك صورة جيدة ، توحى أن صاحبها عريق فى الأناقة والهندام . وكانت هذه الصورة — وهى معلقة فوق سريرى الآن — أول وآخر صورة بالبذلة خلال ربع القرن الأخير ، ولما كان عمرى خمسة وعشرين عاماً حينذاك ، فقد جاءت الصورة نابضة بالحياة تفيض بالحيوية . وبدت على ثغرى بسمة متفائلة مشرقة . ولحسن الحظ أنى عثرت على مصور متواضع فى بولاق كان يطبع لى خمسين صورة « كارت بوستال » بخمسين قرشا . وهكذا

استطعت أن ألبى طلبات المعجبين والمعجبات . . كأى نجم سينمائى محترم ! ولاشك أن هذه الذخيرة الضخمة من الأصدقاء كانت تسعدنى كثيراً بعد ذلك الخواء الموحش. وإلا ماضحيت فى سبيلها بأنصاف الجنيهات وأنا أحوج ما أكون إليها .

صورة ندمت عليها :

كان ذلك فى أكتوبر ١٩٥٢ ، أى بعد قيام ثورتنا المباركة بشهور، حين بدأت أمريكا تتودد إلى الثوار المصريين، حتى تكسبهم فى صف معسكرها ، وكانت قد بدأت فعلا فى مشروع النقطة الرابعة ، الذى ابتكره ترومان لمساعدة الدول المحبة للسلام ، على حد وعوده البراقة الخادعة . وكان الرأى العام فى مصر يميل إلى افتراض حسن النية ، فقد كان « العم سام » مازال يلبس ثياب الحمل الوديع المحب للسلام لوجه الصداقة والإنسانية . وساعد على تصفية الجو حينذاك تعيين السفير الأمريكى جيفرسون كافرى فى مصر. وكان فى الواقع نموذجاً لما يسمونه «الجنتلمان». فقد كان يحترم مشاعر المصريين، ويهتم بحضارتهم القديمة والحديثة. ولعل تصرفاته المهذبة الودية تلك كانت جزءاً من عمله كدبلوماسى محترف .

وذات يوم طلب منى توفيق الشمالى أن أرسم صورة كاريكاتيرية لتحية السفير الأمريكى صديق المصريين، ليلحقها بمقال بقلمه عن النقطة الرابعة. وكنت قد قرأت أن جيفرسون كافرى

له هواية أثيرة ، وهى الاحتفاظ بمجموعة لصوره الكاريكاتورية ، التى رسمت له فى مختلف بلاد العالم التى مثل بلده فيها . ونشرت إحدى المجلات تحقيقاً عن تلك الهواية مع بعض الرسوم التى اختلف فيها الطابع والأسلوب باختلاف الرسامين وجنسياتهم . وخطر لى أن أمثل بلدى فى هذه المجموعة بين رسامى العالم . لكنى لم أشأ أن أقدمها إليه حتى لا أبدو متطفلاً ، أو متملقاً ، أو أقل من المستويات التى يحتفظ بها . فلما كلفنى صاحب المجلة برسم صورة موضوعية للمقال الذى كتبه ، وجدتها فرصة لتجربة موهبتى فى الرسم بين منافسين عالميين. ولا أدعى أن توفيق الشمالى ارغمنى على رسم الصورة ، فقد كان فى إمكانى أن امتنع عن تنفيذ أى طلب لا يتفق مع رغبتى ومبادئى ؛ كما حدث فى موضوع المدير الفنى .

رسمت السفير على هيئة حمامة السلام يحمل فى ساقيه غصن الزيتون ، وكان يحلق بجناحين مبسوطين فى الهـــواء متجهاً نحو الأهرام التى ترمز لمصر . ومن خلفه بعض السحب التى يبرز من ورائها تمثال الحرية . وكان واضحاً أن الصورة ترمز إلى الدور الذى يلعبه السفير فى توطيد عرى الصداقة والسلام بين البلدين .

كان أملى ضعيفاً فى أن تلفت الصورة نظر السفير الذواقة للفن العالمى . ولكن ما كاد العدد يصدر فى السوق ، حتى جاءتنى مكالمة تليفونية من السفارة الأمريكية . وبعد أن شكرنى المتحدث باسم

السفير ، أبلغنى رجاءه فى أن يحتفظ بأصل الصورة المنشورة . لكن الأصل كان قد تلوث وتمزق بين أيدى عمال الزنكوغراف ، لأنى لم أكن حريصاً على الاحتفاظ به . فوعدت محدثى بأن أرسم للسفير نسخة أخرى من نفس الصورة .

وبعد يومين حمل أخى الصورة الجديدة إلى السفارة . وفى نفس اليوم وصلتنى مع أحد موظفى السفارة ، رسالة رقيقة بخط السفير ، يشكرنى فيها ، ويحدثنى عن هوايته لجمع صور الكاريكاتيرية ، ويؤكد سعادته بضم رسمى إلى مجموعته العالمية .

الواقع أنى سعدت يومها لاجتيازى هذا الاختبار الذى عقدته لنفسى ، ولم أكن أبغى من ورائه أى نفع مادى ، وهذا ماحدث فعلا . لكنى اليوم نادم على تلك المحاولة التى تورطت فيها بسلامة نية . قبل أن تنكشف الألاعيب الأمريكية المستترة وراء الكرم المغرض . ومهما قيل فى اختلاف الشخصيات الأمريكية فإنهم جميعاً يعبرون عن وجهة نظر النظام الرأسمالى البغيض الذى يلقى بالطعم للدول النامية فى شكل مساعدات من فائض إنتاجه . حتى يستدرج هذه الدول المحتاجة إلى شبكته الاستغلالية ، ويملى عليها إرادته .

احتضار روايات الأسبوع :

من عيوب توفيق الشمالى التردد والقلق والتأثر بآراء المحيطين به . لذلك كان يخرج علىّ من وقت لآخر باقتراح جديد . فأرضخ

لرغبته أحياناً إذا كان الاقتراح لايتناول طابع المجلة الأساسى . واستطعت أن أقود المركب بسلام وسط الأعاصير التى تهب عليها من أصدقاء صاحب رأس المال واقتراحاتهم . وماتكاد المجلة تتخذ طابعاً مستقراً يألفه القراء حتى يطلب تغييره ، خاصة الغلاف الذى غيرت تصميمه أربع مرات خلال سنة واحدة . وهذا خطأ بديهى فى فن الصحافة يعرفه أى قارىء عادى ، إذا ماتأمل غلافات المجلات المشهورة التى تظل على طابعها العام عشرات السنين. فما بالك بصحفى كبير ؟ !

وليت التغيير اقتصر على الغلاف رغم خطورته ، فقد جاءنى فى يونية ١٩٥٣ ، أى بعد الصلح بأكثر من عام ، جاءنى يحمل اقتراحاً بتغيير جذرى فى طابع المجلة . فقد أغراه بعض المحيطين به أن يجعل من « روايات الأسبوع » نسخة أخرى من « روايات الجيب » التى كانت من أروج الكتب الروائية فى تاريخ الصحافة المصرية . وكانت مبررات اقتراحه أن القالب الجديد لن يكلفه مصاريف كثيرة ، لأنه سيقتصر على صفحات مرصوصة لاتحتاج إلى كلشيهات أو أبواب مختلفة . وما عليه إلا أن يتناول الرواية من المترجم ويسلمها إلى المطبعة فتخرج بعد أيام إلى شركة التوزيع دون أى مجهود . فإذا مالاقت رواج « روايات الجيب » فكأنه بذلك ضرب عصفورين بحجر واحد . وبديهى أن حجر التكاليف سيصيبنى ليوفر له الجنيهات الخمسة التى كان يدفعها لى !

دهشت للفكرة الطائشة بقدر ما أسفت لفقد عملى . كنت أعرف أن كل مايدفعه من قروش ، لن يصل إلى أجر المترجم فى رواية واحدة . وصارحته بدهشتى ، فكانت إجابته ابتسامة مطمئنة أردفها بكلمات واثقة فهمت منها أن الأستاذ عمر عبدالعزيز والأستاذ شفيق أسعد فريد وهما قطبا الترجمة اللذان قامت على أكتافهما روايات الجيب ، فهمت أنهما صديقان حميمان له وزميلان بجريدة الأهرام ، وسوف يمولانه بالروايات المترجمة على سبيل المجاملة . كذلك أضاف إلى هيئة المترجمين المجانيين زوج أخته الأستاذ الفونس صبرى . وكان قد ترجم بعض الروايات القصيرة عن الفرنسية .

وإذا سلمنا بسذاجة أنه قد يستغل زوج أخته مجاناً فى عمل دائم ، فليس من المعقول أن يرضى بهذا الوضع أقطاب الترجمة المحترفون. ولم أكتمه ظنونى ومخاوفى ، فأجاب ببساطة بأنه فى حالة رواج المجلة يستطيع أن يرضيهم بأجر رمزى لايزيد عن خمسة جنيهات للرواية !

ضحكت فى كآبة عند سماع رقم خمسة . يبدو أنى أفسدت عليه ملكة تقدير الرجال ، عندما قبلت مثل هذا المبلغ نظير قيامى بعمل أربعة رجال : سكرتير التحرير ، والرسام ، والقصاص ، والمصحح لغوياً ومطبعياً . لكننى كنت هاوياً أو مبتدئاً ، أما المترجمون المحترفون ، فلا يمكن أن يسخروا أقلامهم فى سبيل الصداقة والزمالة.

تحققت مخاوفى ، فقد صدر من المجلة الروائية ثلاثة أعداد فقط تحوى الروايات المجانية . ثم أحس توفيق الشمالى أنه أسرف فى تفاؤله وتورط مع القراء بعد أن وعدهم بالطابع الروائى. فلجأ إلىّ يستحثنى على الترجمة . وأحضر لى نصين باللغة الإنجليزية لروايتين بطلهما شرلوك هولمز. ولم يكن مؤلف هذه الحلقات هو آرثر كونان دويل الذى ابتكر شخصية شرلوك هولمز ، لكنها كانت حلقات جديدة من تأليف ابنه أدريان كونان دويل ، وكاتب آخر إسمه جون ديكسون كار .

رغم الهزات العنيفة التى أوقعنى فيها توفيق الشمالى ، فقد كنت مرناً عملياً ، فلم أرفض التعاون معه ، لكننى واجهته بأسلوب مادى لأول مرة ، وسألته . « كم تدفع ؟ » . فقد خشيت أن أبذل جهداً فى الترجمة ، وما أكاد انتهى منها حتى يكون قد عدل عن طابع الروايات فيبور إنتاجى ، ولا أجد مكاناً آخر لنشر هذا اللون من الروايات الطويلة ، وبذلك أخسر المكسب الأدبى الذى كان يعوضنى عن الماديات . ولم أكتف بالوعود الشفوية ، فطالبته بكتابة عقد يضمن حقوق المادية ، فوافق وحررنا العقد ، الذى حدد أجرى بخمسة جنيهات لترجمة الرواية !!

كانت كل رواية فى حدود خمس وثلاثين صفحة . وبدت لى السبعون صفحة كأنها جبل علىّ أن أنقله بالملعقة ! فقد كانت كل حصيلتى من الترجمة هى قصة واحدة قصيرة ، لاتزيد على خمس

صفحات ، استخرجت حوالى ربع كلماتها من القاموس ! لكنى واجهت الأمر بحزم . وقررت أن أصمد فى ميدان التحدى أمام توفيق الشمالى ، لأثبت له جدارتى بالبقاء فى المجلة على أى وضع . فقد كانت هى الباب الوحيد الذى أنفذ منه إلى الحياة ، وإذا احتجبت فسأعود مخذولا إلى قوقعتى . . إلى أن أجد منفذاً جديداً أتسلل منه . وما أقل المنافذ بالنسبة لإنسان مقيد فى أصغر زنزانة غير مرئية فى حجم جلده . ورغم أنى كنت أطرق كل باب بإصرار فقد كان أصحاب الأعمال لا يثقون فى كفاءتى داخل القيود ، وكأن مرضى كان بمثابة صحيفة السوابق التى تفرش أمامى أزمات الثقة.

لذلك كنت متمسكاً بتوفيق الشمالى رغم كل شىء ، فقلما تجود ظروف بمثله ليمنحنى ثقته مضطراً تحت ضغط ظروفه هو . ولذلك كان على أن أستميت فى ميدان الترجمة مهما كلفنى الأمر من مشقة ووقت . واعتبرت نفسى تلميذاً ، عليه أن يستذكر هذه الصفحات السبعين فى وقت معين ، وعليه أن ينجح حتى لا يطرد من المدرسة. وليست أمامه فرص مواتية فى مدارس أخرى .

خصصت كراسة أرصد فيها الكلمات الصعبة تباعاً ، واستذكرها يوماً بيوم . حتى إذا ماصادفتنى فى اليوم التالى لا ألجأ إلى القاموس لأنها صارت من ممتلكاتى . وبهذه الطريقة كان احتياجى للقاموس يتضاءل شيئاً فشيئاً .

وفى بحر شهر كنت قد أنجزت الروايتين ، ترجمة حرفية ، ثم

أعدت صياغتهما بأسلوبي الخاص . وعندئذ فقط شعرت بأني فتحت مجالاً جديداً للرزق يمكنني أن أمارسه في مخدعي . واتصلت بتوفيق الشمالي أبشره بمولد مترجم متواضع يقنع بالقليل . وإذا بالسماعة تهتز في يدي وأنا أسمع واحداً من أسوأ الأخبار التي زلزلت حياتي .

نعى إليّ أملي الباقي ببساطة المستغني ، فقد قرر أن تحتجب روايات الأسبوع نهائياً . حاولت أن أثنيه عن عزمه ، واقترحت أن نحقن الأمل المحتضر بالمقويات ، ونعيد إليه الحياة ، لكنه للأسف كان قد أخمد أنفاسه إلى الأبد .

* * *

اصدار مجلة قصتى

لم تنطفىء جذوة حماسى بموت « روايات الأسبوع » فقد خرجت منها بخبرة واسعة تتيح لى أن أصدر مجلة كاملة بمفردى ، وذلك من الناحية الفنية . أما الناحية المالية والإدارية ، فلم أكن قد مارستها عملياً . لكننى كنت أعرف تجار الورق ، وأعرف أكثر من ورشة للزنكوغراف. وأكثر من مطبعة ، لأن صلتى كانت مباشرة مع أصحاب المطابع نظراً لقيامى بالتصحيح وتنسيق الصفحات .

وكنت أعرف أسماء شركات التوزيع فى مصر والبلاد العربية ، إلا أنه لم تكن لى صلة بأصحابها .

إذن . . . لماذا لا أصدر مجلة جديدة ؟ !

سؤال منطقى طالما دار بذهنى ، حتى أثناء عملى فى روايات الأسبوع . لكن الإجابة عليه كانت تصطدم دائماً بعقبة واحدة ..

رأس المال . كانت أفكارى فى البداية لاتخرج عن حدود رأسى، ثم ارتفع صوت مشروعى لأعرضه على أبى . الذى صاح باستخفاف

— روح ياشيخ . . بلا شغل عيال . . كان غيرك أشطر . .

كانت طبيعته المتشائمة تطمس الحقائق التى رآها بعينىّ رأسه. فهو يعرف أنى أقوم بأعباء روايات الأسبوع كلها ، ولا يرى منها صاحبها إلا نسخاً كاملة قبل صدورها بيومين ، فيرفع السماعة ليدفع لى أتعابى رصيداً من كلمات الإعجاب والشكر . وكم كان والدى يحرضنى ضده زاعماً أنه يستغلنى . لكن عندما عرضت على والدى أن يكون هو صاحب رأس المال المستغل غلبته النزعة التشاؤمية التى قضت عليه من قبل كمقاول معمارى . رغم مهارته الفائقة فى شئون مهنته .

الممول المنقذ :

استنجدت بزوج أختى « عبد الملاك » حتى يقنع والدى بأن يساعدنى فى المشروع ، وكان بديهياً أن أقنع الوسيط أولاً حتى يتزود بحجج قوية يقنع بها والدى . كان زوج أختى مكافحاً طموحاً ، جريئاً فى تنفيذ أفكاره التجارية . وكثيراً ما خاض مشروعات كبيرة طالما كان مقتنعاً بها . فكان أحياناً ينشىء شركة مقاولات لرصف الطرق ، وأحياناً ينشىء شركة توريد واستيراد ، ثم افتتح ورشة نجارة ضخمة استورد لها آلات حديثة من الخارج،

ثم ضارب فى بورصة القطن، ثم حصل على ليسانس الحقوق، ومارس المحاماة فى مكتبه إلى أن توفاه الله .

هذه العجالة عن شخصية « عبد الملاك » تعطى صورة واضحة لجرأته فى اقتحام أى مشروع يقتنع به . ولم أجد صعوبة فى إقناعه، فقد كان يثق فى كفاءتى الفنية والإدارية ، لكنه طلب منى — بعقلية رجل الأعمال — أن أجرى دراسة كاملة للمشروع من الناحية المالية . . . . مع افتراض أسوأ الظروف ، حتى يمكن تحديد رأس المال المطلوب .

وجدت أنه محق فى طلبه . وحتى تلك اللحظة كنت أظنه مجرد وسيط لإقناع والدى، فإنه لم يشأ أن يصارحنى برغبته فى الاشتراك معى قبل أن يطمئن إلى دراسة المشروع من جميع جوانبه .

بدأت بعمل « ماكيت» نموذج جديد للمجلة المقترحة ، يتحدد فيها طابعها الثابت كمجلة قصصية شهرية فى شكل كتاب . يحوى مائة صفحة من القطع المتوسط . . . لها غلاف من ورق كوشيه لامع . . مطبوعة بثلاثة ألوان . ومعنى ثلاثة ألوان أن ثلاثة «كليشهات» تطبع فوق بعضها أحدها بالأصفر والثانى بالأحمر والثالث بالأزرق . وباختلاط هذه الألوان تخرج صورة الغلاف ناطقة بجميع الألوان .

اتصلت بأكثر من مطبعة لطبع مواد المجلة ، وهى غير المطبعة المختصة بطبع الغلاف الملون . ودرست مع أصحابها ميزانية جمع

الحروف وطبعها، واتصلت بتجار الورق بالتليفون ، وأرسلت من يأتى لى بعينات الورق لمقارنتها واختيار الأصلح . أما ورش الزنكوغراف فكنت أعرفها وأعرف أسعارها بحكم اتصالى المباشر بها فى روايات الأسبوع . بقيت شركات التوزيع فى مصر والخارج، فعرفنى توفيق الشمالى بمديرها ، واتفقنا على الكمية ونسبة الربح التى تتقاضاها الشركة .

وبحسبة بسيطة اتضح أن العدد الواحد ، إذا طبعت منه خمسة آلاف نسخة سوف يتكلف فى المتوسط من ثمانين إلى تسعين جنيها. مع الفرض بأنى لن أدفع أجوز محررين ، واكتفى بدعاية بسيطة فى حدود خمسة جنيهات لكل عدد . . فكرت أن أستغلها إلى أقصى مدى ، فصممت إعلاناً ثابتاً عبارة عن دائرة سوداء قطرها أربعة أو خمسة سنتيميرات بداخلها كلمات بيضاء مركزة مثيرة مشوقة . كانت فكرتى أن تلفت هذه الدائرة السوداء نظر قارىء الجريدة ، ومع تكرار نشرها يحفظ شكلها كعلامة مميزة تذكره بالمجلة .

إلى هنا كنت واثقاً من التنفيذ فى حدود الرقم المقدر . أما الإيرادات فكنت أعرف عنها فكرة عامة ، وهى حصيلة ثمن النسخ الموزعة فى مصر والخارج ، ثم ثمن بيع المرتجعات . . ولها تجار معينون ، يبيعونها بدورهم إلى الباعة المرابطين على سور حديقة الأزبكية ونواصى الشوارع . ومن أبواب الإيرادات ،

بل أهمها . . الإعلانات ، سواء الأهلية أو الحكومية والتى كانت تشكل إيراداً ثابتاً فى روايات الأسبوع .

الواقع أنى لم أكن خبيراً بأبواب الإيرادات جميعها ، فقد كان يتولاها صاحب روايات الأسبوع ، ويعتبرها سراً لا يفشيه. ويراوغ فى ردوده على أسئلتى ، كلما حاولت أن أطمئن على أرقام التوزيع . ولم يكن هناك بد -- والأمر كذلك -- من أن تجىء تقديراتى فى الإيرادات تخمينية .

فرضت أن شركات التوزيع ستبيع نصف الكمية ، والباقى يباع بسعر المرتجعات . وفى هذا الفرض تكون حصيلة البيع حوالى مائة جنيه . أى أنها تغطى المصروفات وتزيد. هذا بخلاف إيراد الإعلانات ، الذى سيعتبر ربحاً خالصاً .

إقتنع «عبدالملاك» بالمشروع ، وعندما عرضه على والدى فاجأه بأنه سيدفع نصف رأس المال كشريك بحق الربع فى الربح والخسارة، على أساس أن يكون النصف لرأس المال كله ، والنصف الآخر لى وحدى نظير الإدارة والتحرير ، ولما كان والدى يثق فى زوج ابنته -- كرجل أعمال ناجح -- فقد جازف بمائة وخمسين جنيها مساهمة منه فى المشروع ، ودفع عبد الملاك مثلها . ورغم أن العدد الأول كان سيتكلف أقل من ثلث رأس المال ، إلا أنه كان علىّ أن ابتدىء فى العدد الثانى بمجرد صدور الأول . . وقبل أن نقبض إيراده . كذلك لم يكن ممكناً أن نبيع مرتجعات المجلة أولاً بأول ،

وإلا أثر على الأعداد الجديدة . لذلك كان لزاماً علينا أن نختزن المرتجعات بضعة شهور قبل بيعها .

عقبات التأسيس :

كنت أعرف أن إصدار مجلة دورية يحتاج إلى رخصة ، وكان عليّ أن أقدم بعض الشهادات الإدارية ، ومنها صحيفة خلو من السوابق . لكن موظف البصمات رفض أن ينتقل إلى منزلى لالتقاط بصماتى، وأصر على أن أذهب بنفسى إلى مكتبه . وكان هذا فى الواقع تعسفاً منه ، فقد سبق أن انتقلت إلى بيتى لجنة من إدارة التجنيد تتضمن طبيباً وضابطاً وموظف البصمات ، حتى يتأكدوا أنى غير صالح للخدمة العسكرية . كذلك انتقل إلا بيتى منذ سنوات قليلة موظف السجل المدنى ، والتقط بصماتى عندما طلبت استخراج بطاقة تحقيق شخصية . وعندما عجزت عن استلام بطاقتى التموينية انتقل مأمور قسم مصر القديمة إلى منزلى ليسلمها لى بنفسه ...

المهم أن سوء الحظ أوقعنا فى ذلك الموظف الجامد التفكير ، فلم يشأ أن يتصرف حسب مقتضيات الظروف . ولم أجد وسيلة لاتمام تلك الإجراءات الإدارية إلا أن أنتقل بعربة الإسعاف إلى الموظف الصغير ، الذى ما كاد يرى العربة ذات الجرس المجلجل حتى تطوع بالخروج ليجنبنى مزيداً من التعب . ولعله

كان يظن أنني أدعي المرض حتى لا أقف في طوابير الزحام .

بعد أن صدرت الرخصة بإسمي ، بقيت مشكلة أخرى كنت أتوقعها ، فإن المجلة الدورية تحتاج إلى رئيس تحرير مسئول ، ورئيس التحرير يجب أن يكون عضواً في نقابة الصحفيين . إذن فالقانون يمنعني من أن أرأس تحرير مجلتي ، وعليّ أن أجد رئيساً صورياً يقبل هذا اللقب الشرفي دون أن يتدخل في التحرير فعلاً .

كان بديهياً أن ألجأ إلى توفيق الشمالي ليقبل هذا المنصب ، خاصة وأنه لن يبذل أي جهد . وأدهشني أنه لم يرحب بهذه الخدمة وتمتم في حرج :

ـ ولكنك تعرف أن هذه مسئولية جسيمة، وإذا ارتكبت أنت أي خطأ سأتعرض أنا للسجن .

قلت مندهشاً :

ـ لكنني كنت أتصرف في مجلتك بوحي من تقديري الشخصي. ولم أعرضك للمسئولية الجنائية .

فأجاب متلطفاً ، وقد أحس بحرج موقفه :

ـ أنا مستعد أن أقبل هذا الوضع على شرط أن أطلع على المواد قبل طبعها وأوافق عليها ، بعد أن أتأكد من عدم خروجها عن قوانين المطبوعات .

فقلت مشفقاً :

— ولكن هذا مجهود شاق ، والرقابة على المطبوعات ستحذف أي شيء قد يشتم منه أى انحراف .

لكنه أصر على رأيه . ولم أجد مانعاً بالطبع ، ولا بأس من أن يقرأ مجلتي مرة واحدة ، فقد كنت أقرأ مجلته خمس مرات . مرة عندما أختار المواد الصالحة للنشر ، وثانية عندما أصححها لغوياً واختصر منها الملل ، وثالثة ورابعة كتجارب للمطبعة ،ثم مرة أخيرة عندما يخرج أول فرخ من آلة الطباعة فيطير به أحد العمال إلى بيتى ، وتقف الآلة حتى أراجع الملزمة ، وأحياناً كنت أملى التصحيح بالتليفون لرئيس المطبعة حتى لا أعطل آلة الطبع .

لم يعترض فى العدد الأول على أية كلمة توقعه تحت طائلة القانون . لكنه — وقبل أن يصدر العدد الثانى — عرض الفكرة على أحد زملائه بالأهرام ، فقبلها على الفور ، خاصة وأنه كان صديقاً لى ، وكان يحرر أحد الأبواب فى مجلة روايات الأسبوع . فوضعت اسمه كرئيس للتحرير إبتداء من العدد الثانى. وكان يثق فى حسن تقديرى الأمور . فلم يصطدم بى مطلقاً طوال صدور المجلة. وكنت عند حسن ظنه ، فلم أتعرض يوماً لأى سؤال أو مساءلة من السلطات ، أو من الرقابة العامة .

ميلاد مجلة قصتى :

فى ٣ يناير ١٩٥٤ صدر العدد الأول من مجلة « قصتى » .

وقد اخترت لها هذا الاسم ليعبر عن المادة الأساسية فيها ، وهى القصة القصيرة .. عربية ومترجمة . كانت القصص المترجمة فى العدد الأول لأنطون تشيكوف ، وجى دى موباسان ، وأندريه موروا وغيرهم . أما المؤلفة فكانت بأقلام الأدباء الناشئين الذين كانوا يعملون معى فى روايات الأسبوع . وكان الطابع المرسوم للمجلة أن تحوى عشر قصص قصيرة ثم مجلة منوعة بالوسط .. كانت تطبع أحياناً بلون خاص وأقوم بتحريرها وحدى . ثم رواية طويلة فى آخرها . وبدأت أول عدد بإحدى روايتى شرلوك هولمز اللتين سبق أن ترجمتهما لتوفيق الشمالى .

لا شك أنى كنت سأستفيد إلى حد كبير من قرائى فى روايات الأسبوع . أقصد قراء الأبواب الثابتة التى تتجاوب مع الجمهور . ولكن كيف يعرفون أن هذه الأبواب قد انتقلت إلى مجلة قصتى؟ لو أن روايات الأسبوع كانت لا تزال تصدر لأمكن بسهولة أن تلفت نظر قرائها . أما وقد احتجبت قبل صدور « قصتى » بعدة شهور ، فقد كان لا بد أن أكتسب قراء جدداً ، أو من تقع قصتى فى طريقه بالمصادفة ، كذلك نشر اسمى فى إعلانات الدعاية لم يكن يجدى كثيراً ، لأنى كنت أحرر تلك الأبواب بدون توقيع أو باسم « المفتى » . ومع هذا فقد وصل عدد رسائل القراء بعد شهور من صدور « قصتى » إلى رقم قياسى لم تصل إليه روايات الأسبوع . فقد بلغ حوالى سبعمائة رسالة فى عدد واحد .

ولما كنت لا أثق فى وعود توفيق الشمالى الشفوية بعد ماقاسيت من تردده ، فقد استكتبته إقراراً بأنه متنازل عن الأبواب الثابتة فى روايات الأسبوع لى بصفتى مبتكرها ومحررها . لكنى لم أكتف بتلك الأبواب القديمة . بل أضفت إليها أبواباً أخرى خفيفة ، مثل باب « من أرشيف المحرر » وكان يكتبه فى كل عدد أحد أدباء المجلة ، فيلخص فيه أحسن ماقرأ فى فقرات متعددة .

كذلك اضطررت أن أضيف إلى المجلة فى صفحتها الأخيرة باب « البخت » رغم أنى لا أؤمن بهذه النبوءات الساذجة . لكن هكذا البشر يتطلعون دائما إلى المستقبل ولو على سبيل التسلية والتفاؤل . وإنى أعترف هنا بأنى كنت أكتب هذه النبوءات بنفسى . ولم أقصد بذلك خداع القارىء ، لأنى كنت أكتبها بطريقة أفضل من الفلكيين المحترفين . وما دمت مؤمناً بأن مانكتبه جميعاً لا تصدق نبوءته إلا بالصدفة ، وأن الهدف منه هو مجرد التفاؤل بالمستقبل ، فقد كنت أضع هذا الهدف أمامى وأنا أكتب هذا الباب . فأضمنه إيحاءات نفسية تحض على التفاؤل والكفاح والقيم الأخلاقية . . فأقول مثلا « لا تتسرع قبل أن تدرس الفكرة التى تجول برأسك ، فإذا اقتنعت بفائدتها نفذها فوراً » . مثل هذه النبوءة يمكن أن تطبق على أى إنسان . فمن منا لا تدور برأسه أفكار ومشاريع .. ؟ مهما كانت تافهة فهى مهمة فى نظر صاحبها . وأحياناً كنت ألجأ إلى استنتاجات منطقية محتملة ، فأقول لمن يقع عيد

ميلاده فى نفس الشهر : « هدية تسعدك فى الطريق إليك » . وفى أشهر الشتاء الباردة أتنبأ باحتمال مرجح فأقول : « حافظ على صحتك . يحتمل أن تصاب بوعكة خفيفة» . وأقصد بها وعكة برد ، وإذا لم يصب بها فإن نبوءتى تعتبر صحيحة أيضاً . لأنى نصحته بالمحافظة على صحته ، فنجا من الوعكة بفضل نصيحتى .

أفكار جديدة :

ومع الوقت والممارسة والتجربة ، كنت أبتكر وسائل جديدة، لخفض المصروفات ، أو زيادة التوزيع على المستوى الواسع أو التوزيع الفردى . ولا أقصد بالتوزيع الفردى بالطبع أن أبيع نسخاً من المجلة بنفسى أو عن طريق الأصدقاء ، فإنى أنفر جداً من هذه الوسائل التى لا تتفق مع الكرامة . . . ومع طبعى فى الخجل من المعاملات المادية . ومن أقسى الطعنات التى يمكن أن توجه إلىّ — حتى الآن — أن أقدم أحد كتبى كهدية لصديق ، فيسألنى بسذاجة عن الثمن !

أما طريقة التوزيع الفردى التى ابتكرتها فى « قصتى » فهى تتلخص فى إعلان بنفس المجلة يحمل عنواناً مثيراً « إقرأ قصتى مجاناً » . وبديهى أن معظم القراء سيقرأون الإعلان للحصول على المجلة مجاناً . وإذا ماقرأوه لن يجدوا فيه خدعة أو تلاعباً بالألفاظ . فقد كنت أعد القارىء بأن أهديه نسخة مجانية إذا وزع أربع

نسخ. والطريقة هى أن يرسل أى قارىء إذن بريد بمبلغ عشرين قرشاً قبل صدور العدد بأيام . فيصله طرد بريد مسجل به خمس نسخ ، يوزع أربعاً منها على أصدقائه أوزملائه بالمدرسة أوالمصنع الخ . وبهذا يجمع العشرين قرشاً التى دفعها ، ثم تتبقى لهنسخةمجاناً.

وبالطبع لن يشك القارىء الموزع فى أننا أكرمناه فعلاً ، لأن المجلة مكتوب عليها ثمنها المحدد وهو خمسة قروش . لكننا كنا فى الواقع نبيعها لشركات التوزيع بسبعين فى المائة من ثمنها حسب العرف المألوف.حقاً إن تلك الطريقة لم تكن تبيع أكثرمن مئات قليلة ، لكنها كانت تسد ركناً فى الميزانية المتواضعة .

أما فكرة زيادة التوزيع العام على مستوى الشركات،فكانت نابعة من ظروف ميزانيتى المحدودة ، التى لم تكن تسمح لى بأن أطبع من كل عدد أكثر من خمسة آلاف نسخة وهىالحد الأدنى الذى تقبله شركات التوزيع الكبرى . ثلاثة آلاف لشركة توزيع الأهرام ، أو الأخبار ، وألفان لشركة توزيع فرج الله . وكانت هى المختصة بالبلاد العربية .

كانت الآلاف الثلاثة تطرح فى ثلاث مناطق . . . ألف نسخة فى الوجه البحرى ، وألف أخرى فى الوجه القبلى . والألفالثالثة فى القاهرة والإسكندرية . ثم تجمع بعد تسعة أيام من السوق . وكانت هذه الكمية لا تكفى لتغطية المناطق الثلاث ، حيث أن بالقاهرة وحدها ثلاثة آلاف بائع . لذلك اقترحت على مدير

التوزيع أن يطرح الثلاثة الآلاف نسخة كلها فى القاهرة والإسكندرية، ثم يجمعها ويطرح المرتجعات كلها فى الوجه القبلى، ثم يجمعها ويعيد طرحها فى الوجه البحرى . وبهذا تكون الكمية المطروحة فى المناطق كلها حوالى ثلاثة أضعاف التوزيع العادى .

لكن قامت عقبتان رغم نجاح الفكرة . أولاهما أن الغلاف يتمزق من كثرة التداول ، وثانيتهما أن المجلة تصل متأخرة إلى المنطقة التالية . أما الغلاف ، فأمكن التغلب على ضعفه باستعمال ورق سميك «بريستول» بدلاً من «الكوشيه» . أما عقبة التأخير فكان أمامى أحد حلين ، إما أن تجمع المجلة بسرعة من السوق كالمجلة الأسبوعية فى بحر ثلاثة أيام ، وإما أن أطوّر المجلة إلى كتاب قصصى ليس له تاريخ ، بحيث يحتفظ بجدته فى أى وقت ، بل ويمكن عرض مرتجعاته النظيفة فى المكتبات ، فتباع بنفس الثمن بدلاً من بيعها بقرش واحد على سور الأزبكية .

آثرت الحل الأول حتى لا تفقد المجلة أبوابها الشعبية الخفيفة التى تربط القارىء بها . لكنى اختزنت فكرة الكتاب إلى فرصة أخرى حينما أصدرت سلسلة كتب قصصية باسم « روائع القصص العالمى » وسأتكلم عنها فيما بعد .

كانت شركة فرج الله توزع نسبة عالية فى البلاد العربية .. لكنها كانت لا ترد المرتجعات لصاحب المجلة حتى لا تتكلف أجر إعادتها بالطائرة . وكانت تكتفى بإعادة الأغلفة وحدها لتثبت بها

عدد النسخ غير المباعة . ولما سألت المدير عن تكاليف إعادة النسخ المرتجعة ، علمت أن النسخة الواحدة تتكلف مليمين ، فطلبت من الشركة إعادة المرتجعات لحسابى ، وتكفلت بمصاريف شحنها لسبب بسيط ، فقد كنت أبيع النسخة المرتجعة فى القاهرة بسبعة مليمات .

وفى سبيل ضغط المصروفات ، ابتكرت طريقة لاختصار تكاليف الغلاف ، وكانت تستهلك رقماً كبيراً من الميزانية ، فإن كليشيهات الألوان تتكلف كثيراً ، وكانت المجلة تحتاج إلى ستة كليشيهات فى كل عدد لوجهى الغلاف . فصممت غلافاً زخرفياً ثابتاً .. ذا طابع مميز ، وبداخله فراغ صغير لصورة متغيرة فى كل عدد تطبع بلون واحد . وبذلك وفرت خمسة أسداس كليشيهات الغلاف . ومع ذلك ظل الغلاف يظهر بثلاثة ألوان كما كان . ولم يكن القارىء يلحظ تكرار الكليشيهات الثابتة فقد كنت أقلب أوضاعها وأخلط ألوانها بحيث تبدو جديدة فى كل عدد .

أما مصاريف طبع الألوان فقد اختصرتها إلى الربع . فقد لاحظت أن صاحب المطبعة يحاسبنى بالدورة ، أى أنه كلما دارت الآلة ألف مرة أدفع مبلغاً معيناً . ولم أكن أعرف شكل تلك الآلات .. ولازلت . لأنى لم أدخل مطبعة طوال حياتى . وسألت صاحب المطبعة عن أكبر مساحة يمكن للآلة أن تطبعها فى الدورة الواحدة . وأدهشنى أن أعرف أنه من الممكن للآلة أن تطبع فرخ الورق كاملا ، وفرخ الورق هذا يساوى أربعة

أمثال غلاف المجلة . وهكذا كنت أطبع أربعة أغلفة مرة واحدة بنفس تكاليف الغلاف الواحد .

شبكة مندوبين .

كان لا بد لى وأنا راقد فى فراشى أن أراقب توزيع المجلة . وأطمئن إلى وصولها لكل مكان . فقد كنت ألاحظ إهمال بعض المتعهدين حتى مع المجلات الكبرى التى لا تصل إلى الحى الذى أعيش فيه . ورأيت أن أنشىء شبكة من المندوبين فى كل مكان لتراقب التوزيع ، وتنقل إلىّ رأى الجمهور ورغباته ، وتجلب الاعلانات نظير نسبة معينة من قيمتها .

ومنذ البداية كنت أنشر فى كل عدد إعلاناً صغيراً أطلب فيه مندوبين بلا شروط ، وما تكاد تصلنى رغبات الانضمام حتى أسارع بإرسال ملصقات الدعاية والمطبوعات إليهم ، ومعها بطاقات فاخرة مغلفة بالمشمع وعليها صورة المندوب مختومة بخاتم المجلة ؛ وموقعة بإمضاء مدير التحرير .

كانت هذه البطاقة تكلفنى بسعر الجملة قرشاً ونصف قرش فقط . لكن تأثيرها السحرى على حامليها كان رائعاً ، ومعظمهم من الطلبة والشبان . فكانوا يتفانون لاثبات جدارتهم بمنصبهم الخطير ! بل إن بعضهم كان يطبع بطاقات شخصية ، ويكتب تحت اسمه « مندوب مجلة قصتى » . وكنت أحتفظ عندى بأرشيف كبير يحوى نسخة من صورة المندوب الموضوعة على بطاقته ،

ومعها معلومات كافية عنه تيسر إتصالى به فى الوقت المناسب .
حقاً إنى لم استفد مادياً من شبكة المندوبين تلك ، لكن جهودها كانت فعالة فى الدعاية ومراقبة التوزيع وجمع الاشتراكات .

الاعمال الخارجية :

رغم أنى كنت أنجز أعمالى بالتليفون مع الجهات التى أتعامل معها ، إلا أنى كنت محتاجاً ، من وقت لآخر إلى شخص نشيط ينوب عنى فى بعض الأعمال الخارجية . مثل دفع ثمن الورق وإحضار العينات ، واستلام شيكات شركتى التوزيع ، وتصدير الرسائل والطرود ، والقيام بإجراءات الزنكوغراف .. إلى غير هذا من الأعمال الروتينية الخارجية . أما بعد هذا فكان كل شىء يسير فى حلقة متصلة فى منتهى الدقة .

ما أكاد أدفع ثمن الورق ، حتى يقوم التاجر بنقل الكمية المتفق عليها إلى المطبعة ، ويأخذ منها إيصالا بالاستلام يحتفظ به لنفسه . وعندما تنتهى المطبعة من طبع العدد تنقله إلى ورشة التجليد ، وتأخذ إيصالاً ، كذلك تفعل مطبعة الغلاف الملون . وكنت أحرص على أن أطبع كلاً من المجلة والغلاف فى مطبعتين مختلفتين حتى أضمن ألا يخدعنى صاحب كل منهما بطبع كمية إضافية يبيعها لحسابه ، فإن النسخ لا تكتمل إلا فى ورشة التجليد .

وعندما تنتهى ورشة التجليد من مهمتها تتصل بى تليفونياً :

فأتصل بدوري بشركات التوزيع ؛ فترسل سياراتها لاستلام الكميات المحددة ، وتعطي لورشة التجليد إيصالاً بالاستلام . وهذا الايصال الأخير هو الذي احتفظ به لمحاسبة شركة التوزيع بمقتضاه ، إذا حدث خطأ أو خلاف . وهذا مالم يحدث مطلقاً .

كانت حولي مجموعة من الشبان والشابات هواة الأدب وهواة الشهرة ، وكانوا جميعاً يعرضون خدماتهم المجانية من باب الصداقة الخالصة أو التملق الوصولي . لكني كنت أفضل أن أعمل كل صغيرة وكبيرة بنفسي . ولو أن هذا المجهود كان يرهقني كثيراً ، إلا أن تلك الطريقة كانت تضمن سير العمل في نظام دقيق . وإني لأفخر بأن مجلة قصتي لم تتأخر ساعة واحدة طوال فترة صدورها ، ويثبت هذا إيصالات شركات التوزيع التي ما زلت أحتفظ بها .

سكرتيري الخاص :

إثنان فقط كنت أستعين بهما في بعض أعمالي الإدارية . أولهما نعمات بالطبع . فبجانب سهرها على راحتي وتوفير الجو الملائم لساعات عملي ، كانت تساعدني في تغليف طرود المجلات ، وأحياناً تحملها في حقيبة كبيرة لتصدرها من مكتب البريد . لكنها لم تكن تجرؤ حتى ذلك الحين على اقتحام دور الصحف أو شركات التوزيع أو المطابع أو أية جهة أخرى .

أما الذي كان يقوم بهذه الاتصالات الخارجية ، فهو شاب

لطيف نشيط جرىء أرمز إليه بحرف «س» حتى لا أتحرج من الحديث عنه بصراحة قد تؤلمه ، رغم أنه اختفى من حياتى منذ سنوات طويلة . وإذا كنت أملك الصراحة عندما أتحدث عن نفسى ، فإن غيرى قد لا يستسيغها .

كان سكرتيرى «س» شاباً متعطلاً ، يجرى وراء شهواته ومتعته الجسدية ، وكانت وسامته وأناقته وجرأته وخفة روحه تفتح له أبواب المتعة ، خاصةوأنه لم يكن يتعفف عن أى مستوى. وكم ورطنى فى مشاكل من هذا النوع عندما كان يدّعى فى مجتمعاته الخاصة أنه سكرتير تحرير المجلة ! ولم يكن يتورع عن دعوة ضحاياه من الجنس اللطيف إلى إدارة المجلة بحجة أنه سيقابلهن بالمدير ! حتى يجد لهن العمل المناسب . ثم يسرع إلىّ . . ويكاد يلثم يدى حتى لا أفضحه أمام فرائسه ، لكننى كنت أفسد عليه خططه الرخيصة المنافية لأبسط قواعد الإنسانية .

ومع ذلك فقد كان خفيف الظل لبقاً ، يقبل الهزيمة بسهولة ، ويقابل تأنيبى العنيف دون حرج أو خجل. وكثيراً ما كان يبدو مقتنعاً بوجهة نظرى ، حتى ليظهر عليه الشعور بالذنب ، لكن سرعان ما يغفو ضميره ويعاود الإنطلاق فى عبثه ومجونه .

كنت أحتمل نزواته مادامت بعيدة عن مصالح العمل. والواقع أنه كان مخلصاً فى خدمة المجلة دون مقابل ، إلا المصاريف الفعلية مع بعض المبالغ التى أتركها له من وقت لآخر على سبيل الهدية .

لـكننى كنت أدفع له أتعابه فى صورة خدمات أدبية كان لها أبلغ الأثر فى تحديد مستقبله . بحيث تحول من شاب عاطل لا يملك إلا الشهادة الإبتدائية . . إلى صحفى لامع بإحدى المجلات الـكبرى !

بالطبع لم تتم هذه القفزة بجهودى وحدى ، لولا جرأته الفائقة وقدرته البارعة على التمثيل والتضليل . وطموحه المريض إلى مظاهر العظمة نتيجة إحساسه بالنقص والدونية .

كان الرسم هو جواز المرور الذى أتاح له الدخول إلى « قصتى » فى البداية . وقد عمل كرسام للمجلة فى فترات منقطعة ، رغم أنه لم يكن قد وصل فيه إلى مستوى الاحتراف . لـكنه كان يأنف من لقب رسام ، ويطمع فى أن يكون أديباً أو صحفياً برغم ثقافته المحدودة جداً . وكثيراً ما حاولت أن أتمشى مع طموحه ، فأعيره بعض الـكتب الأدبية لتوسيع مداركه ، لـكنه كان يعيدها إلىّ كما هى وهو يهمس فى صراحة :

— بينى وبينك . . أنا لا أهضم هذا النوع من الـكتب .

لقد كان فى الواقع صريحاً معى إلى أبعد الحدود .... ولا يستنـكف من أن يكشف ضعفه أمامى ، ثم يطالبنى بسد ثغرات جهله ونقائصه . والواقع أنى لم أكن أملك إلا أن أحبه وأتطوع لخدمته نظير خدماته وإخلاصه وأمانته . أقول أمانته رغم أن علاقاته بالآخرين لم تـكن فوق مستوى الشبهات ، لـكنه كان معى

إنساناً آخر . لم يختلس قرشاً من عشرات الجنيهات التى استأمنته عليها . كان أحياناً يبدد جزءاً من العهدة أمام إغراء طارىء فى الطريق ، لكنه يعترف لى صراحه بأنه «اقتبس» — على حد تعبيره المرح — مبلغاً معيناً .. ويعد بسداده ، لكنى أنتهزها فرصة لمجاملته مادياً ، فأضرب صفحاً عن المبلغ المقتبس .

وقد كان هذا النموذج من التصرف أفضل — فى اعتقادى — من السرقة الخفية أو العلنية . فقد صادفت سكرتيراً آخر قبل «س» ، عطفت عليه وكنت أمنحه مبلغاً شهرياً يستعين به على ظروفه القاسية ، نظير المهمات الإدارية الخارجية . وهى لاتزيد فى مجموعها عن ساعات قليلة لا تتكرر إلا كل بضعة أيام . وذات يوم أعطيته خمسة جنيهات ليدفع أجر الدعاية الشهرية فى الجرائد ، وكان هذا أول مبلغ أأتمنه عليه . فاختلس الأمانة وهرب . وأبلغت عنه الشرطة دون جدوى ، ثم فوجئت بعد شهرين بصورته فى إحدى الصحف ، بمناسبة الحكم عليه فى قضية تزييف . وعرفت فيما بعد أنه كان مظلوماً فيها . عرفت هذا منه بعد أن قضى مدة العقوبة ، وجاء يطلب منى المغفرة بعد ما نال جزاء خيانته .

نعود إلى سكرتيرى البوهيمى « س » الذى كان يتوسل لى كى أضع إسمه على إحدى قصصى ، حتى يتيه بلقب الأديب بين أقرانه وعشيقاته . وكنت أستجيب فعلا لطلباته مادام هذا التصرف لا يضر بسمعة المجلة ، وكان أخى يساهم فى المجلة بترجمة بعض

القصص ويخصص جزءاً منها لينشر بإسم «س» ، رغم أنه لا يكاد يفقه فى اللغة الإنجليزية غير بضع كلمات لا تزيد كثيراً عن Yes و No و O.K. لكنه كان يستطيع ببساطة وبراعة أن يوهم الآخرين بأنه يجيد الإنجليزية بترديد هذه الكلمات مع هز رأسه والتعبير بملامحه ، متمشياً مع انفعالات المتكلم الذى يظنه مندمجاً معه فى الحديث .

ولم يكتف « س » بالاستيلاء على القصص المؤلفة والمترجمة ، بحيث لا نستطيع أن ندعيها لأنفسنا فيما بعد . بل راح يستعطفنى كى أعطيه قصتين يدخل بهما مسابقة نادى القصة ، فرفضت فى البداية ، لكنى أمام إلحاحه الشديد سمحت له بقصتين قد يمتين لست راضياً عنهما ، معتمداً على أنه لن يميز بين الأدب الجيد والركيك . ودخل بهما المسابقة ، وبالطبع لم يفز بأية جائزة .

لم تتوقف أطماعه حتى بعد احتجاب المجلة ، فبدأ يزحف مع أسرة « قصتى » إلى المجلات الكبرى . واختار دار أخبار اليوم ، حيث كان قد سبقه إليها ثلاثة من أسرة «قصتى» . وكانوا ينتظرونه ويحبونه كصديق ، فلم يحاول أحدهم أن يكشفه ، معتقدين بأنه سينكشف تلقائياً عندما تعجز كفاءته عن مسايرة مستوى أخبار اليوم . لكنه أدهشهم بتحقيقاته الصحفية التى احتلت صفحات كاملة فى آخر ساعة ، ثم فى جريدة الأخبار .

شك بعضهم فى أسلوبى الواضح بين سطوره . لكنى كنت

أنفى هذا الاتهام . والواقع أنى كنت فعلاً - وأقولها الآن لأول مرة - خلف هذه الموضوعات . كنت أقترح عليه مجموعة من الأفكار ، فيعرضها فى الإجتماع الأسبوعى لرئيس التحرير. وعندما يوافق على فكرة معينة ، أرسم له خطوط التنفيذ وأضع الأسئلة ، فيذهب إلى مكان التحقيق ومعه مصور من الدار ، ويصور كل مايقع تحت نظره ، ويأتى إلىّ بالإجابات عن أسئلتى ، بعد أن يجمع كل مايستطيع من معلومات ، التافه منها والمفيد . وفى حجرة نومى أملى عليه الموضوع كاملا . . . فلا يلبث أن يشق طريقه إلى صفحات « آخر ساعة » ممهوراً باسم « س » بالبنط العريض . وينفرد هو بالأجر المادى أيضاً .

قد يكون فى تصرفى هذا شيئاً مما يستوجب اللوم ، لأنى شجعت إنساناً على عمل غير مشروع . لكنى كنت أكيف تصرفى هذا بمنطقى الخاص . فقد كنت أساعد إنساناً ضائعاً ليشق طريقه فى الحياة على أمل أن يستطيع الوقوف وحده مع المران والتجربة، وكنت أيضاً أرد له خدماته المجانية التى بذلها فى مجلة قصتى .

كذلك كنت أجد متعة كبيرة وأنا أفرض إنتاجى على مجلة كبرى من خلف الستار . . بعد أن رفضونى كعضو عامل بينهم بسبب قيودى ، التى لم تعقنى فعلا عن نفس العمل . ولم يتململ ضميرى كثيراً لأنى أولاً وأخيراً لم أضر المجلة فى شىء .

وكان من الممكن أن يظل « س » حتى الآن يعمل فى الصحافة

لو أنه حاول أن يتعلم ويستقل بنفسه.لكنه كان كسولاً ملولاً ، لا يسعى إلى تنمية مواهبه . وكانت جرأته ولباقته تساعدانه كثيراً على تنفيذ الموضوعات الصحفية . فكان يقتحم الأماكن الخطرة والمشبوهة والسرية . وهذه المهمة لم أكن أنا شخصياً أستطيع أن أؤديها بنفس استعداده وبراعته وحبه للمغامرة . ولم يكن مستحيلا أن يصبح صحفياً ناجحاً ، لكنه آثر أن يعمل فى وظيفة سهلة بإحدى الشركات الكبرى .

ومن العجيب أن المؤهل الوحيد الذى رشحه لتلك الوظيفة ، لم يكن إلا شهادة رسمية من دار اخبار اليوم،بأنه كان يعمل صحفياً بها لعدة سنوات . وهى شهادة تناسب عمله الجديد بتلك الشركة الأهلية ، وتشهد له بخبرة لا تتوفر لكثير من حاملى المؤهلات الجامعية .

وهنا حدث شيء عجيب جداً تأثرت له كثيراً ، فإن الصديق المخلص « س » الذى كان يلاحقنى بزياراته المفاجئة فى أوقات متقاربة طالباً النجدة من المطبات التى يورط نفسه فيها برعونته ، هذا الصديق الوفى ، ما كاد يتسلم عمله الجديد ، حتى اختفى تماماً من حياتى ! لا زيارة ولا مكالمة تليفونيةولا رسالة !

إعتقدت جازماً أن مكروها أصابه ، فسعيت إلى الإتصال بمن يعرفونه ، فعلمت أنه مازال حياً يرزق يعيث فى الأرض فساداً .

إننى لست نادماً على خدماتى التى جحدها ، لكنى متألم لأنى

لم أستطع طوال تلك السنين أن أجعل منه إنساناً . . رغم محاولاتى العديدة .

أسرة قصتى :

ذكرت أن « قصتى » كانت تعتمد فى القصص القصيرة على المواهب الناضجة من الأدباء الهواة الذين تعرفت بهم أثناء عملى فى روايات الأسبوع . وفى حياة «قصتى» اكتشفت مواهب أخرى أصيلة ، أفخر بأنى كنت أول من أتاح لها فرص الظهور . وكانت مجلتى هى الدرجة الأولى فى سلم حياتهم الأدبية ، والتى وثبوا منها إلى المجلات والجرائد الكبرى . ومعظمهم الآن يشغلون مناصب مرموقة فى الصحافة المصرية . ولا أدّعى أنى كنت أستاذهم ، بقدر ما كنت مكتشفهم الأول ، ومشجعهم الذى مهدلهم الطريق الصعب.

أحمد بهجت :

من هذه المواهب التى إحتضنتها وصدق فيها حدسى ، الأخ أحمد بهجت . وكان مايزال طالباً فى كلية الحقوق . . يقرأ كتب الأدب طوال السنة الدراسية ، ثم يستوعب الكتب القانونية فى الشهر الأخير . . وينجح . كان مشحوناً بطاقة فنية ضخمة ، وقلما صدر عدد فى قصتى لم يكن له فيه قصة مؤلفة أو مترجمة .

أذكر أن أحمد بهجت جاءنى يوماً ، وأبدى لى ملاحظته بأن

المجلة تفتقر إلى القصص المترجمة عن الفرنسية ، وكانت بالفعل معظم الترجمات عن الانجليزية . وعرض على أن يترجم هو بعض القصص للكتاب الفرنسيين القدامى. وجاءنى فعلا ببعض القصص التاريخية الرائعة رغم أن أصحابها غير مشهورين . وأبدى كثير من الزملاء إعجابهم بتلك القصص المترجمة . ثم علمت فيما بعد ، أن تلك القصص لم تكن إلا من محض خيال أحمد بهجت !! لم أندم على نشرها فقد كانت رائعة فعلا ، ولم أغضب منه ، فقد استغفلنى بذكاء جعلنى أغفر له خدعته .

لم يكن أحمد بهجت مجرد زميل يتعاون معى فى عمل أدبى ، بل كان صديقاً حميماً قلما يجود الزمان بمثل وفائه وإنسانيته . كان يحبنى إلى درجة التقديس ، ويتألم لقيودى حتى تغلبه دموعه ، ويتهلل لصبرى وإيمانى حتى لينحنى على يدى يقبلها فى تأثر وحنان. كم كان يبدو حينذاك عملاقاً فى آدميته ، رائعاً فى نبله . وكانت الكلمات لا تسعفه أحياناً فيتمتم ويغمغم ، ويسرع بالانصراف وقد غلبه التأثر . ثم يعود فى اليوم التالى ومعه رسالة طويلة لا تقل عن عشر صفحات فلوسكاب يعبر فيها عما عجز لسانه عن الإفصاح عنـــه . وما زلت أحتفظ بمجموعة من تلك الرسائل الغالية .

ولا يعنى هذا أنه كان عيياً لا يحسن الكلام ، فقد كان خطيبا

مفوّهاً يتدفق لسانه فى بلاغة رائعة ومعلومات دسمة. وكان فى فترة تديُّنه يرتجل خطبة الجمعة فى مسجد الروضة حيث يؤدى فريضة الصلاة . وكان أحياناً ينسى نفسه فى بيتى ويتدفق بالأحاديث الدينية ويستشهد بالآيات القرآنية وأقوال الفقهاء ، فأنصت إليه فى إعجاب وتقدير . وكان والدى أحياناً يحضر تلك الخطب . فيقف مسحوراً بهذا الشاب العبقرى النبيل .

أذكر أنه جاءنى يوماً متجهم الوجه ، ينفخ فى ضيق ، وظل يحدق فى وجهى صامتاً . وبعد أن استرد أنفاسه ، عرفت أنه عندما استيقظ من نومه فى ذلك اليوم الحار ، شعر بأنفاسه تختنق وجسده ينضح بعرق ملتهب ، وأحس برغبة شديدة فى أن يقفز من سريره ويلقى بنفسه تحت « الدش » . وفى هذه اللحظة تذكرنى وتصور كيف أنى ملتصق بالسرير ، وكيف أن الفرق بين نومى ويقظتى هو مجرد حركة الجفون . وتساءلت نفسه الشفافة الإنسانية : « ترى كم من الوقت أستطيع أن أبقى ثابتاً فى سريرى مثل صبحى؟ » « وصمم على أن يقوم بتجربة حتى يلمس بنفسه مدى إحساسى بهذا الوضع المقيد ... فظل فى فراشه ساعة أحس بعدها باستحالة تامة لمواصلة التجربة .

أول تحقيق صحفى :

بعد شهور قفز من « قصتى » إلى دار « أخبار اليوم »

وكان أول عمل قام به فى مجلة « الجيل[١] » هو تحقيق صحفى بعنوان « صفقوا لهذا الرجل » بدأه بمقدمة من وحى تجربته القاسية فقال :

« ما الذى يعذبك فى هذه الدنيا ؟ ما هى مشكلتك التى تفجر الدموع من عينيك ؟ إن كل مشاكلك ومتاعبك لن تكون أبداً مثل مشكلة هذا الشاب الذى يواجه الدنيا بابتسامة تفاؤل عجيبة . إقرأها لتعرف أن كل مشاكلك لا تساوى دمعة واحدة .

تصور نفسك راقداً فى فراشك برغم أنفك . تصور نفسك سجين قيد لا تراه ، وإنما تحسه ، كم ساعة تستطيع أن تمضيها هكذا بلا حركة ؟ ساعة ، ساعتين ، عشرة ، عشرين ؟؟ .

ما رأيك إذن فى شاب أمضى ١٢١ ألف ساعة وهو يرقد بلا حراك ! وإذا وقفت إلى جواره لم يستطع أن يدير رأسه ليراك . كل شىء فيه كف عن الحركة إلا نصف ذراعـــة اليمنى وقلبه وعقله .

إن صبحى الجيار هو الشاب الذى أمضى ١٢١ ألف ساعة وهو يرقد على ظهره كالتمثال المتحجر النائم . لم يمرض بالشلل وإنما أصيب بمرض غريب لا جرثومة له ولا إسم ولا علاج . وقاومه

---

(١) مجلة الجيل ، العدد الصادر فى ١٢ سبتمبر ١٩٥٥ .

أربعة عشر عاماً كاملة، قاومـــه من فراشه بابتسامته المشرقة وصبرة وكفاحه . . .

إن صبحى الجيار نموذج مشرف للكفاح الإنسانى . . . من أجل الحياة . . . لم يلعن الدنيا، ولم يفكر فى الانتحار، وإنما تعلم اللغات ودرس فن القصة والرسم وأصدر أكثر من مجلة أدبية» .

وذكر أحمد بهجت فى تحقيقه قصة أستاذ الجراحة الأمريكى «ويلسون» الذى زار القاهرة فى طريقه إلى الهند، فتصيدناه فى المطار بواسطة جماعة «الادفنتست» التى استضافته، وجاءوا به إلى منزلى فى الساعة الرابعة صباحاً قبل ذهابه إلى المطار، وبعد الكشف الدقيق قرر أن حالتى معروفة فى أمريكا . . . وعلاجها مضمون وهو يحتاج إلى عدة عمليات جراحية لتركيب مفاصل صناعية من مادة الفيتاليوم، تعود بعدها الحركة إلى الأطراف الجامدة. ولما سألناه عن تكاليف العملية والإقامة فى أمريكا، قال رقماً يوازى ثلاثة آلاف جنيه مصرى .

لم يذكر أحمد بهجت هذه التفاصيل التى لا مبرر لها، إنما أعقبها بتعليق قال فيه . «وحين سمع صبحى عن الرقم أيقن أن رقدته ستطول .. ستطول إلى أن يوفر ثمن المفتاح الذهبى للخروج من سجنه الكبير .. ! » .

لقد سببت لى هذه السطور مشكلة آلمتنى كثيراً . فقد فوجئت بعد يومين بنبذة منشورة فى جريدة الأخبار، تفيد بأن أهل الخير

قد تبرعوا لى بمبالـــغ معينة لمساعدتى على العلاج فى الخارج ، وجاءنى أحمد بهجت متهللاً وهو يقدم لى بعض الشيكات التى وصلت المجلة ! .

شعرت بطعنة نجلاء تجرح كرامتى ، فما كنت أتصور أن أستجدى من أهل الخير ثمن علاجى ، وأنه لأشرف لى أن أظل طول حياتى حبيس القيود ، من أن أقبل تبرعاً من أحد . وقابلت فرحة أحمد الساذجة بثورة غاضبة ، ولم تهدأ أعصابى حتى أعاد الشيكات إلى المجلة ونشرت جريدة الأخبار فى عددها الصادر يوم ١٨ سبتمبر ١٩٥٥ ، إعتذاراً عن لسانى لأصحاب التبرعات عن عدم قبول مساعدة مادية ، وأنى أتأذى من فكرة المساعدة لأنى مصمم على الكفاح الفردى القائم على مجهودى .

وانتهت الأزمة بعد أن خلفت ندبة فى كرامتى .

ومن دار أخبار اليوم قفز أحمد بهجت بكفاءته إلى دار روز اليوسف بمرتب مضاعف ، ثم اجتذبته جريدة الأهرام بثلاثة أضعاف مرتبه فى مجلة « صباح الخير » . ومازال يصعد درجات النجاح فى ملحق الأهرام الأدبى ، حيث يخلط الأدب بالصحافة . وطاف أوربا وإفريقيا فى جولات صحفية موفقة .. وإن كانت الصحافة قد كسبت فناناً موهوباً مثقفاً ، فقد خسر الأدب القصصى كاتباً حساساً كان جديراً بأن يسجل انتصاراته رائعة فى هذا الميدان .

أما أحمد بهجت الإنسان فقد تغير عما كان منذ إثنى عشر عاماً، فقد تخلى عن نزعته الدينية، وجرفه تيار الحياة المادية، وشغلته عنى أعباؤه العملية والاجتماعية بعد أن أصبح رب أسرة مكونة من زوجة وأولاد. وإن كنت لا أعفيه تماماً من التقصير. فمهما جرفته زحمة الحياة فهى لا تستطيع أن تحجبه شهوراً طويلة دون أن يطمئن على إنسان يهتم به، ولو بمكالمة تليفونية.. لاشك ان «الفتور» هو التعبير الأرجح لتبرير الموقف.

لكن يبدو أن هذه هى سنة الحياة. وان الصداقة المثالية الخالدة التى أصبو إليها هى ضرب من الخيال، ويجب أن أقنع بحاضرى بما فيه من صداقات جديدة تعوضنى عما فقدته من علاقات قديمة. وهكذا تتجدد الحياة وتتطور حتى لا يصيبها الملل. ولتبق الصداقات القديمة كصور عزيزة فى «البوم» الذكريات، أرجع إليها من وقت لآخر فأستعيد أحداث فترة زمنية كانت مقترنة بتلك الصداقات.

غالى شكرى :

من الشخصيات الهامة فى أسرة «قصتى» الصديق غالى شكرى. عرفته فى بداية صدور «قصتى»، فقد وصلتنى رسالة من قارىء فى منوف يعرض مواهبه فى التأليف القصصى والترجمة، ولأول وهلة أدركت أنه ليس قارئاً عادياً رغم خطه الهيروغليفى. لم أرد

عليه ضمن صفحات البريد ، فقد كان جديراً برسالة خاصة . كتبت إليه مرحباً بصداقته وإنتاجه . ثم عرفت من رسائله المستفيضة أنه فى الثامنة عشرة ، يحمل دبلوم الزراعة المتوسطة . مما يؤهله لوظيفة مدرس للمواد الزراعية بالمدارس الإعدادية . لكنه كان طموحاً للعلم ، نهماً للمعرفة ، يقرأ بغزارة ويناقش القضايا الفكرية . وكان شاباً ريفياً يتوق إلى أى عمل بالقاهرة يدنيه من مركز تجمع الثقافة والصحافة الأدبية . ولم تكن ميزانية « قصتى » تسمح بتوفير هذا العمل له . ثم توصل إلى وظيفة مدرس مواد زراعية بإحدى ضواحى القاهرة ، واستأجر حجرة صغيرة فى حى شبرا كانت الكتب تحتل الجزء الأكبر فيها . وظل طوال صدور قصتى أحد الأقلام الأساسية فى أسرة التحرير .

وفى عصامية رائعة راح يقفز فى ميدان الأدب وثبات طويلة متلاحقة ، استقرت به فى جريدة الأهرام أيضاً ، بعد أن زود المكتبة العربية بعدة كتب تحوى مؤلفاته النقدية ، وبرز نشاطه فى معظم المجلات الأدبية فى مصر والبلاد العربية . ثم أختير أخيراً لمنصب أستاذ الأدب العربى المعاصر فى جامعة « ليدن » بهولندا ، لكنه آثر أن يحتفظ بعمله فى جريدة الأهرام .

إن غالى شكرى من أغزر أدباء قصتى إنتاجاً . وقد بدأ — كما بدأنا جميعاً — كقصاص ، ثم عثر على مواهبه الأصيلة ، فتبلورت ثقافته فى دائرة مركزة وهى النقد الأدبى . وتبلورت شخصيته أيضاً بعدما استقرت حياته الاجتماعية والمادية ، وتخلص

من الرواسب القديمة ، التى فرضتها عليه قسوة الحياة فى فجر شبابه المحروم ، الملىء بالصراع مع واقعه ليحقق تطلعاته إلى آفاق بعيدة المنال . وأعتقد أنه حقق منها الكثير بعد كفاح فردى مرير يثير الإعجاب .

أما وفاؤه لصداقتنا فهو فوق مستوى اللوم ، لأنه يكاد يكون الوحيد من أسرة المجلة الذى لم ينقطع عن زيارتى حتى الآن ، وهو من القلة المعدودين الذين أعتمد على رأيهم الصريح فى تقييم إنتاجى دون مجاملة أو تملق ، قد نختلف فى وجهات النظر . وقد نتعارك على صفحات المجلات دون أن تتأثر صداقتنا الوطيدة . لأننا نعرف كيف نفصل بين العلاقات الإنسانية والقضايا الفكرية.

محمد الخضرى عبد الحميد :

إن الخضرى هو أقدم الزملاء ، فهو فى مثل سنى تقريباً ، وكنا زميلين فى البعكوكة دون أن نلتقى . ثم التقينا بالصدفة على صفحات روايات الأسبوع . فعندما تسلمت سكرتارية التحرير ، وجدت إنتاج الخضرى فى أرشيف المجلة ضمن قصص الهواة . ونشأت بيننا صداقة بالمراسلة ، فقد كان — ولايزال — مقيماً فى ملوى بصعيد مصر .

كنت أعجب بأسلوبه المرح الساخر فى قصصه الريفية التى تعالج فى صدق مشاكل بيئته . وكان أسلوب رسائله المطولة

أكثر طرافة وإنطلاقاً من أسلوب قصصه . وهو فى رسائله يبتكر فنوناً من المرح لا يسع القارىء إلا أن يقهقه عندما يتصفحها.. أقول يتصفحها لأنها أقرب ما تكون إلى مجلة كاملة .. لها «مانشتات» عريضة بالألوان .. ورسوم توضيحية بريشته .. ونظام دقيق أنيق، يساعده فى هذا خطه الواضح الجميل ، وكأنه مكتوب بقلم بسط فى يد خطاط محترف ، رغم أنى عرفت فيما بعد أنه يستعمل قلم حبر كان وهو جديد لا يساوى أكثر من « شلن » .

كانت رسائله تختلف فى شكلها وحجمها ، فهى تارة على هيئة كراسة صغيرة ، وأحياناً على هيئة فرخ ورق طويل يصل إلى عدة أمتار ! وأحيانا تكون الرسالة مختصرة جداً ويسميها « برقية » . ومازلت أحتفظ فى « صندوق الذكريات » بعدة رسائل للخضرى تمثل نماذج من فنه الفريد .

ظللت فترة طويلة ألتقى بالخضرى على صفحات الورق فى صداقة حميمة ، وعندما أتيحت له فرصة السفر إلى القاهرة فى مهمة خاصة بعمله فى إحدى المزارع التابعة لوزارة الزراعة ، كان لابد أن نلتقى . وإذنى أحلق فيه واجماً وقد ألجمتنى الدهشة . .!

كان على عكس الصورة التى رسمتها له من خلال تراسلنا ، وجدته شاباً أسمر نحيلاً طويلاً ،شعره مرسل أشعث، يمشى منحنياً إلى حد ما .. كأنما ليختصر بعضاً من قامته ، ويجدف بساقيه الرفيعتين كأنه يقتلعهما من الطين . وكان يحمل حقيبة باهتة

تحت ذراعه ، فى لون بذلته الفضفاضة ، وباختصار كانت تنقصه نظارة فوق أنفه البارز ليصبح صورة كاملة لنموذج الباشكاتب الحكومى الذى يظهر على المسرح فى هذه الهيئة التقليدية .

وما راعتنى حقاً هى سحنته الكابية التى ترتسم عليها كآبة طبيعية كأنه لم يعرف الإبتسام ! كان خجولا مفرط الأدب . وعندما تكلم قفزت إلى شفتيه تعبيراته الراقصة ، لكنه كان ينطقها فى بساطة ودون انفعال أو تهريج أو تظرف . وظننت أن حياء المقابلة الأولى يخفى حقيقته ، لكنى قابلته مراراً على مدى سنوات طويلة ، فلم يزدنى الا إقتناعاً بأن مظهره الجامد المكتئب يختلف تماماً عن مخبره المرح المفرط فى التهريج وخفة الروح .

والخضرى نشيط جيداً ، وله طاقة ضخمة على العمل دون تعب أو ملل . وكان ينسخ قصصه مرات عديدة بخط يده كلما أراد أن يفتح بها مجالات جديدة .. وهو بعيد عن ميدان الصحافة القاهرية . وإذا كان أدباء قصتى جميعاً لم يساهموا فى تحرير المجلة إلا بقصصهم فقط ، حينما يتركونها لى فى زيارتهم الأسبوعية ، فإن الخضرى هو الوحيد الذى عهدت إليه بتحرير باب « حكايات قصيرة » الذى كنا نلخص فيه قصص الناشئين التى تتضمن فكرة جيدة ، بينما تفتقر إلى الأسلوب والصياغة السليمة .

كنت أحوّل إليه كل شهر عدداً من هذه القصص مع رأيى الخاص فى كل منها . وأترك له مهمه ضغطها أو صياغتها من جديد

فى حجم معين لا يزيد عن ثلاثمائة كلمة . والواقع أنه كان يقوم بتلك المهمة على أكمل وجه ، وفى نظام وعناية وتقدير لمسئولية الوقت . وهذه صفات قلما تتوفر فى إنسان بجانب الموهبة الفنية . لذلك كنت أطمئن إليه ، وكم وددت لو أنه كان يعيش فى القاهرة ، لأمكننى عندئذ أن أعتمد عليه فى كثير من مسئوليات التحرير والمراجعة والتنسيق ، فإنه نموذج ممتاز لسكرتير تحرير مجلة فكاهية شعبية .

ورغم هذا فالخضرى من القلائل فى أسرة قصتى الذين لم ينالوا حقهم فى الصحافة لبعده عن القاهرة، لكنه بحماسه الذى لا يهدأ ، استطاع أن يملأ أعمدة الصحف مدافعاً عن أدباء الأقاليم ، وله نشاط أدبى كبير فى ملوى سجلته عدسات التليفزيون وميكروفونات الإذاعة . واستطاع وهو فى « برجه الصفيحى » كما يسميه فى سخريته المريرة ، استطاع أن يقتحم المسابقات العامة. ونال عدة جوائز فى القصة والتمثيلية التليفزيونية والمسرحية ، ثم توجت الدولة أخيراً جهوده بمنحة تفرغ بمرتب شهرى لم يدخل جيبه طوال كفاحه فى ميدان الأدب .

أما الخضرى كإنسان . فهو ما زال الأخ الوفى المهذب الرقيق، ولكن مشاغلنا المتزايدة اختصرت كثيراً من حجم رسائلنا وعددها. ولكن كلاً منا يغفر لأخيه تقصيره غير المتعمد .

احتكار الجوائز :

لا أريد أن أستطرد فى تقديم أسرة « قصتى » ، وأكتفى بهذه النماذج حتى أعطى صورة واضحة عن الأقلام التى قامت عليها مجلة «قصتى». وكيف أنهم بدأوا كهواة رغم مواهبهم الناضجة، بدليل أن معظمهم شقوا طرقهم إلى مناصب أدبية مرموقة . وهم فى مقتبل العمر .

ومنهم أيضا صبرى موسى المحرر فى « صباح الخير » وله عدة كتب قصصية، ومحمد عبد الحميد ، ومحمد تبارك فى أخبار اليوم ، ومحمد المندى فى جريدة المساء ، وعبد العالى الحمامصى ، وإنتاجه موزع بين المجلات الأدبية ، وإبراهيم حماده الذى بدأ حياته الأدبية كقصاص وشاعر فى «قصتى» ، ثم تخرج فى قسم النقد بمعهد الفنون المسرحية بامتياز، وعمل بالحركة الفنية والنقدية بجانب قيامه بالتدريس بنفس المعهد، ثم سافر فى بعثة دراسية طويلة إلى أمريكا عاد بعدها يحمل لقب دكتور فى علوم المسرح. وأتوقع لهذا الزميل النابغة أن يتبوأ إحدى قمم المجد الأدبى فى المستقبل القريب .

ومن أدباء « قصتى » من اتخذ الأدب كهواية فقط ، مثل الدكتور أحمد فتحى سرور . الذى كانت قصصه الرصينة تبشر بخير كثير ، لكن عشقه للقانون صرفه عن الأدب بعد تخرجه فى كلية الحقوق ، وبعد سنوات قليلة نال الدكتوراه فى القانون

الجنائى وعين مدرساً لهذه المادة فى جامعة القاهرة . وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره . كذلك كان كمال مرسى المحامى من أبرز أدباء المجلة ، وكان ترتيبه الأول فى أول مسابقة لنادى القصة ، وبعدها احتكرت أسرة قصتى مسابقات القصة فى مختلف الميادين .

أذكر أن إدارة الثقافة فى وزارة التربية والتعليم ، وقبل أن تصبح وزارة مستقلة ، أذكر أنها فى سنة ١٩٥٨ أقامت مسابقة فى القصة القصيرة . وفاز أدباء أسرة قصتى بجوائزها الخمس الأولى. وكنت قد تقدمت أنا أيضاً لتلك المسابقة ، لكن قصصى أستبعدت قبل بداية المسابقة لأن حوارها كان بالعامية ، وسوف أتناول موضوع العامية فيما بعد ، وكيف أنها ضيعت علىّ جائزة الدولة التشجيعية أيضاً .

ومن أسرة قصتى الذين شغلتهم أعمالهم عن ميدان الأدب عادل سركيس المحامى ، وقد التحق الآن بسلك القضاء . والرائد محمد فؤاد سلطان الذى كان يترجم روائع تشيكوف وهو فى المدرسة الثانوية ، لكن العلوم العسكرية تستنفد الآن كل وقته ليزيد عدد النجوم فوق كتفيه .

وفى أسرة قصتى شخصية مجهولة للقراء ، رغم أنه لم يخل عدد واحد من قصة مترجمة بقلم هذه الشخصية ، التى كانت توقع بإمضاء « دكتور م . أ » ، وهو الوحيد الذى كان يساهم بقلمه دون أى أجر مادى أو مكسب أدبى . إنما كان فقط يبغى مساعدتى وتزويد مجلتى

بالإنتاج المترجم الدسم . ولعلنى أبدد علامات الاستفهام التى طالما سألتنى عن شخصية الدكتور م . أ فأقول إنه لم يكن غير شقيقى الحبيب الدكتور مكرم الجيار .

هيئة الرسامين :

عندما ظهر العدد الأول كانت كل رسومه بريشتى ، ثم بدأت أتعرف على بعض طلبة كلية الفنون الجميلة ، الذين يسعون لإفساح مجالات لإنتاجهم فى ميدان الصحافة . وبالتدريج وجدت أنى لست مضطراً للرسم فى المجلة بعد أن أصبحت لها هيئة من الرسامين الممتازين ، فى مقدمتهم صلاح كامل، والخضراوى ، وسليمان عبد المحسن .

أما صلاح كامل فقد قفز من «قصتى» بعد احتجابها إلى جريدة «الشعب» . ثم سافر فى بعثة إلى انجلترا ، وعاد ليشغل منصباً دقيقاً فى مصلحة المساحة ، حيث يصمم الخرائط وطوابع البريد. وسليمان عبد المحسن موهبة فذة ، عمل فترة ما بعد تخرجه فى مجلات دار التحرير ، ثم احترف رسم الإعلانات . أما الخضراوى فقد كان أول دفعته عند ما تخرج فى كلية الفنون الجميلة فعين مديراً لأحد متاحف القاهرة .

كما كان بعض الهواة يتعاونون فى رسوم المجلة ، مثل الزميل حمودة الذى كان يساعدنى فى الرسوم الكاريكاتيرية ، ثم احترف

هوايته والتحق بدار الهلال ، ومحمد عبد الله الذى كان موظفاً فى مصلحة السكك الحديدية ، وغيرهم كثيرون ، لكنى لم أذكر إلا الذين عملوا معى بصفة دائمة .

ورغم هذه المجموعة الممتازة فناً وخلقاً وإنتاجاً ، فقد كنت أضطر أحياناً أن أرسم معظم المجلة وحدى ، وذلك فى مواسم الامتحانات ، بل وكنت أحياناً أضطر إلى كتابة عناوين القصص بالخط الحر الذى لا يخضع لقاعدة ، وذلك إذا ما تمرد الخطاط أو تباطأ فى تنفيذ المطلوب منه .

وقد خطر لى ذات مرة أن أقتبس فكرة من المجلات القصصية الأمريكية والفرنسية، التى كانت توضح موضوع كل قصة بصورة فوتوغرافية يقوم بتمثيلها ممثلون من الهواة . فكانت تضفى على القصة إيحاء بالواقع . وقمت بتجربة هذه الفكرة بمساعدة الصديق محمود القبانى المصور الصحفى . الذى كان يذهب بعدسته إلى نقابة « الكمبارس » بعد أن نتفق على موضوع اللقطات المطلوبة. وكان يساعدة فى التمثيل وإعداد اللقطات الصديق إبراهيم عبد المقصود.

وقد نجحت الفكرة تماماً . ولكن طبع المجلة بالزنكوغراف على ورق « جورنال » كان يطمس الصور ، ورأيت أن الرسوم التخطيطية أكثر وضوحاً . فعدلت عن الفكرة ، ولو كانت المجلة تطبع بالروتوغرافور على ورق « ستانيه » مثل مجلات دار الهلال أو آخر ساعة لنجحت هذه الفكرة إلى حد بعيد .

إن أسرة قصتى لم تنفصم عراها بعد احتجابها ، فقد فكرت منذ سنوات أن أدعوهم دفعة واحدة إلى حفلة شاى . فنتذكر الماضى ويحكى كل منا ماحققه من انتصارات . ولاقت الفكرة تأييداً كبيراً . واجتمع فى بيتى عدد كبير منهم . واتفقنا على تحديد موعد ثابت نلتقى فيه كل عام ، هذا بالطبع خلاف المقاءات الفردية التى تتم من وقت لآخر ، كلٌ بقدر وفائه .

وإذ أتأمل أفراد هذه الأسرة الأدبية وهم يتقدمون فى حياتهم بخطوات ثابتة حاملين مشعل الفكر ، تمتلىء نفسى بالسعادة والفخر، لأنى كنت النواة التى اجتمع حولها هذا الجيل من الأدباء ، ولأنى أضأت لهم أول شعاع يتقدمون على هديه فى معترك الحياة الأدبية والصحفية ، وجنبتهم التعثر فى حجارة الاقطاع الصحفى الذى عرقل طريق سنوات طويلة ، لولا عثورى على توفيق الشمالى فى روايات الأسبوع ، الذى منحنى ثقته، وأتاح لى فرصة التجربة والظهور .

لكن موقفى من أدباء قصتى كان يختلف عن موقف توفيق الشمالى منى . حقاً إن ميزانية قصتى لم تكن تسمح بدفع أجور الأدباء ، لكنى لم أستغل أحداً منهم — كما بينت — فى أعباء لاتحمل اسمه . ولم أختص نفسى بعليم واحد دونهم ، بل تحملت خسارة مائتين وخمسين جنيهاً . . احتجبت بعدها المجلة لأسباب خارجة عن إرادتنا .

احتضار قصتي :

كنا مجموعة من الشباب نتعاون على إنجاح مشروع أدبي يستوعب طاقاتنا الفكرية أولاً ، فإذا نجح مادياً عادت أرباحه علينا جميعاً. وقد حققنا الشطر الأول من الهدف ، وكانت مجلة قصتي هي الجسر الذى عبرنا عليه جميعاً إلى آفاق أوسع ، أما الناحية المادية ، وهي فى المرتبة الثانية ، فلم يشأ القدر أن تتحقق لأسباب سياسية. فعندما قامت الثورة المصرية وغيرت الأوضاع الظالمة فى مجتمعنا . بدأت الأقلام تتنفس الصعداء فى جو صحى بعد كبت طويل فى العهد البائد، حيث كانوا يحاربون القصص التى تقاوم الاستغلال والظلم والجوع . ويسمونها الأدب الأسود ، أو يتهمونهم بالشيوعية وينعتونهم بأصحاب الأقلام الحمراء .

وبعد إنطلاقة الأدب فى مصر كان طبيعياً أن يحارَب فى البلاد العربية التى كانت ماتزال تحت سطوة الحكم المستبد . وبدأنا نسمع عن مصادرة الصحف والمجلات المصرية فى تلك الأقطار، والمصادرة معناها ضياع الكمية المصدرة مع إلزام صاحب المجلة بمصاريف شحنها أيضاً .

وإذا كانت الدور الصحفية الكبرى تحتمل مثل تلك الهزات المالية العنيفة ، فإن مجلة « قصتي » لم تستطع أن تصمد أمام ذلك الإنتقام الحقود . وبدأنا نفقد أسواقنا فى بعض البلاد العربية . .

وكانت نسبة التوزيع فى البلاد العربية — كما بيّنت — مرتفعة جداً بحيث تعتمد عليها مجلة صغيرة ليس لها أى مورد غير التوزيع . لأنى لم أستطع أن أحصل على أية إعلانات حكومية أو أهلية. ومن بديهيات الصحافة أن أية جريدة أو مجلة لايمكن أن تغطى تكاليفها من إيراد التوزيع فقط .

لكن « قصتى » حطمت هذه القاعدة البديهية ، وبدأت من العدد الرابع تغطى مصاريفها . حقاً إن العدد الأول خسر حوالى خمسين جنيها ، ثم هبطت الخسارة فى العدد الثانى إلى مايقرب من الثلاثين، وهكذا.. إلى أن توقفت الخسائر فى العدد الرابع. وبدأت المجلة تعوض بعض خسائرها مما جعلنى أضيف ابتداء من العدد الثالث عشر ، أى فى أول العام الثانى من عمر المجلة ، بعض اللوحات العالمية المطبوعة بالألوان على ورق مصقول لأنى لم أكن أتعجل الربح ، وكان هدفى أن أكسب مزيداً من القراء .

لقد نجحت المجلة فنياً وأدبياً وإدارياً ، بدليل أنها صمدت ستة وعشرين شهراً أمام أعاصير المصادرة ، وأمام منافسة دور الصحف الكبرى ، التى احتجبت مجلاتها الأدبية واحدة بعد الأخرى ، مثل « القصة » و « قصص للجميع » وغيرهما .

وقد أسعدنى منذ عهد قريب تصريح الأستاذ يوسف السباعى بوصفه سكرتير المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، يوم أجاب على تساؤل الجمهور عن إحتجاب المجلات الأدبية بعد

صدورها بفتره قصيرة رغم تجنيد كل مقومات النجاح لها . فقال إن أية مجلة أدبية لا تستطيع أن تستمر إلا إذا أعانتها الدولة ، لأن المعلن لا ينشر دعايته فى مجلة أدبية ، كذلك الإقبال على قراءة الأدب محدود ، ولا يكفى لتغطية مصاريفها .

ألا يحق لمجلة قصتى أن تفخر إذن لأنها صمدت وحدها وحققت المعجزة بتغطية مصاريفها من إيراد التوزيع فقط ؟

روائع القصص العالمى :

عندما تضاءلت ميزانية المجلة ، قرر شريكى « عبد الملاك » أن نوقف إصدارها إنقاذاً لما تبقى من رأس المال . ورغم إقتناعى بمنطقه التجارى السليم إلا أنى لم أتصور أن أنتحر بإرادتى، وفضلت أن أموت ميتة طبيعية بعد أن تنزف آخر قطرة من ميزانيتى .

كان علىّ أن أجرى تعديلاً جذرياً فى خطة العمل ، عسانى أن أنقذ أملى المحتضر . فقررت أن أحول المجلة إلى كتاب قصصى حتى أستفيد بطريقة التوزيع الثلاثية التى سبق أن شرحتها . وحتى تباع المترجمات بنفس سعرها فى المكتبات . هذا فضلا عن إختصار التكاليف فى الكليشيهات الملونة وجوائز المسابقات ، كذلك فالكتاب لن يحتاج إلى رخصة مجلة دورية .

اضطررت إلى اتخاذ ذلك القرار بعد ما انسحب عبد الملاك

من رأس المال ، ولم يبق معى إلا القليل الذى لا يسمح بطبع أكثر من ثلاثة آلاف نسخة فقط .

أصدرت أول عدد من كتب «روائع القصص العالمى» عن دار قصتى ،دون أن أسلم رخصتها،لأنى لم أكن أضمن نجاح فكرة الكتاب .

كان العدد الأول يحوى أربع عشرة قصة ؛ منها عشر مترجمة لأكبر الكتاب العالميين ، منهم الانجليزى سومرست موم ، والفرنسى جى دى موباسان ، والروسيان مكسيم جوركى، وأنطون تشيكوف، والإيطالى كالزابيجى ، والأمريكيان س.م. دون ، ووليام س. فيرنو .. الخ . أما القصص العربية الأربع فكان فى مقدمتها قصة مهداة من الكاتب الكبير محمود تيمور .

واشترك معى فى الرسم كل من سليمان عبد المحسن ، وصلاح كامل، والخضراوى، فقدموا لوحات مدروسة معبرة عن قصص الكتاب . وبالطبع لم تظهر فى الكتاب أية صفحة من المواد الشعبية .

لكن الأسف جاء التوزيع مخيباً لآمالى ، فقد كان الاسم جديداً لم يحظ بالدعاية الكافية لضعف الميزانية . كذلك يبدو أن مواده الدسمة — التى حرصت على إبراز عناوينها على الغلاف — لم يهضمها القارىء العادى بسهولة . أما القارىء المثقف فكان نادراً فى ذلك الوقت، الذى كانت فيه مجلة مثل البعكوكة توزع مئات الألوف

من النسخ ، بينما تحتجب مجلة مثل « الرسالة الجديدة » التي كانت تصدر في تلك الفترة .

بالطبع كنت قد بدأت العدد الثاني من «روائع القصص العالمي» قبل أن أفجع في نتيجة توزيعي الأول . وجاءت الأرقام الجديدة منذرة بتصفية آخر نقطة في الميزانية ، فاستسلمت لليأس .

مجلة شعبية مصورة :

بينما كنت أهوي إلى قاع الفراغ من جديد ، تلقفتني في منتصف الطريق يد فنان صديق ، تعرفت به في الفترة الأخيرة . هو الصول الحربي فتحي أبو الذهب ، وهو الآن برتبة نقيب ، وكان يهوى تأليف الزجل والأغاني ، لكنه كان يعاني كغيره من الزجالين — أزمة النشر . فعرض عليّ أن يمول مشروع المجلة على أن أقلبها إلى مجلة شعبية فكاهية ، تباع بقرشين فقط . وطلب مني دراسة المشروع قبل أن أقبل الفكرة .

كنت كالغريق الذي يتلهف على شيء يتعلق به حتى لا يغوص إلى الأعماق . وكنت مقتنعاً — بجانب هذا — بفكرة المجلة الشعبية ، التي يفتقر إليها سوق الصحافة . وعندي الاستعداد الشخصي والخبرة لإخراج مثل هذا النوع من المجلات التي تعتمد على الفكاهات المصورة ، والقصة ، والمقال الفني الخفيف ، والزجل ، ثم صفحتان بالداخل « دوبل پاچ » لمجلة تهريجية .

أما الأبواب الأولى فأنا كفيل بها . والزجل من اختصاص فتحى أبو الذهب ، أما المجلة التهريجية فكان فارس ميدانها الزميل الخضرى عبد الحميد . ورأينا أن نستغل إسم قصتى ورخصتها فى إصدار المجلة الجديدة ، التى صدر العدد الأول منها فى فبراير ١٩٥٦ فى حجم مجلة « الجيل » و « الكواكب » .

كانت تحوى المقال فى سلسلة موضوعات أعددتها لتعالج مشاكل الشباب بعنوان « إعرف نفسك » . ثم قصة العدد بقلم أحد الزملاء ، ثم صفحة بعنوان « خمس دقائق مع .. ». وكانت مع الفنان كمال الشناوى الذى أعددت له الأسئلة ، وأرسلتها مع سكرتيرى « س » فعاد إلى بالإجابات . كذلك صفحة بعنوان « من صحف العالم » جمعت فيها أحسن ماقرأت فى نبذات قصيرة . وصفحة كاملة حاشدة بالفكاهات المصرية المصورة ، وصفحة أخرى مثلها إخترتها من المجلات الأجنبية ، ثم صفحتان لقصص القراء المضغوطة . وصفحتان بعنوان « جرائم الشهر » يحررهما فى تشويق مثير وتحليل دقيق الأخ أحمد حريز ، وكان ضمن من تعاونوا معى فى روايات الأسبوع وقصتى الأدبية ، وصفحتان للزجل يشرف عليهما الزميل فتحى أبو الذهب . ثم بعض الأبواب الخفيفة التى كنت أحرزها فى قصتى الأدبية .. مثل المسابقة ، وبريد المفتى ، والبخت ، وفكاهات القراء .

أما فى الوسط فكانت « مجلة سكلانس » التى يحررها الخضرى

بمفرده . وكانت عبارة عن أبواب ثابتة على ألسنة شخصيات فكاهية، مثل « الشيخ روميو » و « أم زلطة » و « الشاويش فرحات » و « عرضحالجى » و « صحفى غلباوى » ، وقد أبدع الفنان سليمان عبد المحسن فى رسم هذه الشخصيات فى منتهى الروعة .

فى إعتقادى أن مجلة شعبية فى مثل هذا التبويب لابد أن تنجح ، خاصة إذا كان ثمنها زهيداً لايزيد عن قرشين . لكن هذه المجلة التي طبعنا منها عددين .. ضاعت نتيجة سذاجتى وحسن نيتى !

فقد كنت أعرف شاباً هزيلا عاطلا ، أعطف عليه ، وأشجعه على شق طريقه فى الحياة . وبين يوم وليلة جاء يبشرنى بأنه اشترى مطبعة مع شريك له . وراح يشرح لى خطط كفاحه التى أعدها ليبنى عليها صرح مستقبله . وبعد تلك المقدمة المؤثرة ، صارحنى بأنه يطمع فى أن أعهد إليه بطبع المجلة . وراح يغرينى بميزات معينة ليس من بينها إختصار التكاليف، منها أنه سيتولى بنفسه تصحيح « البروفات » الثلاث الأولى ، ويرسل لى « البروفة » الأخيرة نظيفة لأعتمدها ، فيوفر وقتى فى بند التصحيح . وخيل لى أنى إذا وقفت بجانب هذا الشاب الناشىء ليوطد مستقبله، فسوف يترجم عرفانه بالجميل إلى خدمة متفانية .

سحبت المجلة من المطبعة الكبيرة التى كنت أتعامل معها . وعهدت بطبعها إلى ذلك الشاب الأرعن ، الذى اتضح لى فيما بعد مدى

استهتاره وعقوقه ، ولكن بعد فوات الأوان . فخرجت المجلة من مطبعته مهلهلة مشوهة بطريقة تربك القارىء ، ولا تشجع على اقتنائها مرة أخرى .

أدركت لأول وهلة أن هذا الصديق العاق قد وأد المشروع الوليد فى مهده . بل دق آخر مسمار فى نعش «قصتى» ، هذا الاسم الذى بذلت الكثير مع زملائى للبعد به عن الإسفاف والإهمال . لكنى لا ألوم هذا المستهتر بقدر ماألوم نفسى ، فقد كنت أعلم أنه شاب فاشل تافه ليس له وازع من ضمير أو أخلاق ، بدليل أنى تورطت فى نشر قصة له فى «قصتى الأدبية» ، ثم وقع فى يدى دليل مادى يقطع بأنه سرقها من نص مطبوع ونسبها لنفسه زوراً . ولم يسعنى إلا أن أفضحه فى العدد التالى ، حتى يكون عبرة لغيره من سارقى النصوص . ولم يجرؤ على الاحتجاج بالطرق القانونية ، لأنه كان يعلم جيداً أن الدليل الدامغ تحت يدى . بل راح يعتذر ويتذلل ويمرغ جبهته فى تراب الندم .. فغفرت له . لكنى عدت بسذاجة فائتمنته على مشروعى الجديد الذى كان بمثابة عملية إنقاذ لاسم «قصتى» . فأنا الملوم إذن على غفلتى وسذاجتى . لكنه كان درساً على أى حال علمنى أن أكون أكثر حرصاً ويقظة ، حتى لا ألدغ من جحر مرتين .

صحوة الموت :

لم يكن سهلا أن أستسلم لليأس والفشل ، حتى بعد أن رأيت

أملى قتيلا أمامى ، لم يطاوعنى قلبى على دفنه . وفكرت أن أنفث فيه الحياة بمحاولة أخيرة . ووافقنى شريكى الطيب فتحى أبو الذهب، على أمل أن يعوض خسارته فى العددين الفكاهيين . وكان أملى الواهى فى المحاولة الأخير أن أعود بمجلة قصتى الأدبية إلى طابعها الأول الذى تقبله القارىء وتجاوب معه .

هكذا أصدرنا العدد السادس والعشرين من مجلة قصتى فى ٣يونية ١٩٥٦ .ولم يكن يختلف عن الطابع القديم الثابت، إلا بإضافة رواية مسلسلة بعنوان « صراع فى الظلام » كنت قد أعددتها فى ثلاثين حلقة ، وجعلت بطلها شخصية غامضة، يرتكب حوادث مثيرة طوال الرواية دون أن يعرفه القارىء أو الشرطة، وأجريت مسابقة حول هذه الرواية، ووعدت القراء بجائزة قيمة لمن يعرف شخصية المجرم الغامضة، والتى لم تكن إلا إحدى شخصيات الرواية، التى تتحرك فى براءة تحت أنظار القراء طوال الحلقات الثلاثين .

لم تفد حقن التقوية فى إحياء المجلة المحتضرة . لكنها مدّت فى عمرها شهراً أخيراً ، ثم احتجبت عن الصدور إلى الأبد . وعدت أنطوى فى غياهب اليأس والنسيان .

لم أصب فى حياتى بخيبة أمل حقيقية إلا مرات معدودة لا تزيد عن اثنتين أو ثلاث ، وكان موت مجلة « قصتى » بعد الكفاح المستميت للإبقاء عليها ، هو أحد هذه الانهيارات اليائسة التى هزت كيانى ، فقد كانت الثغرة الوحيدة التى اضاءت حياتى

المظلمة بعد أن تنكرت لى الدنيا ، وكنت أعدها الجسر الذى أعبر عليه من قبرى إلى عالم الأحياء . وهى التى فتحت لى مجالات رحبة بين الأصدقاء من الجنسين ، وهى التى بددت الفراغ الرهيب الممل الذى كان يحيط بى فى قسوة وإصرار . وهى بعد هذا وذاك كانت الأمل الوحيد فى أن أثبت وجودى فى المجتمع عامة ، وفى حدود أسرتى خاصة ، وعلى رأسها والدى الذى لم يكن يؤمن إلا بحساب الأرقام . . ومعياره فى تقييم الرجال هو المثل السخيف « تكسب قرشاً تساوى قرشاً » . أما والدتى فهى تعتنق مثلا آخر يقول : « الرجل لا يعيبه إلا جيبه » ويالها من مقاييس رخيصة !

اللامبالاة :

من النظريات العلمية أن الألم لا يتراكم . أى أن الإنسان إذا كان يحس بألم خفيف ، ثم داهمه ألم عنيف ، فإنه لا يعانى من مجموع الألمين معاً ، بل يقاسى من الألم الأكبر فقط . فإذا زاد الألم الأكبر عن طاقة احتماله يصاب بإغماء يوقف إحساسه بكل شىء .

وهذا ما حدث لى ولا أقصد الآلام الجسدية ، فهذه قد تدربت على احتمالها . لكنى أقصد الآلام النفسية التى تراكمت على مشاعرى ، حتى أدت بى إلى غيبوبة معنوية . . لا أجد لفظاً يعبر عنها خيراً من . . اللامبالاة . وهى حالة من الجمود وتبلد الذهن وعدم الاهتمام

بما يجرى حولى ، والإحساس بأن الحياة عبث لا تستحق ذرة من إهتمامى .

كنت أتصور نفسى وحيداً فى مركب ضال بين أمواج متلاطمة ليس لها حدود . وبعد أن استنفدت عبثاً كل طاقتى للوصول إلى الشاطىء . . استسلمت لمصيرى ولم أعد أحاول مجرد التفكير فى الخروج من محنتى .

لم تستمر فترة اللامبالاة أكثر من عشرة شهور ، وعلى وجه التحديد إلى أوائل أبريل ١٩٥٧ ، حيث بدأت مرحلة جديدة من حياتى والعجيب أنى بعد هذا اليأس القاتل أدركت حقيقة مذهلة لم يفطن لها عقلى القاصر عندما ظننت أن عدالة السماء قد تخلت عنى . فقد كانت تدخر لى خيراً كثيراً ، وتعدّنى للوضع الصحيح الذى كادت تلهينى عنه المهام الإدارية فى إخراج المجلات . وقد تأكدت فيما بعد أن بقاء « قصتى » كان فيه القضاء على مواهبى الفنية ، وأن موت المجلة فتح أمامى أبواب النجاح والرزق كما سيتضح فيما بعد .

حقاً . . . لو علم الإنسان الغيب لاختار الواقع . وما أصدق قول الله عز وجل ، الذى تجلت حكمته فى كل مراحل حياتى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

انتقاضات عاطفية

كان عملي بالصحافة هو الباب الذى تدفق منه الأصدقاء من الجنسين . وكان الرجال هم الأكثرية فى البداية بحكم المعاملات المشتركة . واقتصرت صداقات الجنس اللطيف على المكالمات التليفونية ، لأنى لم أكن أرحب بزياراتهن فى حجرة نومى ، حيث يتضاءل العملاق الذى يرسمه خيالهن إلى إنسان مقيد فى سرير ذى أربعة أعمدة ، ويحيط به جو يعطى صورة واضحة للأزمة المالية التى كنا نجتازها . وأقول « كنا » لأنى كنت فرعاً فى شجرة عجفاء ، ولم يكن لى كيان مستقل .

الفارسات الثلاث :

لكن إحدى بنات حواء استطاعت أن تقتحم الستار الحديدى ذات يوم من سنة ١٩٥٢ . واضطررت أن أستقبلها فى غرفتى بعد الحاح منها لتعرض علىّ مشكلة خاصة . ومهدت للقائها بالإسطوانة إياها التى كانت الأخت نعمات تصبها فى آذان الغرباء على عتبة

الباب . وهى أن « الأستاذ يعانى من وعكة بسيطة ، ولذلك سيقابلك فى حجرة نومه » .

كانت الزائرة فتاة فى حوالى العشرين ، متوسطة الجمال ، تتميز بشيء من الجرأة ، مما سهل مهمتها وجعلها تدخل فى الموضوع مباشرة . سردت علىّ مشكلتها التافهة ، التى علمت فيما بعد أنها كانت مختلقة من بنات أفكارها لتبرير زيارتها . لكنى شربت الخدعة بسذاجة المبتدىء ، واندمجت فى مناقشة مشكلتها بحماس ، حتى انصرفت شاكرة .

صارت تتردد علىّ فى أوقات متقاربة بعد خروجها من المدرسة التى تعمل بالتدريس فيها . وكان بيتى يقع قبل مدرستها بثلاث محطات للترام ، فكانت تمشيها ، فتصل إلى لاهثة ، ثم تستأنف رحلتها بالترام إلى شبرا حيث يقع منزلها . وكانت تحكى عنى لزميلاتها المدرسات ، فطلبت إحداهن أن تصحبها فى زيارتها لى ، ثم صحبتها ثالثة . وهكذا كانت الفارسات الثلاث يزرننى كل يوم إثنين وخميس بعد إنتهاء الدراسة .

لم تحرك إحداهن قلبى ، لكنى كنت أسعد بتلك الزيارات البريئة . ومن الطبيعى أن تكون بريئة ، فإذا كان الشيطان يستطيع أن يقتحم اجتماعاً يضم رجلا وامرأة ويكون هو ثالثهما ، فإنه لا يستطيع أن يباشر سلطاته فى مثل مجتمعى الصغير مع الفارسات الثلاث ، فإن الغيرة كانت حتماً ستعرقل جهوده .

وذات يوم أراد الشيطان أن يتدخل فى الموضوع بطريقة طريفة . فقد جعل إحداهن تتظاهر بأنها لن تزورنى فى ذلك اليوم وتغريهن بإلغاء الزيارة . فوجدتها الثانية فرصة « لزحلقة » زميلتها ، فتظاهرت بالموافقة حتى لا تعدل الأولى عن رغبتها . وذهبت الاثنتان إلى الفارسة الثالثة ، وأعلنتاها بقرارهما ، فأحست الثالثة بالحرج إن لم تتضامن معهما . وأعلنت موافقتها على إلغاء الزيارة .

وكانت النتيجة أن اجتمعن فى حجرتى واحدة بعد الأخرى ، بعد أن سلكت كل منهن طريقاً ملتوياً ! وكان موقفاً حرجاً تبادلن فيه الاتهامات . وهكذا فشل الشيطان فى خطته ، بينما امتلأت نفسى غروراً لتهافت الجنس اللطيف على شخصى الضعيف ، مما منحنى الثقة فى نفسى رويداً رويداً ، مع تزايد عدد المعجبات الراضيات بعيوبى .

وإذا كان الشيطان قد فشل فى تلك الجولة ، فإنه لم يستسلم للهزيمة . وتمكن من أن ينتصر فى معارك أخرى لم أستطع أن أصمد فيها أمام حيويتى الملحة ، التى زاد من حدتها الكبت الطويل . لكنى أقسم غير حانث أن الشيطان لم يستطع أن يجردنى من ضميرى وآدميتى .

أول انتفاضة :

فى سنة ١٩٥٤ كان لى صديق ظريف يعمل طبيباً ، ويملك

سيارة فاخرة، ليست مهمتها الأولى أن تكون وسيلة للمواصلات، لكنه كان يستعملها كفخ لاصطياد ضحاياه من هاويات الرفاهية. وكان معروفاً بيننا بالمرح والتهريج ، وبجعبته التى لا تخلو من الفكاهات الداعرة والمغامرات الفاجرة .

وفجأة نزلت عليه هداية من السماء حولته إلى شخص آخر ، كثير التفكير ، قليل المرح ، وعرفت أنه وقع فى شباك إحدى فرائسه ، وأوقف عليها جهوده وقلبه وسيارته .

كان لا يكف عن الحديث عنها وعرض صورها علينا فى تيه ونخر . وقد كانت فى الواقع جديرة بكل فخر وإعجاب . وعندما زارتنى ذات يوم بصحبته أدركت سبب جنونه بها . فقد كانت ذات بشرة خمرية ناعمة ، وملامح دقيقة رائعة ، متوسطة القامة، لكنها ملفوفة فى رشاقة . وكانت محدثة لبقة ، تقفز ذخيرتها الثقافية من خلال لهجتها الانجليزية المنطلقة . فهى خريجة كلية الأمريكان . وكانت مرحة كثيرة الحركة والنشاط . ينطلق حديثها فى جرأة وثقة وبساطة .

أذكر أنها طلبت أن تقرأ بعض إنتاجى ، وأبدت إعجاباً بمجهودى وهى تقلب بعض أعداد من مجلة « قصتى » . كذلك لم يفتها التعليق على مظهرى . وأبدت إعجابها بأسنانى اللامعة ! . دهشت لتلك الملاحظة التى لم تلفت نظر احد قبلها، بل أنها لم تلفت

نظرى شخصياً ، ولو أن هذه الملاحظة جعلتني فيما بعد أضاعف من عنايتي بأسناني .

لم يسعني إلا أن أهنيء صديقي على حظه السعيد عندما رأيته في الزيارة التالية ، وهمست له مخلصاً بألا يعرض صديقته على كل من هب ودب ، حتى لا يفقدها ، فالبنت مغرية والرجال ذئاب . فالتفت نحوى قائلا في ذكاء وحكمة :

ـ أنا أريد أن أتزوج هذه الفتاة ، ويهمني أن أختبر إخلاصها ، فإذا كانت هوائية وخانتني فلن أخسر كثيراً ، ومن الأفضل أن تهجرني الآن مخلفة في قلبي جرحاً تشفيه الأيام ، من أن تخونني بعد الزواج فتحطم حياتي . أما الصديق الذي قد يخطفها مني فهو أتفه من أن أحزن على فقده .

كانت كلماته منطقية ومعقولة إلى حد كبير ، ولو أني لا أومن كثيراً بسياسة اللعب بالنار والكبريت، ثم ألقي اللوم على أحدهما . حاولت أن أناقشه في وجهة نظرى ، لكنه كان مؤمناً برأيه في ثقة وحماس .

لم أكن وقتها أتصور أني سأكون هذا الصديق الذي يخطف حبيبته ! الواقع أني أظلم نفسي بلفظ الاختطاف ، لأنني لم أقم بأي عمل إيجابي لاغرائها أو استمالتها ، لسبب بسيط ، وهو أني لم أكن أعرف عنوانها أو رقم تليفونها ، ولو عرفته ماجرؤت على فرض نفسي عليها ، لأني لم أكن أتصور أو أطمع

فى أن ألفت نظرها ، فإنه فضلاً عن صفاتها الشخصية الرائعة ، كانت من عائلة ارستقراطية ، ويتمتع أبوها بلقب « باشا » . كذلك لم يصور لى غرورى أن أنافس صديقى الطبيب الثرى .

فوجئت يوماً بصوتها الرقيق يصافح أذنى من خلال سماعة التليفون ... فرحبت بها فى ارتباك . ومالبث صوتى المتهدج أن سكنت نبراته عندما حدثتنى بإعجاب عن مجهودى المتواضع فى المجلة التى اصطحبت معها بعض نسخ منها . وأعادت ملحوظتها عن أسنانى اللامعة ، وأضافت شاربى أيضاً إلى قائمة حسناتى . ولمحت بلهجة ذات معنى إلى أنها خشيت من التعليق على شاربى أمامى حتى لا تثير غيرة صديقى . ثم سألتنى فجأة عن رأيى فيها . فاندفعت أتكلم بحماس عن ثقافتها وطلاقتها فى اللغة الإنجليزية ، لكنها قاطعتنى متململة وهى تسألنى عن رأيى فى شكلها .

خشيت أن أطلق لسانى برأيى الحقيقى فى محاسنها حتى لا تظن أنى أغازلها ، فاكتفيت بأن أبديت إعجابى بذوق صديقى فى الاختيار . وجاءتنى ضحكاتها الراضية عبر أسلاك التليفون تعلن عن فهمها لمقصدى . لكنها أصرت أن أبدى رأيى فى ملامحها وقوامها كرسام وليس كرجل فقط . ولم يسعنى إلا أن أستغل قناع الرسام الذى قدمته لى ، وانطلقت أصف محاسنها بعين الرسام المدققة وألفاظ الأديب المنمقة .

كان من الممكن أن تمر هده المجاملات المتبادلة مروراً عابراً . لكنها شدت أذنى بعنف عندما راحت تشكو لى صديقنا المشترك الذى يطاردها بعواطفة ويحاول أن يفرض عليها حبه ، مع أنها كانت تريد أن تقف بعلاقتها معه عند حدود الصداقة الأخوية . وطالبتنى أن أقنعه بوجهة نظرها لأنها لاتريد أن تجرح كبرياءه بإجراء حازم ، فقد كانت أسيرة أفضاله الغامرة .

رفضت بالطبع هذه المهمة الشائكة ، حتى لايحمّل كلماتى أكثر من معناها البرىء . وفى حياد تام نصحتها بأن تصارحه بحقيقة شعورها حتى لاتتركه فى أحلامه الكاذبة ، فخير له أن يفيق على الواقع المرير من أن يعيش فى وهم كبير . وكانت نصيحتى لاتخرج عن مضمون نظريته فى إختيار زوجة المستقبل .

لكن كلينا لم يجرؤ على مصارحته بالحقيقة .

تعددت مكالماتها التليفونية ، وبدأت تتخذ طابعاً مثيراً ، عندما كانت تطلبنى كل ليلة بعد أن تنام أمها المحافظة ، فتتسلل إلى ردهة البيت وتسرق التليفون ، وتعود به إلى سريرها ، مجرجرة حبله الطويل خلفها . ومن تحت الأغطية ينساب صوتها الدافىء هامساً يدغدغ أذنى . فأرد عليها بهمس كالفحيح حتى لاأوقظ والدىّ النائمين فى الحجرة المجاورة .

ومع أحتكاك تلك الهمسات الحارة فى هدأة الليل تولدت شرارة الحب الأول فى قلبي . لكنى لم أجرؤ على مصارحتها

بمكنون مشاعرى ، ولم يسعفنى غير الورق أصب عليه عواطفى الجياشة وأصف له أحاسيسى وآلامى .

لست أحتفظ بتلك النصوص الآن ، فقد كنت طوال عمرى حريصاً على ألا أسجل أسرارى فى ذكريات أحتفظ بها خشية أن تقع فى يد قارىء فضولى ، فيطلع على مواقف ضعفى وآلامى التى حرصت طوال هذه السنين على إخفائها . لكنى أذكر تماماً مضمون تلك السطور التى كانت تصف حالى من الوجوم والكآبة والترقب والذهول ، وشرود ذهنى أثناء تأدية عملى ، وعزوفى عن المرح والحديث ، وتجميد ساعات يومى كلها فى انتظار جرس التليفون الليلى ، فيبعث الروح فى الجسد الخامد .

كانت أحاديثنا مناجاة فيها من التلميح ما يغنى عن التصريح . وكانت أحياناً تطلبنى أثناء النهار حينما تكون وحدها بالبيت ، وأحياناً كانت تزورنى مع صديقى الطبيب ، فتعذبنى زيارتها بقدر ما أسعد برؤيتها . كنت أتخيل أنه يعرف سر أحاديثنا وشكواها منه ، وأنه سيواجهنى بها ذات مرة ليغرقنا معاً فى بئر من الإحراج . لكنه كان واثقاً فى كلينا . وكانت ثقته تزيد عذابى . رغم أنى لم أكن قد ارتكبت بعد خيانة حقيقية ، ولكن لمجرد أنى أحبس عنه سر معبودته التى لا تكن له إلا الصداقة الأخوية .. التى لا تقيد قلبها . بينما يعيش هو على أمل أن يجمعهما عش الزوجية .

حاولت أن أتخلص من مكالماتها السرية رغم تعلقى بها ، وكانت

إرادتى تستمد من ضميرى قوة تساعدنى على الهروب ، لكن حيائى كان يفسد كل خططى وتدبيراتى ، فكيف أطالبها بالابتعاد دون أن أجرح كبرياءها ؟

وجاءت ليلة كانت من أسعد .. وأتعس ليالى عمرى !

سألتنى بصوتها الدافء عن القبلة ، وما رأيى فيها ، وهل يتغير معناها بتغيير موضعها ؟ فكان ردى بالإيجاب ، فراحت تسألنى :

— ماذا تعنى إذا كانت على الجبين ؟

— تكون قبلة أخوية .

— وعلى الخد ؟

— عاطفية .

— وعلى الشفاة ؟

— شهوانية .

— والرقبة ؟

— كذلك .

— وعلى ظهر اليد ؟

— عبودية .

— وعلى باطن الكف ؟

ترددت قليلا ، ثم قلت :

— أعتقد أنها تحمل شيئاً من الامتنان وعرفان الجميل في غير إذلال.

فتساءلت في خبث :

— ألا يمكن أن يكون لها معنى آخر ؟

— يجوز .. وما رأيك أنت ؟

— رأيي أنها تحمل معنى الحب المبنى على الإعجاب والاحترام.

لمحت في لهجتها نغمة حماسية ذات معنى ، فسألتها :

— وما الذي جعلك تحلليها على هذا الأساس ؟

— لأن هذا كان شعوري وأنا أطبعها على يد إنسان عزيز على نفسي ، وأكن له أكثر من الحب ..

— من يكون ياترى ؟

— أنت !!

حسبتها تمزح ، وهتفت بارتباك :

— ومتى كان هذا ؟

— أمس .. في الحلم ..

وساد الصمت لحظة ، فكان أبلغ تعبيراً من أى كلام . ولم يفتح الله على لساني إلا بكلمة واحدة قلتها متهدجة :

— صحيح ؟!.

وكان ردها أكثر إيجازاً ، فلم يزد عن آهة حالمة تحمل شحنة أنثوية فيها مزيج من الحياء والدلال.

وفى تلك الليلة قرأت لها كل مشاعرى المسطورة .. وانفجر البركان !.

بعد أن وسدت سماعة التليفون فى مكانها .. لم أنم تلك الليلة ، التى صعد بى نصفها الأول إلى قمة النشوة ، ثم انحدر بى الندم حتى وصلت إلى السفح مع زقزقة عصافير الفجر .

وبعد أيام من الصراع الرهيب بين حلول كثيرة أحلاها مر ، قررت أن أضع حداً للمأساة ، فاتصلت بصديق فى المستشفى . ومهدت له الحديث برواية مختلقة عن علاقة عاطفية أعيش فيها . فهلل مهنئاً شامتاً فى قلبى الذى كان ينكر الحب . ثم استدرجته فى الحديث حتى سألنى السؤال التقليدى عن أحاسيسى ومشاعرى ، فقلت :

— لا أنكر أنى سعيد يا فلان ... لكن غيرتها العنيفة تعكر صفو علاقتنا .

— كيف ؟.

— تصور أنها تغار من مكالماتى البريئة مع صديقتك .

— عجيبة ، لاشك أنها مجنونة حتى تغار من هــــذه العلاقة الأخوية !.

قلت بأسى :

— ولكنى مضطر أن أقبلها على علاتها..وأن أرضى شعورها.

— ماذا تعنى ؟

قلت متلعثما :

— أعنى أن صديقتك لن يضيرها شيء إذا امتنعت عن طلبى بالتليفون ؟ .

— وماذا تقترح ؟ .

كان الجواب معداً على لسانى ، فقلت :

— تستطيع أن تمنعها أنت من الاتصال بى .. بحجة أنك تغار مثلاً .

فقال ضاحكاً :

— ولكن هذه فكرة سخيفة .. كيف أغار منك وأنت صديقى؟ سوف أبدو صغيراً أمامها إذا ما صارحتها بهذه الفكرة . . .

أحسست بكلماته كالخناجر تمزق ضميرى ، فقلت متوسلاً :

— أرجوك .. تصرف بأى طريقة .. وأرجو ألا يضايقك طلبى هذا .

وأنهيت المكالمة .

لم أعد أسمع صوتها . ولم أعرف كيف تصرف صديقى ، وكيف واجهت هى سخافتى وعقوقى . ولعلها صدقت القصة المختلقة عن حبيبى الغيور . وأكاد أجزم بأن صديقى قد صارحها بكل حديثى معه . فقد كان مدلهاً بها ، ولم يكن قلبه يطاوعه على إخفاء سر المؤامرة البيضاء عنها ، ولعله لم يشأ أن يتعرض لاستنكارها . ولعله انتهزها فرصة ليثبت لها نذالتى وجبنى .. !

العجيب أنه هو أيضاً قاطعنى . . لا أدرى لماذا ؟ هل كان

يحتج على إهانتى لحبيبته ؟ أم أنها أجبرته على مقاطعتى انتقاماً منى . أم أنه اتخذ هذا الإجراء مجاملة لها . ؟

المهم أنى فقدت قلبي وصديق .. واستردت راحة نفسى وضميرى ، ولم تمض شهور حتى نسيت تلك النزوة الطارئة ، وتحولت صاحبتها إلى صورة فى صندوق الذكريات .

المليونيرة الحسناء :

وقفت فى حديثى عن الزواج ، عندما أخفقت محاولاتى الثلاث للزواج من لاجئة فلسطينية ، وابنة الملجأ ، وابنة النجار . وذكرت أن العرض التالى فى الزواج جاء من الطرف الآخر . . وكانت الفارسة هذه المرة مليونيرة حسناء !

إنها أعنف وأروع وأطول مغامرة عاطفية خضتها فى حياتى ، رغم السلسلة الطويلة التى جاءت بعدها . إنها أسطورة مذهلة لا يحلم بها أكثر الناس تفاؤلاً . لكنها حدثت فى أقسى فترات الجدب العاطفى ، والأزمة المالية الطاحنة ، والإرهاق الذهنى .

لم تكن نزوة طارئة كابنة الباشا ، ولا حلماً خاطفاً عبر صدفة فى حياتى . بل كانت حقيقة كبيرة أغرب من الخيال . مازلت أذكر أحداثها بكل ما فيها من تفاصيل عنيفة ، حفرت بعمق فى صفحة بكر من حياتى . وهى تحتاج وحدها لكتاب مستقل ، لكنى سأحذف الحوادث المكررة أو المتشابهة ،

وسأتجاوز عما لا يليق نشره ، تاركاً لفطنة القارىء أن تستشف ما بين السطور .

كانت لى صديقة متصابية تعدت الأربعين بعدة سنوات ، وكانت تحاول أن تطور صداقتى بها إلى علاقة أعمق . لكنى كنت أتملص منها بلباقة فى الوقت المناسب . ولو أنى كنت محروماً حينذاك ، إلا أن منظرها كان يثير فى نفسى الشفقة والغثيان ، وهذه مشاعر لايمكن أن تقوم عليها علاقة وطيدة .

إن المرأة فى هذه السن أحياناً تصاب بنوع من الهوس يجعلها تسعى لتأكيد شبابها بعلاقة مع شاب فى سن ابنها . ولما رأت تلك السيدة إعراضاً متكرراً منى ، لجأت إلى طرق غير مشروعة لاخضاعى وإذلالى .

فى مساء ٢٠ يناير ١٩٥٥ دق جرس التليفون ، ورفعت السماعة ، فجاءنى صوت انثوى ساحر يداعبنى فى مرح ودلال . وحاولت أن أعرف صاحبة الصوت ، لكنها كانت تراوغ مدعية انها مجرد معجبة أرادت أن تتعرف بى . لكنها أجابت على بعض أسئلتى بصراحة تلقائية ، فعرفت منها أنها أرملة عمرها خمسة وعشرون عاماً ، ولها إبنه واحدة فى السابعة من عمرها .

وقبل أن أنهى المحادثة ، انتقلت السماعة الأخرى إلى يد صديقتى الشمطاء ، التى راحت تتظرف شامتة لأن إمرأة

مجهولة أثارت اهتمامى وجعلتنى أصدق أنها إحدى المعجبات رغم أنها لم تقرأ لى حرفاً !.

الخرساء :

فى اليوم التالى زارتنى صديقتى المتصابية ، وبصحبتها حسناء رائعة تتفجر الأنوثة من كل ذرة فى جسدها .. كأنها كتلة مشعة من اليورانيوم تصعق من يتعرض لها . أقبلت نحوى تتأود فى خطوات راقصة ، ومدت يداً بضة لتصافحنى ، بينما كانت عيناها الواسعتان تتلألآن فى حيوية ونداء . وانحدرت خصلة من شعرها الأسود الناعم على جبين مضىء ، وراحت تداعب رموشها الطويلة فى دلال ..

نسيت يدى فى يدها وأنا أحملق فى ذهول ، حتى نبهتنى صديقتى الشمطاء إلى وجودها . فألقيت إليها يدى مسلماً ، وكأنى انتزعتها من باقة ورد لألقى بها فى صندوق للقمامة .

راح لسانى يتمتم بكلمات الترحيب. وأدهشنى أن الزائرة الحسناء لم ترد تحيتى ، وظلت شفتاها القرمزيتان مضمومتين على الصمت المحير . وأسرعت صديقتى تقول :

— لا مؤاخذة ... إنها خرساء !!

— وهل تسمعنا ؟

— كلا بالطبع ..

لم تصدمنى الحقيقة الفاجئة ، ولم أشعر نحوها بكثير من الرثاء . وهل أرثى لمالكة هذه الكنوز النادرة إذا فقدت شيئاً تافهاً ؟ كانت ملامحها كلها تتكلم وتعبر فى وضوح ، رغم شفتيها المضمومتين . وكانت تحرك مقلتيها داخل محجريهما من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار متفحصة ما حولها ، ثم تركزهما فوقى فى حنان صادق ، وكأنها تقول : « سلامتك » .

غمرنى إحساس عجيب بأنى أعرف هذه السيدة . وكانت نظراتها أيضاً تقول . . ألا تعرفنى ؟ . . ولكن . . أين قابلت هذه الفتنة المجسدة من قبل ؟ من المستحيل أن أرى هذا الجمال وأنساه ..!

ثم لاحظت أنى كلما بدأت الحديث تتجه عيناها نحوى تلقائياً وكأنها تسمعنى ، وخامرنى الشك فى أن تكون مكتملة الحواس وتدّعى الصمم .. لكن لماذا تلجأ إلى هذه الحيلة وأنا لا أعرفها؟

حاولت أن أستعمل الأساليب البوليسية ، فأوجه إليها الحديث فجأة ، لكنها كانت تواجهنى بابتسامتها الدائمة دون أن تتغير انفعالات وجهها . وكانت صديقتى الشمطاء تسرع فى ترجمة سؤالى إليها بالاشارات .

ثم تطرق الحديث مع صديقتى المتصابية عن محادثة الأمس بالتليفون . وسألتنى عن رأيى ف صديقتها ، فرحت أمتدح صاحبة الصوت التليفونى بحماس صادق ، وطلبت أن تبلغها تحياتى وترحيبى بمكالمتها دائماً . فسألتنى بخبث :

ـ يبدو من حماسك أنك أحببتها .

ـ أنت تعرفين أنى لا أسلم قلبى بسهولة لمجرد صوت فى التليفون .

ـ إفرض أنها كانت جميلة ؟

فقلت مازحاً :

ـ إذا كانت مثل صديقتك هذه فانى أسلم قلاعى فوراً .

وهنا فوجئت بأن إبتسامة الخرساء قد اتسعت فى نشوة واضحة وكأنها سمعت إطرائى . وفى الحال تملكنى إحساس أكيد بأن الخرساء هى نفسها صاحبة الصوت التليفونى ، فصحت فيها بانفعال :

ـ بشرفك تقولى الحق . . . ألست أنت السيدة « م » .

فاجأها الحصار المحرج ، فاختلج جفناها ، ونطقت فى حياء :

ـ نعم . . أنا هى !

ثم شرحت لى سبب هذه الخدعة المتقنة ، فقالت إنها كانت تريد أن تعرف رأيى الصريح فيها . وصارحتنى بأن كل الإجابات التى ردت بها على أسئلتى التليفونية كانت صحيحة . . ثم أضافت متسائلة :

ـ لا أدرى لماذا كنت صريحة معك . . .

فأسرعت الشمطاء تفسر قولها :

ـ لأنك كنت متأكدة أنه لن يراك أو يسمعك مرة أخرى

لكن « م » لم يعجبها هذا التفسير فهتفت تصححه :

ــ كلا . . الواقع أن قلبى لم يطاوعنى كى أكذب عليه .

ولم يخف مضمون الكمات عن الصديقة الشمطاء، فانكبست، ولعلها ندمت على لعبة التليفون التى وضعت « م » فى طريق . وقد ظهر ندمها فيما بعد جلياً واضحاً ، حينما راحت تصب حقدها فى مؤامرات خسيسة باءت كلها بالفشل، حتى نبذناها من حياتنا معا.

بدأت « م » تطلبنى فى التليفون على فترات متقاربة ، حيث نتجاذب أطراف الحديث المتشعب . . عن المرحوم زوجها الذى كان يحتل مركزاً مرموقاً فى الدولة ، لكنه كان مقامراً سكيراً ، لا يعود إلى بيته قبل الثانية أو الثالثة صباحاً . وأنها لم تتزوج بعد وفاته ، حتى تتفرغ لتربية إبنتها ، بعد أن زهدت فى جنس الرجال وفقدت ثقتها فيهم .

مولد حب :

وفى ١١ فبراير ١٩٥٥ ، أى بعد أول مكالمة بثلاثة أسابيع . . وهذا التاريخ محفور فى ذاكرتى . فقد كنا نحتفل به كل عام كعيد لمولد حبنا . فى ذلك اليوم المشهود ، صارحتنى بأنى رددت للجنس الخشن اعتباره ، بدليل انى اقتحمت قلبها وتربعت على عرشه . كانت كلماتها واضحة صريحة وليست مجرد تلميح كما حدث مع بنت الباشا السابقة .

وبقدر ما كنت لاأجرؤ على مصارحتها بإعجابى، فإنى لم أجرؤ

أيضاً على تصديق قولها . فلم يكن الغرور قد وصل بي إلى مثل تلك التطلعات الأرستقراطية . ورحت احاورها لعلنى أستخلص حقيقة مشاعرها ، فاستنكرت شكى فى صدق عواطفها . ووعدتنى بالزيارة فى صباح اليوم التالى . وعندما اعدت سماعة التليفون إلى مكانها كانت يدى ترتعش ، وقلبى ينتفض فى نشوة وسعادة يشوبها شيء من القلق .

فى صباح اليوم التالى كان القلق قد تمدد فى راسى،راسماً صورة مؤامرة متقنة تكمل بها « م » دورها التمثيلى الذى رسمته صديقتها الشمطاء لتنال من كبريائى . وكان هذا التفسير أقرب إلى المنطق السليم ، من أن افترض وقوع المليونيرة الحسناء فى غرامى بمثل هذه السرعة وبقدر هذا العمق

ما كادت تهل بخطواتها المتأودة داخل حجرتى،حتى اصطدمت بملامحى المتجهمة ، فتوقفت فى يدها السلسلة الذهبية التى تحوى مفاتيح سيارتها « البويك » الفارهة . وعندما صافحتها إستبقت قبضتى بين اصابعها البضة ، واتسعت مقلتاها فى دهشة تستفسران عن سر جهامتى ، ثم اتخذت مجلسها دون تردد بجانبى على حافة الفراش . وهمست فى حنان :

— مالك .. ؟ تعبان ؟ .

— نعم .

— بماذا تحس ؟

قالتها فى لهفة وهى تتحسس جبينى . أردت ان أشيح عنها بوجهى ، لكن عظام رقبتى لم تطاوعنى ، فأرخيت جفنى حتى لا أراها، وهتفت فى صوت متهدج :

ـــ أرجوك .. كفى تمثيلا .. متى تنتهى هذه اللعبة السخيفة ؟

ـــ لعبة ؟؟ ماذا تعنى ؟ .

غاظنى برودها ، فصحت فى عصبية :

ـــ إذا كان ضميرك يسمح لك أن تلعبى بقلوب الناس . فأنصحك أن توفرى تعبك لأنى كشفت اللعبة .

هتفت فى دهشة وعتاب ، وهى تتشبث بأ كتافى :

ـــ أى لعبة يامجنون ... أنا أحبك .. أحبك .

اغرورقت عيناى بقطرات السعادة ، ولم يسعنى إلا أن أصدق ، فإن ماحدث بعد ذلك أ كد لى بالدليل المادى أن عواطفها الملتهبة لا يرقى إليها الشك !! .

وهكذا اكتسحت الحقائق الملموسة كل أثر للتردد من نفسى . وانحلت عقدة النقص التى جسمها التفاوت بين قتها وسفحى . وامتلأت نفسى بالثقة ، بل بالغرور ، بعد أن اشعرتنى تلك الأنثى الكاملة بأنى عملاق مهاب وسيد آمر .وعندما خرجت من حجرتى كنا قد إتفقنا على الزواج !! .

العيب . . والحرام :

كانت البسمة على وجه والدى تؤكد فرحته بابنه الذى يغزو مثل هذه الحصون المنيعة . لكنه شعر بحرج هيبته كرب للعائلة ، حينما تصادف أن هبت ريح من الشرفة فأغلقت باب حجرتى . لكنه لم يصارحنى باحتجاجه ، إنما أوحى إلى والدتى كى تفاتحنى بألا أسمح لتيارات الهواء بأن تغلق باب حجرتى ! وراحت تتكلم عن العيب والحرام ، وغضب الله ، والنجاسة التى ستخرب البيت !!

انتابتنى رغبة خبيثة فى مجادلتها ، لمجرد إحساسى حينذاك بأنهما — أبى وأمى — يحجران على حريتى الشخصية . فقالت أحاورها :

— هل تعتقدين أن الله زود الإنسان بغريزة الجنس التى لا تقاوم لمجرد العبث ؟ وهل تظنين أن تلبية نداء الطبيعة يغضب الخالق ؟

قاطعتنى قائلة :

— تلبية الغريزة لا يغضب الله إذا كانت بالحلال .

— وما هو الحلال ؟

— الزواج .

— وإذا أوجدنى الله فى ظروف تحرمنى من الزواج ؟

قالت متحدية :

— ومن أدراك أنك لن تتزوج ؟ أنت ما تزال فى الثامنة والعشرين . . وهناك كثيرون فى مثل سنك لم يتزوجوا بعد .

— وهل تظنين أن هؤلاء ليست لهم علاقات عاطفية ؟

— الشاب لا يعيبه شىء . . ولكن خارج البيت .

— وإذا كان مقيداً فى البيت ؟

— يرضى بنصيبه .

— إذن فالعيب والحرام والنجاسة لا تثقل كاهل الشاب الطليق دون المقيد . وكأن القيد نفسه هو الحرام والعيب . ولست أنا الملوم عن هذه القيود على أى حال .

وقامت من أمامى وهى تتمتم فى ملل :

— لا تفلق دماغى بفلسفتك الفارغة . . قل هذا الكلام لأبيك .

فطلبت منها أن تطمئنه بأن ابنه يخشى الله ، ولا يتصرف إلا بوحى من ضميره . وأن صلتى الوطيدة بالخالق عز وجل تجعلنى أفرق بين الحلال والحرام ، بين الخطأ الإضطرارى والخطيئة التى لا تغتفر ، وان رحمة الله سوف تتسع لعبده الصابر الشكور .

لكنها كانت قد خرجت من حجرتى ساخطة دون أن تسمع بقية دفاعى عن نفسى . وبالتالى لم تستطع ان تقنع والدى بوجهة نظرى ، لأنه عاتبنى عدة مرات ولكن برفق . وكانت إحدى

هذه المرات فى حضور عمى ، الذى إنضم إلى صفى، وراح يذكر والدى بأيام شبابه المبكر ، عندما كان ينافس المرحوم فالنتينو فى غزواته المتعددة ، ولم يقلع عنها إلا حينما تزوج والدتى وهو فى الثالثة والعشرين .

الواقع أن والدى لم يحاربنى بعنف فى علاقتى بتلك المليونيرة الحسناء ، فقد لمس مع الوقت صدق عاطفتها ، وتصرفاتها المهذبة فى حضوره ، وتفانيها فى خدمتى وإسعادى ، وإحترامها له ومداعباتها اللطيفة معه فى إعزاز صادق . وكان وجهه يحتقن بالحياء عندما تصافحه وتصر على تقبيل وجنته وهى تهتف فى مرح لذيذ :

ـــ لازم ابوسك ياعمى .

فلا يسعه إلا ان يسلمها خده ، وضحكة خجلى تصل ما بين أذنيه . رغم أنه لم يكن يستسلم لقبلات بناته بمثل تلك السهولة . وكانت « م » بحكم اختلاطها بنا تعرف عنه هذا الحياء المفرط ، فتستغله فى مداعبته .

من حسنات والدى الملموسة أنه كان يقدر أى إنسان يخدمنى أو يحبنى . ولهذا كان يحترم نعمات ويقدرها ويستثنيها من ثوراته دون أفراد البيت جميعاً . وكان يفرح بلقاء صديقتى « م » ويحترمها ولا يستنكف من مجاملتها، فيصنع لها القهوة بنفسه ، بل و يقدمها إليها أحياناً فى رضا الأب الحنون الذى يسعد بخدمة إبنته أو زوجة إبنه ، فيشركها معه فى احتساء قهوته . وكانت هى تتأثر بمثل هذه

المجاملات الرقيقة ، ولا تجد تعبيراً عن امتنانها غير قبلة بارة على خده المحتقن .

ولعلى لا أبالغ إذا قلت إنه كان يحرص على عدم الاصطدام بى فى حضورها ، إلا إذا اختلفت معها وعنفتها ، فلا يسعه إلا أن ينضم إلى صفها ويهاجمنى مدافعاً عنها ، ومردداً إتهاماته لى بالإفتراء والجحود . وأحياناً كان يندمج فى هجومه والطبع غلاب . لكنها كانت تتدخل فى الوقت المناسب، فتعلن تنازلها عن حقها فى سماحة ورضا . ثم تمسح دموعها وتهتف فى عتاب مرح :

— حاسب ياعمى .. حضرتك اندمجت زيادة عن اللزوم .. المسألة لاتحتاج لكل هذا .. الحقيقة أنى أنا التى بدأت باستفزازه .

فيبهت أبى ، وتهدأ ثائرته ، ويخرج متمتماً :

— الحق علىّ أنا .. يا داخل بين البصلة وقشرتها ...ماينوبك إلا كسفتها .

الغيرة القاتلة :

وغالباً ما تنتهى المشكلة فعلاً عند هذا الحد ، ويصفو الجو ، لأن السحابة العابرة لاتكون فى الواقع مبنية على خلافات جوهرية .

كثيراً ماكانت تدور معاركنا على أسلاك التليفون أكثر

من مرة خلال اليوم الواحد ، ثم نتصافى قبل انتهاء المكالمة . وذلك لحدة طبعها وفورة عواطفها الثائرة ، وغيرتها العنيفة ، التى كانت من أبرز عيوبها . لكن خلافاتنا المتكررة سرعان ماتتضح سذاجتها وتفاهتها ، فتذوب فى حرارة حبنا الكبير .

لقد أتعبتنى حقاً هذه السيدة بغيرتها الحمقاء ، والمعروف أن علم النفس يفسر الغيرة بأنها مركب نقص يحس فيه الغيور بأنه غير كفء للاحتفاظ بحبيبه أمام منافسه . ولا أدرى كيف كان الشعور بالدونية ينتاب مثل تلك الأنثى الكاملة . . التى كانت تتمتع بميزات لا يتطاول إليها طموحى !! لكن هكذا كانت عقدتها السخيفة التى دارت حولها معظم خلافاتنا . وقد كانت لها نوادر غريبة فى هذا المجال تثير غضبى أحياناً فأثور ساخطاً . وغالباً ما كانت تثير إشفاقى ورثائى لدموعها المعذبة ، فأحاول إرضاءها وإثبات براءتى بالأدلة المادية .

من تصرفاتها المضحكة أنها ضبطت ذات يوم قطة صغيرة تنام مستكينة فى حجرى ، فأبدت اعتراضها لوجود القطة فى هذا الموقع الاستراتيجى . ظننتها تمزح ، فأخذت أداعب القطة وأربت على فرائها الناعم ، وإذ بصديقتى الحسناء تهجم عليها فى غضب ، وتنتزعها من مكانها الدافىء ، وتلقى بها على الأرض وهى تدمدم فى عصبية . ولم أتمالك نفسى من القهقهة من سذاجتها ، فقد كانت فى الواقع تحمل معنى أرضى فى نفسى غرور الرجل .

وإذا وجدت — فرضاً — مبرراً لغيرتها الحمقاء من حيوان دافىء متحرك ، فقد أذهلتنى غيرتها ذات يوم من جماد ! . كنت أتصفح صوراً فوتوغرافية لنجوم السينما تمهيداً لإعدادها للنشر فى المجلة . وكانت الصور مبعثرة على حجرى عندما دخلت صديقتى فى إحدى زياراتها . وإذ بها تتجهم فجأة ، وتهجم على الصور ، فتجمعها فى ثورة وتلقى بها على المنضدة المجاورة لى ، وهى تصرخ فى عصبية :

— أظن أن صور النساء مكانها الطبيعى هنا .. على المنضدة !

وليت غيرتها توقفت عند هذه الحركات المضحكة ، لكنها كانت تتخذ طابعاً بوليسياً فى أحيان أخرى ، عندما يتفتق ذهنها عن خطط شيطانية بقصد اختبار إخلاصى . فأحياناً كانت توحى لأختها بأن تغازلنى فى التليفون مدعية أنها معجبة ، ثم تبدى إعجابها باللوحة العارية التى نشرتها فى المجلة ، وتطلب منى فى لهجة لا تقاوم أن أرسمها مثل هذه الموديل ، فأرفض بالطبع — من باب الإخلاص — مؤكداً لها أنى رسمت تلك اللوحة من الذاكرة..

وهنا يبدو أنى اجتزت هـــذا الامتحان بنجاح مادمت قد صمدت لإغراء المعجبة المزعومة . فإن هذا هو نصف النجاح ، ولا تثبت براءتى الكاملة إلا عندما أعترف لها بتفاصيل المكالمة النسائية التى تكون هى على علم بها بالطبع . وويل لى لو نسيت — غير عامد — جانباً من الحديث . عندئذ كانت ثورتها

لاتقف عند حد . وغالباً ما كان إنتقامها ينصب على ذاتها ، وهى عقوبات تتراوح بين قطع أسلاك التليفون حتى لا تضعف أمام إغرائه وتطلبنى . . وأحياناً كانت تشرع فى الإنتحار . بل إنها نفذت تلك الفكرة المتهورة أكثر من مرة نجت منها بمعجزات ، بعد أن حطمت أعصابى فى كل منها خلال انتظارى لعودتها من المستشفى بعد إنقاذها من موت أكيد

كانت إحدى المحاولات الجنونية بصبغة اليود ، التى أحرقت حلقها وظل صوتها مبحوحاً عدة أيام قبل أن يسترد نبراته الموسيقية. وفى محاولة أخرى هددتنى بالانتحار إذا لم أقطع علاقتى بإنسانة معينة لاتربطنى بها إلا الأخوة البريئة ، فأبيت أن أخضع لتهديدها ، وأنهيت المكالمة غاضباً ناقماً . لكن القلق استبد بى لعلمى بتهورها ، فقررت أن أطلبها ، فإذا سمعت صوتها أضع السماعة دون أن أنطق بكلمة ، حتى لاتحس بقلقى فتستغل هذا السلاح لنزواتها . لكنى لم أسمع سوى صوت ابنتها . . التى رحبت بى فى مرح . وكانت تناديني « بابا صبحى » . ولما سألتها عن أمها قالت إنها فى حجرة نومها ، فطلبت أن تناديها . لكنها عادت بعد قليل تعلن أن أمها لاتجيب على طرقاتها المتوالية على بابها المغلق .

تملكنى ذعر هائل عندما أحسست بأنى السبب فى موتها ويُتم إبنتها . لم أجد بداً من مصارحة إبنتها بمخاوفى من أن يكون قد أصابها مكروه . وطلبت منها أن تكسر ضلفة الباب التى تضم لوحاً

من الزجاج الإنجليزى المعتم ، فا ندفعت الطفلة تنفذ طلبى قبل أن أشرح لها كيفية كسر الزجاج . كانت لهفتى قد انتقلت إليها وتجسمت فى قبضتها الصغيرة ، التى دفعتها دون تفكير فى اللوح الزجاجى فهشمته . . ومزقت جلدها . ومن الثغرة المسننة رأت أمها مسترخية على السرير وبجانبها على الأرض ثلاث أنابيب من الأسبرين . . فارغة ! ! .

أسرعت الإبنة تشرح لى باكية المنظر الرهيب ، فحاولت جاهداً أن أطمئنها وأهدىء أعصابها ، حتى أستطيع أن أستغلها فى إنقاذ الموقف . ثم طلبت منها أن تستدعى خالها الطبيب ليتصرف بما ينبغى ، وقد كان .

وهكذا انقذنى أخوها من تأنيب الضمير ، لأننى مهما إقتنعت بتهورها واندفاعها ، فلن أغفر لنفسى أنى كنت وراء هذا التهور ولو بطريق غير مباشر . فضلا عن فقدى إياها . . الذى كان يعنى أن أفقد الشعاع الوحيد الذى يضىء حياتى الجدبة ، وأفقد المنحة التى وهبنى الله إياها بسخاء ، وهى منحة عظيمة لم تكن تتوفر لغيرى . حتى من الأصحاء .

علمتنى الغيرة :

ومما زاد الأمور تعقيداً أننى أيضاً كنت أغار عليها بصورة مبالغ فيها . والواقع أنى لست غيوراً بطبعى ، أو على الأصح

لست مفرطاً فى الغيرة الحمقاء . بدليل أنى عشت — قبلها و بعدها — فى علاقات كثيرة على مختلف المستويات ، ولم أتصرف معهن بمثل تلك السخافات ، التى تجعلنى أخجل من نفسى كلما تذكرتها بعد خلاصى من أسر تلك العلاقة الجنونية .

كانت منذ البداية تبدى لى مزيداً من الطاعة والخضوع ، فلا تقدم على أى عمل قبل أن تستشيرتى ،ولو كان من أدق خصوصياتها . كأن تطلب موافقتى على استدعاء الطبيب لإبنتها مثلا . أو تستأذننى فى زيارة أختها . وإذا زارها رجل من أقاربها ، ولو مع زوجته ، تسألنى فى خضوع : هل أسمح لها بوضع المساحيق على وجهها ؟ .. إلى آخر هذه التصرفات المشروعة والتى تعتبر من الأمور العادية فى مثل وسطها الأرستقراطى .

كانت هذه الإستشارات تشعرنى فعلا بأهميتى ومكانتى . وكنت فى البداية أسمح بها بلا تردد . لكنى مع الوقت وتزايد سخافاتها ، اضطررت تلقائياً أن أندفع لمضايقتها بنفس السلاح ، لعلها تحس بمدى ما تسببه لى غيرتها من مضايقات . لكنها — مع الأسف — كانت تقبل أوامرى التعسفية فى بساطة ورضا ، وتطبقها رغم سخافتها بمنتهى الدقة ! . وكلما وجدتُ أن أوامرى المستبدة لا تجدى فى مضايقتها ، أزداد إمعاناً فى إنتقامى ، لكنها لم تتبرم يوماً أو تعترض ، بل كانت تنفذ تعسفى فى مزيد من السعادة . . لأنها كانت تعتبره دليلا على حبى لها وتعلقى بها !

حتى جاء وقت حرمتُ عليها استعمال المساحيق بتاتاً ، ومنعتها من الذهاب إلى الحلاق ، وحرمت عليها بعض ثيابها بحجة أنها ضيقة أو قصيرة أو فتحة الصدر فيها واسعة. وتماديت فى انتقامى، فحرمت عليها زيارة أفراد معينين من أسرتها أو استقبالهم فى بيتها ، فكانت تتورط من جراء ذلك فى مواقف منافية لأبسط قواعد الذوق واللياقة . ولما عرفتُ أنها مغرمة بصوت فريد الأطرش حرمت عليها سماعه ، لاعتقادى حينذاك أن الصوت أحد عناصر الشخصية ، فهى بهذا كانت تحب فريد الأطرش نفسه ، وهذا ما كان يثير غيرتى المريضة .

كنت أطلبها عدة مرات يومياً فى تفتيش مفاجىء، فأجدها دائماً بجوار التليفون . ثم وجدت أن هذه الطريقة سوف ترفع خانة المكالمات الزائدة فى فاتورة التليفون . فاتفقت معها على فكرة إقتصادية ، وهى أن أدير أرقام تليفونها ، ثم أضع السماعة قبل أن تصل هى إلى سماعتها . وبذلك تسمع جرساً قصيراً ، فتسرع بطلب نمرتى ، مرددة نفس الإشارة .

والأعجب من هذا ، أنها لم تكن فقط تسعد بغيرتى ، بل كانت تستفزنى من وقت لآخر بحكايات مختلقة عن شخص يطاردها ، أو قريب يغازلها ، فإذا ما وصلت ثورتى إلى قمتها هدأت اعصابها، وانطلقت تضحك بعد أن اطمأنت إلى حبى لها . وكان الحب فى مفهومها لا يقوم إلا على الأنانية وحب الذات .

التفاهم بالإيحاء :

رغم تلك المشاحنات والتفاهات من كلينا . فقد كانت تربطنا علاقة متينة لا تنال منها الزلازل والأعاصير ، بل وكان يسود بيننا التفاهم ، حتى كنت أقرأ أفكارها وتقرأ أفكارى ، بينما تفصلنا عشرات الأميال .

حاولت ذات ليلة أن أوحى إليها من بعيد كتجربة عملية على ظاهرة « التليباثى » التى قرأتها نظرياً . أطفأت نور حجرتى وركزت أفكارى فيها . ورحت أوحى لها أن تطلبنى بالتليفون . فلم تستجب ، أو هكذا خيل لى . فاعتقدت أن الإيحاء لم يكن واضحاً . ورأيت أن يكون إيحائى مفصلا . فتصورتها « وكنت أستطيع أن أرسم صورتها من الذاكرة بسهولة » تصورتها وهى تأخذ التليفون إلى سريرها .. إستجابة لأمرى « والإيحاء يكون أقوى إذا كان فى صيغة الأمر .. ثم تصورت يدها تدير أرقامى واحداً بعد الآخر ، وتمثلت بخيالى قرص التليفون وهو يدور . ثم كررت هذه الأوامر المفصلة مرتين . . وثالثة . . ثم انطلق جرس تليفونى ، فرفعت السماعه بلهفة . . . وإذا بصوتها العذب ينساب إلى سمعى مشوباً بشىء من الدهشة .

لم أصارحها بتجربتى فى أول الأمر ، وسألتها فى دهشة مصطنعة :

– ألم تنامى بعد ؟

ـــ كلا . . لقد كنت فى الحمام . .

ـــ ولماذا طلبتنى إذن ؟

ـــ لا أدرى . . شعرت برغبة جارفة فى أن أسمع صوتك ، فاختصرت حمامى وخرجت لأطلبك .

قلت متمادياً فى تجربتى :

ـــ وكيف طلبت نمرتى ؟

ـــ ماذا تعنى ؟ . . طلبتها كالمعتاد . . لماذا تسأل ؟

قلت باهتمام :

ـــ أرجوك . . أذكرى لى خطواتك بالتفصيل قبل أن تطلبينى .

ولد هشتى الطاغية سمعتها تسرد لى نفس الحركات التى أوحيت إليها بتفاصيلها . ولما سألتها لماذا اتبعت تلك الخطوات بالذات رغم أنها ليست مألوفة لديها ، قالت :

ـــ لا أدرى . . كل ما أذكره أنى شعرت فى الحمام برغبة قوية لسماع صوتك ، وتصرفت بعد ذلك تلقائيا .

شجعتنى هذه التجربة على إجراء مزيد من التجارب، لاختبار مدى قدرتنا على قراءة الأفكار رغم بعد المسافة . وأذكر من تلك التجارب أنى كنت اغمض عينى أثناء اتصالنا التليفونى ، وأحاول أن أقرأ كلمة تضمرها فى نفسها ، أو تمسك شيئاً بيدها وتركز تفكيرها فيه ، وأحاول أن أسترخى تماما ، مستعداً لأول فكرة تطرق رأسى . وكانت النتائج الصحيحة حوالى ٧٥ فى المائة .

وأحياناً كنت ألتقط كلمة فى رأسها محرفة أو تنقص حرفاً ، كما حدث عندما ركزت تفكيرها على الرقم تسعة باللغة الفرنسية « neuf » فالتقطتها أنا بمعنى بيضة « œuf » أى أنه قد تغير حرف من الكلمة .

أعتقد أن صلتنا القوية وعاطفتنا الجياشة واندماجنا الروحى ، كل هذه الأحاسيس المشتركة كانت تسهل عملية تبادل الأفكار على البعد ، سواء كنت أنا المرسل وهى المستقبلة كما فى التجربة الأولى ، أو العكس كما فى الثانية .

ومن تصرفاتنا الساذجة التى كنا نحرص عليها . أننا نلتقى بأفكارنا لمدة خمس دقائق مرتين يومياً فى تمام العاشرة صباحاً والسادسة بعد الظهر . فنغلق عيوننا ويركز كل منا تفكيره فى الآخر ، ويناجيه بأبلغ آيات الحب والهيام . أما فى الصيف عندما تضطرها الأسرة لمصاحبتهم فى المصيف ، فكنا نلتقى فى نفس الأوقات ، مع اتجاه كل منا بوجهه إلى نقطة وهمية فى السماء نحددها جغرافيا حسب موقع المصيف . فإذا كانت فى الاسكندرية أتجه أنا إلى الشمال الغربى ، وتتجه هى إلى الجنوب الشرقى . . وهكذا . وكانت هذه اللقاءات ترضينا إلى حد بعيد وتعوضنا عن مرارة الفراق !

فكرة الزواج :

كان لا بد لمثل هذه العلاقة الوطيدة أن تكلل بالزواج .

وكانت هذه فكرتها منذ أول يوم تصارحنا فيه بحبنا . لكنى لم أصدق العرض فى البداية للفروق الجوهرية الشاسعة التى كانت تفصل بيننا ، والتى ظلت قائمة طوال أربع سنوات ، حتى بعد أن تأكدت من صدق عاطفتها ، وبأنها شخصياً لا تحس بتلك الفروق ولا تقيم لها وزناً ، بل كانت تشعرنى فى رضا وسماحة بكل ما للرجل من سلطة وسيادة على بيته وأنثاه .

كانت تتفانى فى خدمتى ، وتلح فى أن تتولى تلبية مطالبى بدلا من نعمات أثناء زيارتها لى . وتحتج بشدة وتلمع عيناها بالدموع إذا أصررت على أن أجنبها بعض الخدمات المحرجة .

كان التفاوت المادى كبيراً بين دخلى الذى لا يزيد عن بضعة جنيهات تعد على أصابع اليد الواحدة ، وبين إيرادها الذى يقدر بعدة مئات من الجنيهات شهرياً . ولم يكن أمامى غير احتمالين أحلاهما مر . إما أن تنزل هى إلى مستوى دخلى وهذا مستحيل ، لأنه لا يكفى حتى أجر المسكن ، وإما أن أعيش عالة عليها ، وأقتنع بأن « فلوسى وفلوسها واحد » حسب قولها . وهذا مستحيل أيضاً لأنه يتنافى مع أبسط مبادئ الكرامة . . تلك الكرامة التى كانت تشكل العنصر الثانى الذى تدور حوله خلافاتنا دائماً .

أذكر أنها شعرت ذات يوم بالأزمة المالية الطاحنة التى كانت تجتازها مجلة « قصتى » فى شهورها الأخيرة . فجاءتنى فى اليوم التالى ومعها مائة وخمسون جنيها فى مظروف صغير ، دسته تحت وسادتى

وهي تستحلفني في ارتباك ألا أرفض هديتها ولو على سبيل القرض. ورغم احتياجي الشديد لذلك المبلغ الذي كان كفيلا بإنقاذ المجلة، فقد ثرت لكبريائي، وشعرت بمنتهى الضآلة لمجرد تفكيرها في هذا العرض، وأقسمت عليها أن تعيده إلى حقيبتها. ولم تجد بداً من تنفيذ أمري، لكنها لجأت إلى الأخت نعمات سراً، وأعطتها المبلغ على ألا تظهره لي إلا بعد إنصرافها.

كانت مضحية بغضبي عليها في سبيل أن تنقذني من الأزمة، لكن نعمات — وهي تعرف طبعي جيداً — خشيت أن تتحمل تلك المسئولية، فصارحتني بالحقيقة. وأقسمت بإيمان مغلظة أن أعيد المبلغ إليها برجوع البريد إذا فكرت أن تتركه بوسيلة أو بأخرى.

وكانت هناك عقبات أخرى تحول دون زواجنا، منها أن أسرتها الأرستقراطية كانت ترفض كل تلميح بالفكرة كلما حاولت أن تجس نبضهم بلباقة، خاصة وأن أكثر من شاب من أبناء عمومتها ومعارف الأسرة تقدموا لخطبتها بعد وفاة زوجها، لكنها كانت ترفضهم بحجة أنها ترفض فكرة الزواج من أساسها.

ومن العقبات أيضاً أن أهل زوجها المتوفى كانوا يهددون بضم إبنتها إليهم إذا تزوجت، وهذا حق شرعي ظل مسلطاً على رقبتها ورقبتي أيضاً، ففضلا عن حبي للإبنة الرقيقة، لم أكن أتصور أن أحرم أماً من إبنتها، ليس تفادياً لعذاب ضميري فقط، بل لأني تصورت أيضاً أن زوجتي سوف تتخيلني مستقبلا كوحش جبان

حرمها من لذتها ، إذ أنني على الأقل كنت السبب المباشر في هذا الحرمان .

لهذه الأسباب مجتمعة لم نتزوج ، وإن كان أحدها يكفي للحيلولة دون إتمام زواجنا ، وتتويج حبنا الكبير بالنهاية السعيدة .

وفي نوبة يأس قررت أو أضع حداً لتلك العلاقة العقيمة التي تشوي قلبينا دون أي أمل في الاستقرار . وتصورت أني لو تخليت عنها فسوف تجد المستقبل عريضاً أمامها ، وترضى بأحد العروض السخية التي ترفضها من أجلي ..

لم يكن الحل صعباً . إن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من تمثيلية متقنة تقنعها بخيانتي ، عندئذ لن تستطيع أية قوة أن تقنعها بالبقاء معي . وقد خدمتني ظروف معينة في بداية سنة ١٩٥٩ ، فاستجمعت شجاعتي وبكل ما أكنه لها من حب صادق ، وإخلاص نادر .. وجهت إليها ضربتي المحكمة ، حتى تفيق من عاطفتها المجنونة ، وتعيش في بيئتها وواقعها .

نجحت الخطة ، وحققت أغراضها ... فنجت هي ، وتحطمت أنا !! ولكن كيف حدث هذا ؟ وماذا ترتب عليه من نتائج ؟

لقد كان ذلك في أوائل سنة ١٩٥٩ كما ذكرت . ومازالت هناك أحداث هامة قبل هذا العام لم أتحدث عنها ، وسوف أعود بعدها إلى حديث الحب والمغامرات العاطفية .

انتعاشة الأمل

استمرت فترة اللامبالاة حوالى عشرة شهور كما ذكرت ، وعلى وجه التحديد إلى أوائل أبريل سنة ١٩٥٧ ، حين أغرانى أصدقائى بالاشتراك فى مسابقة نادى القصة . وهنا خطر لى سؤال موضوعى صريح ...

ترى أين مكانى بين الأدباء ؟ وهل إنتاجى يعتبر أدباً أصيلا من الناحية الفنية ؟

كنت حتى تلك اللحظة لا أجد إجابة قاطعة على سؤالى . فإن ما نشرته مجاناً فى مجلات الآخرين لا يمنحنى جواز مرور شرعى إلى صفوف الأدباء ، لأن أصحاب تلك المجلات ليسوا أدباء أو نقاداً حتى يتسنى لهم تقييم إنتاجى . حتى ولو توفرت لهم المقدرة على الحكم الصحيح ، فقد كانت حاجتهم إلى مساعداتى المجانية كفيلة بأن تجعلهم يتغاضون عن ضعفى مرغمين .

أما قصصى القليلة التى نشرتها فى مجلتى الخاصة ، فلم تكن تحمل أى دليل على جودتها ، فقد كنت أنا الآمر الناهى فى مملكتى الصغيرة دون معقب أو رقيب ، ولا عبرة بكلمات الإطراء التى سمعتها من

زملائى ، فهى ليست معصومة من النفاق لصاحب السلطة ، والذى بيده النشر والبتر . أما إعجاب القراء فى رسائلهم ، فكان غالباً ما يعقبه طلب معين مما يجعل شهادتهم مجرحة .

إذن فليست أمامى وسيلة قاطعة إلا بالاحتكام إلى هيئة محايدة.. وعلى مستوى أدبى رفيع . وهذا لا يتوفر إلا فى مسابقة مفتوحة لا يعرف المصححون فيها إلا أرقاماً سرية فوق قصص منسوخة على الآلة الكاتبة . شعرت فى البداية برهبة الامتحان ، وما قد يتكشف عنه من خيبة أمل أنا فى غنى عنها . ويكفينى ما كنت أعانيه من ضياع . وفكرت فى ألا أغامر بهذا الاختبار الحاسم ، وأعيش على ذكريات ما أعتقد أنى حققته من نجاح .

إننى الآن — وأنا أواجه الحقائق المجردة — أعترف فى غير تواضع مصطنع ، أن القصص التى نشرتها قبل عام ١٩٥٧ لم تكن تشفع لى فى حمـــل لقب أديب . فقد كنت ما أزال متأثراً بالروايات البوليسية ، وأنحو على نهجها قصصاً معقدة ذات حبكة .. وغموض . ومفاجأة تحبس الأنفاس . حتى أسلوبى كانت فيه مبالغة وألفاظ رنانة هاتفة من نوع . . ياللهول ! وارحمتاه ! . . الخ . ولو دخلت بإحداها مسابقة القصة لجاءت النتيجة مخيبة لآمالى ، ومحطمة لذكرياتى الجميلة التى كنت أعيش على إجترارها كلما داهمنى إحساسى بالضياع .

لا أدرى ماذا حدث بالضبط خلال شهور اللامبالاة العشرة

كل ما أذكره أنى خرجت منها إنساناً آخر ، يتأمل ويفكر وتتصارع فى أعماقه أحاسيس إنسانية ، وتتراءى له قيم جديدة تلح على قلمه أن يسلجها .

يبدو أن الأعمال الإدارية كانت تشل مواهبى وتسلب منها الروح الفنية . فتخرج أقرب إلى الصناعة الذهنية منها إلى الأحاسيس الإنسانية . كانت أفكارى تدور فى فلك مادى مع أرقام التوزيع وأسعار الورق ، وحسابات الضرائب . ولكن عندما أخليت رأسى من كل المسئوليات المادية ، بدأت أفكارى تصفو من كل الشوائب الإدارية ، ووجدتنى فجأة أكتب شيئاً جديداً . . جديداً فى مضمونه وأسلوبه وصياغته . ووجدتنى أكتب بغزارة وسهولة ، حتى أنى كتبت فى شهر واحد سبع قصص . وهذا رقم قياسى لم أصل إليه فيما بعد . كنت أغترف من نبع جديد بكر يزخر بالمشاعر البشرية، أعرضها ببساطة دون تعقيد ولا مفاجآت بوليسية أو مبالغات مفتعلة .

كان أول تعليق على إنتاجى الجديد هو ما سمعته من الصديق إبراهيم حمادة ، الذى هتف فى فرحة صادقة ، ومازلت أذكر ألفاظه حرفياً ، قال :

ـــ إنها طفرة عجيبة تفصلها عن إنتاجك القديم هوة سحيقة!

لو لم أكن أثق فى إخلاص إبراهيم حمادة وعلمه ونضجه ،

لظننت أنه كان يسخر منى . لكن ملامحه كانت تنطق فعلا بدهشة صادقة .

شجعتنى هذه الشهادة الحماسية لدخول المسابقة بأربع قصص جديدة هى كل إنتاجى فى شهر إبريل . ووضعت يدى على قلبى فى انتظار النتيجة .

نهاية النحس :

لقد تكلمت فى بداية هذا الكتاب عن الحظ والنحس .. وعدم إيمانى بهذه الكلمات الجوفاء التى يغطى بها الفاشلون تقصيرهم . وتحدثت كذلك عن ظاهرة عجيبة لا أستطيع أن أنكرها ، أو أهمل تعليلها رغم عدم إيمانى بها أصلاً ، لأنى لا أجد لها تحليلا علمياً مقنعاً . !

تلك الظاهرة هى نحس المكان ، فقد لاحظت أن الدنيا أدارت لى ظهرها منذ سنة ١٩٤١ حيث بدأ المرض وما تبعه من معوقات وحرمان ، تلك هى السنة التى أقمنا فيها بذلك البيت القديم . ثم ابتسمت لى الدنيا فجأة فى كل نواحى الحياة كما سيجىء فيما بعد من بداية عام ١٩٥٨ ، وهو نفس التاريخ الذى تركت فيه ذلك البيت المنحوس !

أفلا تثير هذه التواريخ المحددة شيئاً من التساؤل ؟

وقد يخطر بالبال سؤال وجيه ، ولماذا إنصب النحس على

رأسى أنا فقط ؟ والواقع أنى درست تاريخ ذلك البيت منذ عشرات السنين قبل أن نسكنه ، فوجدت أن كل من تركه كانت تتبدل حياته من عسر إلى يسر ، وكل من بقى فيه لم يتغير حاله إن لم يزدد سوءاً . وأرجو المعذرة إذا تحرجت من ذكر نماذج حية تثبت قولى ، لأنها تمس مشاعر حساسة لهؤلاء التعساء. ولا أذكر حالة واحدة ابتسم لها الحظ فى ذلك البيت العجيب . ولم أعرف سبباً مقنعاً يفسر هذا النحس الشامل . وقد سمعت من شيوخ الحى أن هذا البيت مبنى على مقابر قديمة ، فلم أصدق حتى جاء يوم بيعت فيه قطعة الأرض الملاصقة للبيت ، وعندما أراد المالك الجديد أن يبنى عليها بيتاً ، أخرج العمال من باطن الأرض مجموعة كبير من الجماجم والعظام !

فهل هى أرواح الموتى التى تنتقم من سكان البيت المقام فوق قبورهم ؟.

لا أدرى ...

وقد لاحظت نظرية نحس المكان فى جهات أخرى مما لا مجال لتعداده ، لكنى أكتفى بذكر نموذج واحد على سبيل المثال .

كان فى ميدان فم الخليج دكان ذو موقع ممتاز . لكنه كان نحساً على كل من يتخذه محلا لتجارته . ومن العجيب أن تناوبت عليه هيئات ورجال أعمال ناجحين ، لكن النحس كان يغلبهم بعد شهور قليلة . منهم صاحب أكبر مخابز فى المنطقة . ومنهم شركة الملح

والصودا ، ومنهم صاحب أكبر صيدليات فى القاهرة ، وغيرهم ! وبالطبع كان النحس ينصب على هذا الفرع بالذات . . رغم استمرار نجاحهم بعيداً عنه .

جوائز نادى القصة :

فى نفس اليوم الذى انتقلت فيه إلى البيت الجديد ، كان نادى القصة يقيم حفلا لتسليم الجوائز للفائزين ، كان ذلك فى أوائل ديسمبر ١٩٥٧ ، ولم أذهب بالطبع ، فلم يكن إنتقالى ميسوراً إلا بعربة الإسعاف ، وليس من المستساغ أن أذهب إلى الحفل فى هذا الموكب التمثيلى حتى أستدر شفقة الحاضرين . كذلك لم تكن النتيجة ، كما كنت أرجو ، فقد فزت فى ذلك العام بقصتين إحداهما حصلت على المجموع السابع بين المتسابقين ، والأخرى حصلت على المجموع الثامن ، ولكن نظراً لوجود خمسة مجاميع مكررة ، فقد جاء ترتيب إحداهما العاشرة مكرر ، والأخرى كانت الثالثة عشرة مكرر ، ولكن هذه النتيجة شجعتنى على تكرار التجربة لأن عدد المتسابقين فى ذلك العام كان ٦٩٢ متسابقاً .

وفى ١٢ ديسمبر ١٩٥٧ صدرت مجلة « صباح الخير » وفيها مقال بعنوان « الفائز فى مسابقة القصة القصيرة ينتظر دعوة من خروشتشوف » . وكان كاتب هذا المقال قد زارنى فى بيتى بعد توزيع الجوائز ، وعرف من حديثى أن أمنيتى الكبرى هى السفر

إلى روسيا حيث أن الطب متقدم هناك ، فضلا عن أنه مجانى . وكانت الجرائد تردد من آن لآخر أخباراً عن دعوات من الزعيم الروسى لبعض المرضى المصريين لعلاجهم فى روسيا . كذلك كان الرئيس عبد الناصر يدعو بعض الشباب الروسى لزيارات فردية لمعالم بلدنا تحقيقاً لرغباتهم .

جاء فى مقال صباح الخير :

« إن صبحى الجيار يعيش حياته طريحاً .. مصلوباً بلا مسامير وبلا حديد وبلا خطيئة. ولكن هناك أمل فى علاجه . إن روسيا تستطيع أن تحقق له هذا الأمل ، إنه يحلم بـــدعوة من نيكيتا خروشتشوف ، دعوة يعالج بعدها فى روسيا . إن عمليات تجرى لأمثاله ، ويضعون لهم مفاصل من الفيتاليوم ويعودون بعدها للسير » .

لم يجد هذا النداء الاستجابة المرجوة ، لكنه كان — على أى حال — حلقة فى سلسلة الدعاية التى حققت الهدف فى النهاية . . . ولكن بصورة أخرى كما سيجىء فيما بعد . وأرجو ألا أثقل عليك كثيراً — يا أخى القارىء — إذا نقلت لك من وقت لآخر ، فقرات مختصرة مما كانت تنشره الصحف ، حتى أنقل إليك صورة حقيقية للخطوات المتتالية التى قامت فيها الصحافة والإذاعة بدور رئيسى فعال لتحقيق أمنيتى فى العلاج بالخارج .

وفى عدد يناير ١٩٥٨ نشرت مجلة «العالم العربى» مقالا بعنوان

«البطل» جاء فيه : « ... سلب منه المرض كل شيء بالتدريج.. وبقى له من الدنيا شيئان إثنان : عقل يفكر ، وقلب ينبض . وكان عقله قالباً صبت فيه مادة نادرة إسمها العبقرية ، وكان قلبه نبعاً سخياً لمعنى كبير إسمه الحب ... الخ » .

وفى نفس الشهر نشرت مجلة « أخبار المجتمع » وكانت تصدر باللغتين العربية والإنجليزية ، نشرت صورتى مكبرة على الغلاف الإنجليزى ، وكتبت تحتها بالإنجليزية « ١٧ سنة ... على ظهره » وبداخل العدد صورة أخرى لصباى قبل المرض مع مقال بالإنجليزية بعنوان « قال له الأطباء ... لا أمل » تكلم فيه المحرر عن الصبر والكفاح والعلاجات الفاشلة ، والتثقيف الذاتى ، ثم ختم التحقيق الصحفى بحديث عن لسانى يعبر عن أمنيتى الكبرى وهى العلاج فى روسيا الصديقة .

قبل هذا وذاك كانت مجلة « السودان » قد نشرت فى عددها الصادر فى ١١ مارس ١٩٥٦ تحقيقاً صحفياً عنى فى صفحتين كبيرتين بالصور ، بعنوان « فنان صحفى ... فى السرير » .

كانت هذه المجلات الثلاث معروفة فى ذاك الوقت ، ولكنها بالطبع لم تكن فى مستوى مجلات دار الهلال ، والأهرام ، وأخبار اليوم ، وروزاليوسف ، والجمهورية ، والتحرير ... التى تحركت فيما بعد بحماس شديد . وكانت تتتبع خطواتى وأخبارى . . التافه منها والجاد ، بل كان بعض الزملاء يختلقون أخباراً لا أصل لها . ولما

زادت هذه الأكاذيب ، اضطررت أن أفرد لها صفحة خاصة في أرشيف القصاصات ، الذي أنقل منه الآن هذه التواريخ والفقرات .

الرسم في « الجيل » :

في صحوتي الجديدة ، بعد فترة اللامبالاة ، بدأت نشاطي في الرسم جنباً إلى جنب مع نشاطي الأدبي . ورسمت عشرات الرسوم الكاريكاتير ، التي دفعت بها إلى المجلات الكبرى في دار الهلال ، وروز اليوسف، وأخبار اليوم .

إن مثل هذه الدور لا يغريها سلاحي السابق ، أي الرسم المجاني ، الذي كان يغري أصحاب المجلات الصغيرة . كذلك كان لديهم من الرسامين المحترفين الممتازين ، عدد كبير يسد الطريق أمام الوافد الجديد ، الذي لا يملك حتى الدفاع عن نفسه وإنتاجه أمام الرسامين الموظفين في تلك الدور ، والملزمين بتغطية الأعمال الفنية في مجلاتهم ، كذلك أصطدمت بالعقبة الرئيسية في حياتي العملية ، وهي عدم ثقة رؤساء التحرير في كفاءتي على انجاز إحتياجاتهم السريعة بالمراسلة ...

أخيراً أمكنني أن أتصل بالأستاذ موسى صبري رئيس تحرير « الجيل » عن طريق بعض أفراد أسرة « قصتي » الذين يعملون بها . وتعهدوا له بسرعة توصيل إنتاجي إليه عن طريقهم شخصياً ،

وعلى مسئوليتهم الخاصة . وعـــرضوا عليه بعض رسومى الـكاريكاتير ، فأعجب بها ، لـكنه أبدى إعتراضاً وجيهاً ، إذ قال إن ريشتى متأثرة بريشة الرسام رخا ، ومادام عندهم النسخة الأصلية وهو الفنان رخا شخصياً ، فلا داعى للنسخة المقلدة .. وهى أنا . وطلب منى أن أغير أسلوبى فى الرسم حتى تـكون لى شخصية مستقلة .

اقتنعت برأيه المعقول . . وبدأت على الفور سلسلة من التجارب الإبتكارية للتحرر من أسلوب رخا . ولم أجد صعوبة كبيرة فى الرسم بأساليب مختلفة مبتـكرة ، واتضح لى أنى لم أكن عاجزاً عن تغيير أسلوبى المـكتسب من تقليد رخا فى بدء حياتى الفنية ، بل لعلنى كنت حريصاً على التمسك بتلك الملامح التى أعجبت بها منذ فترة طويلة ، وجرى بها قلمى مرات عديدة حتى أصبحت جزءاً من شخصيتى . مثلى فى ذلك كمثل طبيب رأى أستاذه يجرى عملية جراحية عدة مرات ، فأعجب بها ودرسها وتمرن عليها ، وبذلك ضمها إلى جملة حصيلته من المعلومات الطبية .

هذا الدفاع كان يقنعنى فى المـاضى بحقى فى تقليد الغير، بل لعلى كنت أفخر حينذاك بمهارتى فى محاكاة الفنان العملاق . ولـكن عندما بدأت شخصيتى الفنية والأدبية تتبلور ، وأخذت الصحف تردد اسمى كموهبة صاعدة، شعرت فعلا بضآلة ريشتى المقلدة مهما بلغت درجة براعتها . لهذا تقبلت راضياً نقد رئيس تحرير « الجيل » .

بعد فترة من التمرين الشاق خرجت بأسلوب متطور ، يجمع بين الفكاهة والناحية الجمالية ، وهى التى يتميز بها رخا عن بعض الرسامين الذين يظنون أن الكاريكاتير ليس إلا التشويه والقبح .

وكان الأسلوب الجديد بعيداً كل البعد عن أى أسلوب آخر سواء فى مصر أو فى الخارج .

ما كاد رئيس التحرير يرى النماذج الجديدة حتى وافق عليها فى الحال ، لكنه اشترط شرطاً آخر ، وهو أن تتناول الفكاهات المرسومة التعليق على الأحداث الجارية . فنفذت شرطه على الفور .. وبدأت أتصفح الجرائد اليومية والمجلات ، وأستخرج منها الأحداث الهامة وأعلق عليها بفكرة مرحة ، ثم أوضحها بالرسم محاولا أن تقوم الخطوط المعبرة بشرح الفكرة الساخرة بأقل كلمات ممكنة . . أو بدون كلام .

وفى ٧ أكتوبر سنة ١٩٥٧ ظهرت مجلة الجيل وبها ثلاثة رسوم كاريكاتيرية متطورة موقعة بإسمى . حتى توقيعى المغرور الذى كان يبتلع مساحة كبيرة من الصورة ، غيرته إلى توقيع مختصر يقتصر على لقب « الجيار » ، بعد أن كنت أوقع باسمى كاملا . . تظهر فيه كلمة « الجيار » كبيرة فى خط ديوانى محتضنة « صبحى » فى وسطها ، وكأنها ماركة مسجلة لزجاجة مياه غازية !

خيل لى أنى وصلت إلى القمة باقتحامى أبواب قلعة أخبار اليوم . ورحت أعمل فى همة وتركيز ، وأرسم كل أسبوع عشر أفكار

مرحة ، حتى يختار منها رئيس التحرير ثلاثاً أو أربعاً ، واهتممت جداً بمواعيد التسليم حتى أثبت لهم أن بعدى عن إدارة المجلة لا ينتقص من كفاءتى. بل وكنت أبالغ فى دقة المواعيد حتى ألفت أنظارهم إلى هذه النقطة بالذات ، التى كانت أكبر عقبة تتحدى مستقبلى .

ولما كنت بطبعى شديد الحرص على وعودى ومواعيدى ، فقد تيسرت لى هذه الدقة التى صارت — حتى الآن — إحدى مميزاتى الواضحة ، التى أكسبتنى ثقة لاحد لها مع الجهات التى أتعامل معها ، خاصة عندما عملت فيما بعد مع أجهزة دقيقة كالإذاعة ، التى تستدعى مزيداً من الحرص على مواعيد التسجيل .

لقد خلقت من قيودى ميزة تجعلنى أهلا للمسئوليات المفاجئة ، التى قد يعجز عنها غير المقيدين . فليس أسهل على معد البرنامج الإذاعى من أن يرفع سماعة التليفون، فيجدنى حتماً على الطرف الآخر فى أى وقت . فنتفاهم على المطلوب وموعد التسجيل . وبعد ساعات معدودة تكون سكرتيرتى أو الساعى قد حمل إنتاجى إليه فى استديو التسجيل .

لم تستقر أقدامى طويلا فوق سطح القمر ، فسرعان ما شعرت بأن إنتاجى غير مرغوب فيه . وتكدست رسومى فى أدراج سكرتير التحرير ، ثم علمت من أصدقائى هناك أن جهوداً حاقدة تبذل فى الخفاء لعرقلة طريقى . . وبتر هذا الفرع الدخيل على دوحة

أخبار اليوم ، وأذهلتني الدهشة من بعض النفوس البشرية التي تدفعها الشراهة إلى احتكار الميدان ومحاربة كل منافس جديد . وكانت هذه إحدى مساوىء الإقطاع الفني في ميدان الصحافة ، قبل تأميمها لحساب الشعب .

مجلات أخرى :

لم تتوقف عجلة طموحي وكفاحي ، فطرقت أبواب مجلات أخرى كثيرة، واستطعت أن أرسم في إثنتين منها . إحداهما «أخبار المجتمع » التي نشرت تحقيقاً عني بالإنجليزية ، وقد رسمت فيها من ديسمبر سنة ١٩٥٧ إلى أبريل سنة ١٩٥٨ ، والأخرى « القوات المسلحة » ، التي رسمت فيها من فبراير ١٩٥٨ إلى أبريل ١٩٥٨ أيضاً .

وفي أبريل توقف نشاطي في المجلتين ، فقد ظهر أمامي أمل جديد للعلاج ، وانتقلت إلى المستشفى ، حيث لم يكن في استطاعتي أن أمارس الرسم هناك .

في مستشفى الجمهورية :

تحمس بعض أصدقائي من أسرة « قصتي » الذين انضموا إلى « أخبار اليوم » ورسموا خطة لعلاجي على نفقة الدار ، طالما كان السفر إلى الخارج متعذراً . واستطاعوا أن يقنعوا رئيس تحرير « آخر ساعة » بصفقة مغرية تتبنى فيها المجلة علاجي على أن تحتكر

نشر خطوات العلاج الذى سينتهى بمعجزة الشفاء .

عهد بالفكرة إلى الزميل محمد عبد الحميد . الذى كان عليه أن يسجل كل خطوة بكل دقائقها وصورها ، إبتداء من تحركى بعربة الإسعاف من بيتى . . إلى داخل غرفة العمليات . . . إلى آخر صورة وأنا أغادر المستشفى ماشياً على قدمى . على ألا ينشر منها شيئاً قبل أن تتم المعجزة فعلا ، حتى لاتصاب المجلة والقراء بخيبة أمل .

بدأ التنفيذ بعرض الفكرة على كبار جراحى العظام بالقاهرة ، واستشارتهم فى مدى نجاحها . وأسفرت الجولة عن موافقة الدكتور محمد عبد الله على إجراء العلاج متطوعاً . وأبدى استعداده لإقناع إدارة مستشفى الجمهورية بتخصيص حجرة لى دون مقابل ، كذلك الأدوية وحجرة العمليات نظير الدعاية التى ستجنيها من نشر الموضوع فى « آخر ساعة » الواسعة الإنتشار . لكنه طلب أن يفحصنى أولاً قبل أن يعد بأى أمل .

زارنى الدكتور محمد عبد الله بصحبة صديق الصحفى . وفحصنى بدقة ، وأطلع على بعض صور الأشعة ، ليعرف مدى التآكل فى المفاصل ، وما إذا كان التيبس المفصلى تيبساً عظمياً أو ليفياً . وكان الطبيب الأمريكى قد قرر أنه تيبس ليفى ، أى أن الأربطة المحيطة بالمفصل قد تليفت ، وهذه الحالة يسهل علاجها . أما التيبس العظمى فهو إلتصاق تام بين العظمتين بعد تآكل غضاريف المفصل .

وعندما وجهت إليه السؤال ، أكد على الفور أنه التصاق عظمى تام . فبدأت أناقشه فى نوع العمليات التى ينوى إجراءها . وعندما لاحظ أن لدى فكرة واضحة عن كل ما يمكن إجراؤه من عمليات المفاصل ، راح يتبسط معى شارحاً وجهة نظره ، مستعيناً برأيى الخاص فى الوضع الذى أرتضيه لنفسى . فإن الشفاء الكامل مستحيل طبياً . وكل ما فى استطاعة الجراح أن يخلخل مفصلا هنا ، ويثبت مفصلا هناك ، ويفرد ركبة أو يثنيها ، وكلها محاولات ميكانيكية كى تكسبنى وضعاً مريحاً أفضل من وضعى الراهن .

كان من الممكن خلخلة أحد مفصلى الفخذين ، إما بتركيب غطاء من الفيتاليوم على رأس عظمة الفخذ ، حتى يمنع التصاقها فى الفراغ الحرقفى ، أو بتركيب رأس كاملة لعظمة الفخذ بعد استئصال الرأس المتآكلة ، أو بقطع عنق العظمة وتركها سائبة فتتكون حولها ـــ مع الوقت ـــ أنسجة ليفية تثبتها فى مكانها الجديد . وكل هذه العمليات تكسب مفصل الفخذ حركة محدودة لكنه لا يعود ثابتاً تماماً بحيث يتحمل الجسم فوقه ، لذلك يجب تثبيت الفخذ الآخر فى وضع مستقيم مع الجسم ، وكذلك تثبيت الركبة فى وضـــع يجعل الساق كلها ثابتة كدعامة للجسم حتى لا يفقد توازنه .

يهدف هذا الحل إلى تمكينى من السير على عصا فى خطوات قصيرة بطيئة ، ولكنه يمنعنى من الجلوس ، لأن نصف جسمى

سيكون ثابتاً فى خط مستقيم لا يتشكل بوضع الجلوس . فكأنى حكمت على نفسى بالوقوف أو النوم ، وهما وضعان لا يمكنانى من الكتابة أو الرسم أو الأكل .. لهذا رفضت تلك الفكرة بعد تفكير طويل وموازنة بين الأرباح والخسائر .

أما الوضع الثانى ، فهو أن يخلخل مفصلى الفخذين ، فتتاح لى جلسة مريحة تماماً على كرسى متحرك ، أو كرسى عادى، كذلك يتاح لى النوم على جنبى . ولكن عيب هذا الحل هو طريقة إنتقالى من السرير إلى الكرسى . ففى هذه الحالة سأحتاج إلى شخصين يحملانى إلى الكرسى ، بينما أنا بغير عمليات أحتاج لشخص واحد مدرب يسندنى على العكازين حتى أدور فى مكانى متعمداً على ساقى المتصلبتين . ثم أجلس على الكرسى المرتفع ، أو على الأصح أستند إليه ، فإن جسمى الآن نصف مقرفص ، بحيث يسمح لى بنصف جلسة ونصف وقفة ونصف نومة . وهو الوضع الذى نصحنى به الطبيب فى بداية لمرض ، ولم أندم عليه .

قلت الدكتور محمد عبد الله إن هذه الأوضاع عرضت علىّ من قبل ، فرفضتها لأن وضعى الحالى أفضل منها . فقال إنه لم يستقر بعد على فكرة معينة ، لكنه سيحاول فى البداية أن يعالجنى بالتدليك والتمرينات الرياضية والادوية ، حتى تقوى عضلاتى فتتحمل الحركات المرتقبة بعد عمليات خلخلة العظام . وأكد

لى أن ذراعىّ سوف تكتسبان مزيداً من الحركة بالعلاج الطبيعى ، أى التدليك والكهرباء ، والتمرينات الرياضية .

لم أجد بأساً من التجربة المجانية .. فقررت المجازفة .

دخلت المستشفى فى موكب يلفت الأنظار . نزلت من سيارة الإسعاف محمولا على النقالة ، كأنى مهراجا يحمله أتباعه فوق الهودج! كان أصدقائى الصحفيون يحيطون بى ، بينما مصور آخر ساعة يقفز أمام الموكب مسجلا لحظة البداية .. بداية التحقيق الصحفى .

وعندما اعترضنا الروتين ، أسرع رجال الصحافة بمقابلة المدير الذى أمر بتسهيل مهتمهم وعدم تعطيلهم . وفى دقائق كنت مستلقياً فوق سريرى ، ولكن بعد أن عرف الجميع أنى شخص غير عادى ... أو هكذا أوهمتهم الصحافة .

كانت أول صدمة قابلتنى عندما اكتشفت أنهم أنزلونى فى القسم المجانى .. وهو يشمل جناحاً صغيراً يحوى عنبرين كبيرين .. لا يفترق كثيراً عن مستشفى قصر العينى ، لكنهم خصصوا لى حجرة مستقلة فى آخر الجناح ، يبدو أنها كانت تستعمل كمخزن أو كمكتب للممرضات .

رضيت بحجرتى الصغيرة مادمت بعيداً عن حياة العنابر الجماعية التى لا أحتملها على الإطلاق . ثم تناسيت أنى بالقسم المجانى بعد مالمست المعاملة الطيبة غير العادية من الأطباء والحكيمات وهيئة التمريض أما الأكل فكانت تأتى به الأخت نعمات يومياً من البيت .

فقد كان منظر عربة الأكل المجانى يثير تقززى ، خاصة عندما يوزعها الممرضون بأيديهم الملوثة بمختلف القاذورات التى أهونها بمسحة البلاط .

ومن المميزات التى أتيحت لى دون زملائى التعساء فى القسم المجانى ،أن زيارتى كانت مباحة فى أى وقت أسوة بأقسام المرفهين. كذلك كنت أتمتع بميزات لم تتح حتى للمرفهين ، فقد كانت حجرتى محط رحال الحكيمات والممرضات حيث كن يقضين معى فترات قصيرة فى مرح برىء . منهن من كانت تستشيرنى فى مشكلة أو تستعير كتاباً يسليها فى نوبة سهرها . ومنهن من كانت تقايضنى بنكتة منها نظير اثنتين منى . ومنهن من كانت تقصدنى حتى اكشف لها عن حظها ومستقبلها بعد أن ذاعت شهرتى بين الممرضات بأنى بارع فى قراءة الكف والفنجان !!

أما الكف فكنت أعرف عنه بعض معلومات باقية فى ذاكرتى من كتابين فى علم الكف قرأتهما منذ سنوات طويلة . وكانت معلومات سطحية عبارة عن أسماء خطوط الكف الرئيسية وتلاله المسماة بأسماء الكواكب . . والعلامات الطيبة . . كالمثلث والمربع، والمنحوسة . . . كالنجمة والشبكة على تل زحل . إلى آخر هذه الاصطلاحات التى توهم « الغشيم » بأنى متبحر فى علم الكف .

كذلك قراءة الفنجان لم تكن تحتاج إلا لتعبيرات معروفة لاتخرج عن سكة السفر، أو الشمع المرصوص بعد نقطتين، أو واحدة

من دمك تحسدك وغيرانة منك ، أو شاب أسمر حاطط عينه عليك لكنه لن يقدم إلا بعد ثلاث نقط . إلى آخر هذه الأمنيات والتصورات التى لا يخلو منها خيال شابة ناضجة تنتظر إبن الحلال فى لهفة .

ولم أكن اعتمد على الفراسة وحدها فى استقراء ضمائرهن وأسرارهن . بل كنت متفقاً مع خبيثة منهن تهمس لى بما تعرفه عنهن بحكم الزمالة والاختلاط . فاستخدم هذه المعلومات المضمونة فى إقناعهن بالتنبؤات المستوحاة من محض خيالى !!

كانت تلك اللعبة مسلية ولطيفة فى البداية ، ولكن عندما زاد عدد « الزباين » إضطررت أن أكشف أوراقى وأطلعهن على سر الخدعة . والعجيب أن بعضهن لم يصدقن أنها كانت مجرد مداعبة . فقد تحققت بعض نبوءاتى بمجرد الصدفة ، فكانت الساذجات يصدقنها ، رغم أنها كانت نسبة ضئيلة فى جملة نبوءاتى الإرتجالية .

ومن المفارقات الطريفة أن الذين يصدقون تخريفاتى فى الكف والفنجان ، لا يؤمنون بتفسيرى لأحلامهم ، رغم أنه تفسير صحيح يقره علماء النفس ، لكن الحالمين يرفضونه لأنه لا يعترف أساساً بماهية الأحلام كتنبؤات عن المستقبل .

عقدة الإرتفاع :

ويذكرنى الحديث عن علم النفس ، بعقدة جديدة إكتشفتها

فى نفسى أثناء إقامتى فى مستشفى الجمهورية . كان أصدقائى يلحون فى إصطحابى فى جولة خلال دهاليز المستشفى فوق الكرسى المتحرك. ورغم أن منظر جسدى المتيبس يكون كريهاً فوق الكرسى ، فقد استجبت لإلحاحهم عندما أيدوه برأى الطبيب فى ضرورة إرغامى على الحركة بقدر ما أستطيع ومالا أستطيع . .

امتدت بنا الجولة ذات يوم إلى سطح المستشفى حيث النسمات المنعشة فى فصل الصيف . . . وما كاد الكرسى يقترب من سور السطح وألقى بنظرى إلى الشارع ... حتى أحسست بدوار ورعب شديد . . . كأن يداً خفية تدفعنى إلى هاوية سحيقة . فصرخت فيهم كى يبعدونى عن السور الذى لم يكن منخفضاً أو ضعيفاً حتى يثير فى نفسى هذا الشعور العنيف . وما كدت أحس بظهر الكرسى مستنداً إلى الحائط حتى عدت إلى طمأنينتى .

وبعد قليل تحرك أحدهم ليجلس عفواً فوق السور وهو مندمج فى حديثه ، فصرخت فيه مرعوباً كى يبتعد عن السور . . ودون تفكير قفز المسكين واقفاً إلى أرضية السطح ، وقد كادت صيحتى المفاجئة أن تدفع به إلى خارج السور !

كنت قد قرأت عن عقدة الخوف من المرتفعات . لكنى لم أتصور أن أكون أحد ضحاياها . وكنت حتى ذلك الوقت لا أحس بها لأنى لم أقترب من مكان أعلى من سريرى . لكنى كنت أشعر برعب مفاجىء عندما يقترب أطفال أختى من سور

شرفة غرفتي ويتسلقونه ، وكنت لا أجد غرابة فى هذا الخوف لأنهم صغار يخشى عليهم من حركات متهورة رعناء . أما أن أنزعج بمثل هذا العنف بالنسبة لرجل يقترب من سور حجرى متين مرتفع ، فهذا هو الشعور المرضى .

ولما كنت لا أذكر أنى عانيت مثل هذا الشعور فى صباى وشبابى المبكر ، فإنى أرجح أن قيود المرض هى التى استحدثت فى نفسى مثل هذا الشعور الشاذ ، الذى يتفاقم مع الوقت حتى أصبحت الآن لا أطيق الجلوس على الكرسى المتحرك إلا إذا كان ظهره ملامساً لشيء صلب ثابت ، رغم إيمانى التام بأن الكرسى متين ، وقد صممته بنفسى بحيث تكون عجلاته متباعدة حتى لا أدع أى احتمال لسقوطه . ورغم هذا فإنى إذا تنبهت فجأة لوجودى فى وسط الحجرة وحدى ينتابنى دوار عنيف ، وأصرخ منادياً من ينجدنى . وبمجرد إحساسى بأن أحداً بالقرب منى ترتاح أعصابى . كذلك جربت أن أمسك بيدى شيئاً ثابتاً كمصراع نافذة أو باب ، فلم أشعر بالخوف . بل إن مجرد تأكدى من إمكان تعلق بالباب يزيل من نفسى هذا الشعور الأخرق .

ضايقنى جداً هذا الإحساس ، لا لأنى أحتاج لشخص بجانبى أثناء جلوسى ، فإن فترة جلوسى اليومية لا تزيد عن ساعة أو أقل .

ولكن يضايقنى مجرد عجزى عن التخلص من هذا الشعور . وقد حاولت أن أرجعه لأسبابه الحقيقية حتى أحل هذه العقدة .

كان التعليل المنطقى الذى خطر لى هو أن فقدى للحركة قد أنسانى طبيعة الجسم وما يتمتع به من مرونة ، فخيل لى أن أية حركة قد تفقدنى توازنى فأعجز تماماً عن تفادى السقوط . وهناك احتمال آخر بأن تكون سقطاتى فى الشارع وقصر العينى فى بداية المرض هى المسئولة عن هذه العقدة . وقد يكون إحساسى باحتمال إنهيار البيت القديم — الذى كنت أسكن الطابق الثانى فيه — أثناء الغارات أو الزلازل ، هو الذى أرعبنى من الأماكن المرتفعة وأنا فى وضعى المقيد .

إحتمالات كثيرة دارت فى رأسى ، لكنها قطعاً لم تكن السبب الحقيق فى هذه العقدة ، فإن مجرد تذكرى للسبب الحقيقى كان كفيلا بحل العقدة كما يقول علماء النفس . على أى حال . فإنى مازلت أفكر فى أصل العقدة وجذورها ، ولابد أن أعثر عليها يوماً ، وأسعد بانتصار إرادتى على هذا الوهم السخيف .

قرصة الممرضة :

كنت فى مستشفى الجمهورية أصر على زيارة دورة المياه على الكرسى المتحرك . وكانت الأخت نعمات تقضى معى إثنتى عشرة

ساعة كل يوم لتساعدنى فى تلبية إحتياجاتى المفاجئة لمثل تلك الرحلات المزعجة .

ذات صباح مشئوم كانت نعمات تدفع الكرسى أمامها عائدة بى إلى السرير ، فإذا بدوار يصيبنى فجأة ، فهتفت بها أن تدعك جبينى، الذى لا تصل إليه يدى. لكن أصابعها المدربة لم تأت بالراحة المعتادة ، ثم أحسست بأقسى شعور صادفنى فى حياتى .. أحسست بأن المرئيات أمامى تصطبغ بالسواد .. وأنى أفقد بصرى بسرعة، فصرخت فى رعب .. مرة . ومرتين . . ثم فقدت الوعى .

من رحمة الله عز وجل أن اللحظات الرهيبة لا تدوم طويلاً . . فان إحساسى بالعمى لم يستمر إلا لحظات لم أحس بعدها بشىء . ولم أشعر بنافورة الدماء الداكنة التى تدفقت من فمى مدراراً .. مسكينة نعمات . . كانت الصدمة مضاعفة على أعصابها ، إذ رأتنى أفقد البصر ثم أفقد الوعى ، ثم أتقيأ دماً . . كل هذا حدث فى لحظات متعاقبة ، وكادت هى أيضاً تنهار من هول المنظر ، لكن إحساسها العميق بالمسئولية أمام هذا الموقف ،جعلها تصرخ طالبة النجدة مولولة باكية .

حمداً لله أن تلك الحالة حدثت فى المستشفى. ففى لحظات إلتفت حولنا الممرضات ، والطبيب المقيم ، الذى أمر بنقلى إلى السرير ، وطلب من الحكيمة إعداد محلول جلوكوز وجهاز الحقن البطىء فوراً . عندما أفقت وجدت نفسى مازلت على الكرسى المتحرك

أمام باب حجرتى . ورأيت نعمات تنتحب وبيدها منشفة كبيرة ملوثة بالدماء ! ولمحت اللون الداكن على قميصى الأبيض . أردت أن أسأل الحشد المحيط بى عما حدث لكننى كنت فى حالة من الضعف بحيث عجزت أنفاسى الواهنة عن إخراج الصوت من حلق . وعرفت فيما بعد أن وجهى كان غارقاً فى صفرة الموت .

بعد دقائق كان الجلوكوز ينساب فى عروقى قطرة بعد أخرى ليعوض الدم المفقود . وشدد الطبيب فى عدم الحركة والانفعال حتى ينقطع النزيف المنساب من قرحة المعدة . وأيده فى هذا أستاذ الأمراض الباطنية الذى زارنى فى نفس اليوم ، وخطط لى نظاماً خاصاً فى الأكل ، قوامه اللبن ، الذى يتحتم أن أشرب قدحاً منه كل ساعتين ..

وهكذا تعلمت أن المعاناة من الأكل الاضطرارى لا يقل عن المعاناة من الجوع الإضطرارى !! . ومنذ ذاك اليوم المشئوم فى صيف سنة ١٩٥٨ لم أعد آكل أو أشرب ما أشتهى .. بل ما يتلاءم مع مزاج هذه القرحة اللعينة، التى تهددنى بالنزف عند أى أهمال . وإذا كانت المصادفة وحدها قد أنقذت حياتى فى المرة الأولى لوجودى فى المستشفى ، فإنى لا أضمن أن يمهلنى إنفجار القرحة مرة أخرى حتى أنتقل إلى المستشفى ، فإن إنتقالى ليس بالأمر اليسير .

ورغم هذا فقد نزفت معدتى مرة أخرى فى صيف ١٩٥٩

بمستشفى لندن كلينيك ، ثم نزفت مرة ثالثة فى ديسمبر ١٩٦٢ فى بيتى . ولم تكن ثورتها بسبب الإهمال فى الأكل . ولكن لأسباب أخرى سأشرحها فى حينها .

الاعداد لعمليات المفاصل :

صارحنى الدكتور محمد عبد الله أنه لن يجرى لى العمليات الجراحية إلا بعد شهرين يعالج فيهما مفاصل الذراعين بالتدليك والأشعة السينية العميقة والأدوية . كذلك كان يجب تقوية عضلات الساقين الضامرتين حتى يسهل عليها تحريك الساقين بعد تركيب المفاصل الصناعية .

فرحت بالتدليك ، وقد تصورت أيدى ناعمة تهدهد عضلاتى فتنفث فيها الحياة بعد كسل طويل . لكنى فوجئت بعملاق رياضى يدخل حجرتى مبتسماً ، ويقدم لى نفسه على أنه أخصائى التدليك . وقبل أن أوهم نفسى بأنه الأخصائى « النوبتجى » فى ذلك الأسبوع فقط ، أسرع يطمئننى بأن الدكتور محمد عبد الله أوصاه بى خيراً ، وأنه لن يتخلى عنى حتى أخرج من المستشفى ماشياً .

إستعوضت الله خيراً فى الأيدى الناعمة ، واستسلمت لأيدى العملاق الذى أكد لى فى ثقة تامة أنه عالج حالات كثيرة أقسى من حالتى . وراح يسرد لى تاريخ المحظوظين الذين أخرجتهم يداه من السرير إلى ملاعب الكرة ! . . ثم همس لى مؤكداً :

— كلام فى سرك . . أنا بعون الله سأجعلك تجرى على قدميك قبل أن يبدأ الدكتور فى العمليات الجراحية . . ما رأيك ؟

قلت فى فرحة صادقة :

— رأيى أنك ستحقق معجزة تكتب عنها الجرائد والمجلات وفى مقدمتها « آخر ساعة » التى تتبنى علاجى .

فومضت عيناه ببريق الظفر وقال :

— إذن . . عليك بإحضار المصور الصحفى فى أسرع وقت ليلتقط لك صورة أثناء التدليك قبل أن يبدأ التحسن السريع ، ثم يعود فيلتقط لك صورة كل أسبوع يسجل فيها التقدم الملموس ، إلى أن يلتقط صورتنا معا على باب المستشفى . .

فأكملت حديثه وقد اندمجت فى أفكاره :

— ويكتب تحتها بالخط العريض . . هذا هو الرجل الذى حقق المعجزة .

فقال بتواضع مصطنع :

— ليس هذا هو الهدف وحياتك . . المهم أن تتعاون معى على تحمل العلاج وتنفيذ التمرينات التى أصفها لك . .

لم أكن أتصور أن تلك التمرينات مثل عمليات التعذيب التى كانوا يمارسونها فى سجون أوربا فى العصور الوسطى . فقد كان لا يهتم بتدليك عضلاتى الضعيفة ، بقدر اهتمامه بتحريك المفاصل اليابسة ، وكأنه يدرب عضلاته هو فى تحطيم عظامى . . حتى كسر

لى أحد ضلوعى وهو يجرى لى عمليات تحريك القفص الصدرى الذى تيبس أيضاً ضمن هيكلى العظمى .

أحسست ساعتها بألم شديد توقفت له أنفاسى ، وتحسست صدرى فاذا بأحد الضلوع قد هبط عن مكانه . وذعر صاحبنا وهو يكتشف نتيجة جهله ، وراح يوهمنى بأن الضلع لم ينكسر ، بل تحرك حركة طبيعية بعد أن لان تيبسه تحت أصابعه الساحرة ! وأخذ يرجونى فى ضحكة متلعثمة ألا أخبر الطبيب بما حدث ، فوعدته بذلك حتى لا يضار فى رزقه .

رغم أن أخصائى التدليك هذا كان رجلا مهذباً ومحدثاً بارعاً ومخلصاً فى عمله ، إلا أنه كان جاهلا بطبيعة مرضى . ولما كانت لدى فكرة واضحة عن هذا الداء ، فقد حاولت أن أقنعه مراراً بعدم جدوى ذلك العنف المؤلم فى مفصل ملتصق تماماً ، بعد أن أثبتت صور الاشعة أن الغضاريف تآكلت ، واتحدت أنسجة العظمتين فى كتلة صماء ليست بها فراغات . لكنه كان عنيداً واثقاً من نفسه إلى أبعد الحدود ، فكان يقابل احتجاجى بابتسامة مشفقة لجهلى ، ثم يقول فى هدوء :

ـــ خليها على الله ... قل يا باسط .

ثم يستأنف محاولاته الرهيبة ، كأنه يريد أن يخلق مفصلا من العدم فى كتلة صماء بمجرد « الفهلوة » . فاقترحت عليه أن أتعاطى حقنة مركزة من النوفالجين فى الوريد قبل عملية التعذيب حتى

أتحمل حركاته العنيفة ، لكن مفعول النوفالجين كان يتضاءل بجانب عضلاته الفولاذية مع عظامى العليلة . وكدت أقترح أن نلجأ إلى التخدير الكلى ، لكنى خشيت أن أفيق منه فأجد عظامى مهشمة أمام محاولاته الجاهلة .. التى كانت كفيلة بأن تزهق روحى لولا فضل من الله .

كان عقله يتفتق عن محاولات ساذجة لا تستند إلى العلم فى شىء . ومن هذه « التفانين » أنه كان يحاول تليين رقبتى المتيبسة فى وضع مرتفع ، بأن يخلى المكان تحت رأسى ، ثم يضع على جبينى أكياساً من الرمال الثقيلة . ويطلب منى أن أنام هكذا حتى تعود رأسى إلى الوضع الصحيح . وإذا علمنا أن التصاق الفقرات يكون فى قوة العظم نفسه ، فان تحقيق هدفه يعنى كسراً فى العمود الفقرى ، فيؤثر على الحبل الشوكى ، فتصعد روحى فى لحظات تشكو لخالقها جهل الاخصائى الهمام ! .

ولم أجد بداً من أن أحتكم إلى الدكتور محمد عبد الله فى هذا الأمر ، وإذا ما كانت هذه التمرينات العنيفة على أساس علمى . فثار الطبيب فى الاخصائى غاضباً . ولقنه درساً قاسياً فى إلتزام حدوده ، وتنفيذ التعليمات الصادرة إليه فقط .

الواقع أن التمرينات الرياضية ، كما عرفتها فيما بعد على أيدى كبار الأخصائيين فى لندن ، ضرورية ونافعة فى حالتى فعلا . فهى — إن كانت ذاتية — تقوى العضلات التى أصابها الكسل

بالمزال . كذلك تساعد على تليين المفاصل التى لم تلتصق تماماً ، وتكسبها حركة أوسع . ورغم أن مفصلى كتفى ملتصقين تماماً ، فقد استطاعت هذه التمرينات أن توسع مجال الحركة فى ذراعى ، فأصبح فى إمكانى أن المس فمى بأصابعى ، ثم لمست أنفى ، حتى وصلت أصابعى إلى عينى . وهذا المجال المكتسب كان نتيجة تليين الأربطة المحيطة بعظمىّ اللوح المثلثى الشكل فى الظهر ، وهما غير مقيدتين بمفاصل عظمية ، ولكن تحيط بهما أنسجة ضامة تتيبس مع الكسل وتلين بالحركة .

لكنى – للأسف – فقدت هذا المجال المكتسب مع الوقت ، عندما توقفت عن هذه التمرينات العنيفة ، التى تسببت فى ارتفاع ضغط الدم فى عروقى ، للمجهود المرهق الذى كنت أبذله فى آدائها . وبعد موازنة بسيطة إتضح لى أن فرق المجال الحركى لا يساوى إرتفاع ضغط الدم القاتل ، خاصة وأنا أستعيض عن الحركة بعصا رشيقة ، كعصا المايسترو ، أصل بها إلى فمى وعينى ، أما أنفى فأصل إليه بعصوين بينهما المنديل ، ومع الوقت إكتسبت مهارة تلقائية لا أشعر معها بقسوة القيود .

العلاج فى روسيا :

كنت قبل دخولى مستشفى الجمهورية قد قمت بمحاولة يائسة للعلاج فى روسيا . بعد أن فشلت فكرة التلميح لخروشتشوف على

صفحات المجلات العربية فى « صباح الخير » والانجليزية فى « أخبار المجتمع » . فقررت أن أكتب إليه رأساً . فإما أن يرد ولو بالرفض فاستريح ، وإما أن يهمل الرد نهائياً فأصرف نظر عن هذا الأمل ، وأركز جهودى فى محاولات أخرى . وحفزنى على تنفيذ الفكرة أن الرئيس جمال عبد الناصر كان فى زيارة للإتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت ، وكانت الأضواء مركزة عليه هناك . فوجدتها لحظة إستراتيجية مناسبة للكتابة إلى خروشتشوف عارضاً مشكلتى .

بعثت إليه برسالة مختصرة مركزة تحدثت فيها عن الصداقة بين شعبينا ، وعن تقدم الروس فى النواحى الطبية ، ثم عبرت عن أملى فى العلاج على أيدى الأطباء الروس . . وأرفقت برسالتى تقريراً مختصراً عن تاريخ مرضى . ثم أرفقت بالمظروف الكبير المجلات الخمس التى تتضمن تحقيقات صحفية عن مرضى وكفاحى ، مشيراً إلى أن الشعب المصرى ممثلا فى صحافته يترقب هذا الأمل الكبير على أيدى رجل السلام « نيكيتا خروشتشوف » .

مرت بضع أسابيع ولم يصلنى رد على رسالتى . ثم برزت أمامى فرصة مستشفى الجمهورية ، فلم أشأ أن أضيعها عملا بمبدأ عصفور مضمون فى القاهرة ولا عشرة فى روسيا .

وبعد أن قضيت شهراً فى المستشفى ، وصلتنى رسالة من روسيا مؤرخة فى ٣٠ مايو ١٩٥٨ ، وكانت باللغة الروسية ، فلجأنا إلى السفارة الروسية لفك رموزها . فوجدنا أنها من وزارة الصحة

بالاتحاد السوفيتى شارع رحمانوسكى رقم ٣ بموسكو . وجاء فيها :

« يا سيد صبحى الجيار المحترم . لقد أجرينا إستشاراتنا مع أطبائنا الاخصائيين فى الفحص الطبى المختص بمرضكم الذى أشرتم إليه . ولكن كان من المستحيل أن نتخذ قراراً فى علاج مرضكم وإجراءات وصولكم إلى الإتحاد السوفيتى ، لأن رسالتكم كانت غير مفصلة . وإذا كان ممكنا نرجو سيادتكم أن ترسل إلينا صور الأشعة عن حالتكم وكل المعلومات عن سير المرض ، وتاريخ بدء اشتداده ، وشهادة تحليل الدم والبول ، ووصف جهاز القلب . ونحن مستعدون للإستشارة الثانية مع المختصين فى مرضكم . وسوف نبلغكم بالنتيجة الطبية النهائية . ونرجو أيضاً أن تصلنا صورتكم الفوتوغرافية » . .

وكان التوقيع : الدكتورة ن . راتشنسكايا ، المراقبة العامة لإدارة المراقبة العامة الطبية بوزارة الصحة للاتحاد السوفيتى .

* * *

وقعت فى حيرة كبيرة . . ها هى الدكتورة راتشنسكايا ترحب بى فى روسيا . والأمر يتوقف على بعض تفصيلات روتينية لمجرد التأكد من طبيعة المرض . أما العلاج فهو مضمون فى روسيا التى قرأت ان علماءها يزرعون رأس كلب صغير فى رقبة كلب كبير ، فيعيش الكلب عدة أيام برأسين إحداهما تلعق

اللبن ، والأخرى تجرش العظم ، كذلك قرأت عن الكلب الذى فصلوا فخذه عن جسده تماماً ثم أعادوه إلى مكانه وأوصلوا الأوردة والأعصاب والعضلات ، بحيث عادت الساق تؤدى وظيفتها . وكان العالم الطبيب ويدعى « فلاديمير » على ما أظن ، يبدأ بتلك التجارب على الحيوانات ، تمهيداً لاستبدال الأطراف التالفة من من جسم الإنسان بأطراف أخرى من بنك قطع الغيار الآدمية التى تنتزع من الموتى . ومنيت نفسى بأن أستبدل ساقى التالفتين بساقى لاعب كرة ، أو حتى راقصة باليه ! . .

ولكن ماذا أقول للطبيب المصرى المتطوع لعلاجى ، والذى بدأ العلاج فعلا بالاستعداد للعمليات الجراحية ؟

رحت أستشير من حولى علهم يساعدوننى فى الخروج من حيرتى ، وترجيح كفة على أخرى . فكان معظمهم يؤيدون فكرة العلاج فى روسيا ، ماعدا والدى الذى كان تشاؤمه الطبيعى يجعله يعارض كل فكرة جريئة . وأخيراً إستقر بنا الرأى أن نترك الأمر لله عز وجل يصرفه بحكمته كما يشاء . وقررت أن ألبى نداء من يطلبنى أولاً فى غرفة العمليات . . . والخير فيما يختاره الله .

تدابير السماء :

قبل أن يعلن الدكتور محمد عبد الله ساعة الصفر ، حدثت فجأة فى مستشفى الجمهورية حركة تنقلات . وفوجئت ذات صباح

بأمر من إدارة المستشفى بإخلاء حجرتى ، والإنتقال إلى العنبر المجانى بالدور العلوى . فرفضت متبجحاً أن أنضم إلى نزلاء العنبر الكبير . بحجة أنى ماجئت إلى المستشفى إلا بعد أن أفهمونى بأن لى حجرة خاصة . فأجابتني الرئيسة بلهجة رقيقة أن إدارة المستشفى محتاجه إلى الجناح كله . وليس لى مكان إلا مع القسم المجانى فى العنابر الجديدة التى نقلوا إليها . . .

ضايقنى هذا القرار الحاسم ، وأحسست بالمهانة تضغط على كرامتى . وشعرت أنى من طبقة دنيا تساق كالمواشى إلى حظيرة واحدة ، بينما يحظى المرفهون فى نفس المستشفى بغرف مستقلة تصون آدميتهم . لقد قبلت حقاً البقاء فى القسم المجانى منذ البداية ، ولكن على أساس الميزات التى تكفل لى الحرية الشخصية فى غرفة مستقلة .

لقد أقمت قبل ذلك بسنوات فى مستشفى قصر العينى شهرين لم أشعر فيهما بشيء من الإمتهان ، رغم أن العلاج فيه بالمجان . لكن قصر العينى لم يكن فيه النظام الطبقى الذى يشعرنى بالدونية فى مستشفى الجمهورية ، التى كانت تعتبر القسم المجانى كنوع من العمل الخيرى لفقراء الحى . أما قصر العينى فكان مستشفى عام ملك للدولة الملزمة بعلاجى كأحد أفراد الشعب . كذلك رضائى وسعيي للعلاج المجانى فى روسيا لا يشعرنى بالمهانة لأن المستشفيات كلها هناك بلا مقابل.

رفضت دخول العنبر المجانى ، وطلبت الخروج من المستشفى فوراً . لكن الحاج والدى والأخت نعمات وأصدقائى الصحفيين خدر كبريائى قليلا ، فرضيت بالبقاء مؤقتاً فى العنبر ، بعد وعد أكيد من إدارة المستشفى لمندوب « آخر ساعة» بأن يدبر لى مكاناً خاصاً فى بحر أيام قليلة .

كان وجودى فى العنبر الكبير بمثابة تجربة فريدة درست فيها عن كثب هذه المخلوقات الآدمية المغلوبة على أمرها . ووجدت فيهم نماذج عجيبة من التعاسة البشرية . ورغم أنى لم أمكث معهم غير أسبوع واحد ، فقد هزتنى الصور المؤلمة فى ذلك المجتمع الصغير . وانفعلت بها إنفعالا عنيفاً ، حتى أنى وجدت فيها مادة سخية لعدة قصص وتمثيليات إذاعية فيما بعد. مثل قصة «المقطوع» التى أجمع النقاد على أنها أقوى قصة فى مجموعة كتاب «سوق العبيد» . وقصة « كآبة» التى صارحنى بعض أصدقائى من الأدباء بأنها هزتهم أكثر من أية قصة فى مجموعة « يستر عرضك»، رغم أن هذه القصة لم تتعد ثلاث صفحات . كذلك تمثيلية « يوم الزيارة » التى كانت تنتقد تصرفات الزوار فى أسلوب مرح ، وأعيدت إذاعتها أربع مرات . فى برنامج « حول الأسرة البيضاء »..

حقاً . . . لقد كانت تجربة فريدة لم أندم عليها ، لكنى لم أطق الإستمرار فيها، فقررت الخروج حتى يدبر لى مكان منفرد ولو فوق السطح، يكفى أنه لن يهدر آدميتى ، وحيث لن أكون مضطراً لأن

آ كل وأنام وأتبول وأغير ثيابى أمام المرضى وزوارهم والتمرجية والممرضات !

الرد السوفيتى :

عدت إلى البيت وأنا مرتاح الضمير ، لأنى لم أتهور بتركى المستشفى بعد أن إستنفدت كل طاقات الصبر التى نضبت بعد أسبوع . وتصورت أن الله قد إختار إلى الطريق الآخر .. أى العلاج فى روسيا .

بعد أيام وصلنى رد الدكتورة راتشنسكايا ، وفيه النتيجة النهائية بعد فحص التقارير الكاملة التى أرسلتها بناء على طلبها . وبعد فك رموز التقرير طالعتنا الترجمة بخيبة أمل قاطعة . فقد جاء بالرسالة ما معناه أن الدكتورة راتشنسكايا قد ناقشت المختصين فى حالتى . وأنهم يأسفون إذ لا يمكنهم أن يقترحوا أى علاج بوسائل طبية حديثة ، ثم أوصوا بأنه من الأفضل لى أن أبحث عن علاج لتحسين صحتى فى مكان قريب من بلدى . لان إنتقالى إلى روسيا فيه خطورة شديدة على مرضى لإختلاف الطقس بين البلاد العربية والإتحاد السوفيتى .

والواقع أنهم كانوا على حق فى هذا التشخيص ، فقد لاحظت أن آلام مفاصلى تتأثر بتغير الجو . وأن معظم النوبات المؤلمة تحدث بين فصول السنة . وقد تأكدت لى هذه الملحوظة عندما

أخذت أسجل تواريخ النوبات المرضية لعدة سنوات متعاقبة . بل إن بداية المرض أساساً كانت كما ذكرت فى ٢٣ سبتمبر ١٩٤١ ، أى فى بداية الخريف . وإذا كان هذا يحدث نتيجة التغيرات الطفيفة فى درجة الحرارة ، فماذا تكون النتيجة عندما أنتقل من طقس مصر الذى قد ترتفع حرارته إلى أربعين درجه مئوية فوق الصفر . وأعيش فى جو روسيا الذى قد ينخفض إلى أربعين درجة تحت الصفر . خاصة وأن العلاج الجراحى يحتاج إلى فترة طويلة تجمع الصيف والشتاء .

هكذا أسقطت روسيا من قائمة آمالى . وركزت اهتمامى على علاج الدكتور محمد عبد الله بتركيب المفاصل الصناعية فى أطرافى. وظللت أنتظر مجهودات رجال « آخر ساعة » لتدبير مكان مناسب أقضى فيه فترة العلاج ، سواء فى مستشفى الجمهورية ، أو فى مركز المحاربين القدماء بالعجوزة ، الذى كان تحت إشراف الدكتور محمد عبد الله . وكنت فى فترة الإنتظار أحرص على التمرينات والتدليك إستعداداً للتجربة الكبرى التى لم تكن تخلو من مجازفة، لكنها مجازفة الضائع فى محيط اليأس ، وليس أمامه سبيل للخلاص إلا بالقاء نفسه فى الماء ، فاما أن يسبح إلى شاطىء النجاة . . أو يغوص إلى الاعماق .

وفى تلك الفترة النشطة من حياتى ، توالت الاحداث عنيفة

متلاحقة . . . بعضها يرتفع بى إلى قمة السعادة وبعضها يهوى بى إلى هاوية اليأس .

وجاءتنى الشرارة الاولى عن طريق التليفون ..

جوائز أخرى :

كنت قد تقدمت مرة ثانية لمسابقة نادى القصة فى مايو ١٩٥٨، وظللت أنتظر النتيجة بمزيد من الخوف والقلق. فقد كان كثيرون من أسرة « قصتى » يتنافسون على الجوائز العشر الأولى فى ذاك العام . ولا يليق برب الأسرة أن يتخلف عنهم ، رغم خطورة المجازفة بسمعتى الأدبية التى كانت معرضة للفضيحة العلنية ، إذا ماجاء ترتيبى الاربعين أوالخمسين. كما حدث لبعض الزملاء فى العامين السابقين ، حيث كانت نتيجة الخمسين الأوائل تنشر بالاسماء والدرجات فى مجلة « الرسالة الجديدة » .

وبعد رجوعى من المستشفى بأيام ، فوجئت بالسكرتير الإدارى لنادى القصة يطلبنى بالتليفون ، ويزف إلىّ خبر فوزى بالجائزة الثانية ، فكدت أقفز من سريرى ، لولا أن ردتنى آلام القيد إلى صوابى . . وما كدت أفيق من نشوتى ، وأشكر له هذه البشرى ، حتى عاجلنى بقوله :

— وما رأيك يا بطل فى أنك فزت أيضاً بالجائزة الخامسة ..

وهذه أول مرة يحصل فيها متسابق على جائزتين بين العشرة الاوائل .

اغرورقت عيناى بدموع الفرح ، وتهدج صوتى وأنا أزف الخبر لأهل البيت . وراح لسانى يردد الشكر لله عزوجل فى انفعال وامتنان ، لقد شعرت فى تلك اللحظة باحساس الغريق الذى يضع قدمه على بر النجاة .

ما أحلى لحظات النجاح . . خاصة إذا جاءت بعد سلسلة من الكفاح الفاشل الطويل ، الذى كان يتحطم تباعاً على صخرة النحس طوال السبعة عشر عاماً السابقة .

وفى حفل توزيع الجوائز طلبت من والدى أن يذهب إلى نادى القصة ليتسلم الجائزتين نيابة عنى ، فرفض باستخفاف وكأن الأمر لا يعنيه فى شىء . وبحثت عبثاً عن شخص يملك جهاز تسجيل حتى أسمع اسمى يرتفع بين أسماء الفائزين ، ثم يتعالى التصفيق ، يتلوه وجوم صامت . . فأتصور الدهشة على وجوه الحاضرين ، لأن أحداً لم يتقدم لاستلام الجائزة . والطريف أنى امتلكت جهاز تسجيل بعد ذلك بشهرين . والأطرف أنى صرت مصححاً لمسابقات نادى القصة بعد ذلك بسبع سنوات أى منذ سنة ١٩٦٥ ، وحتى الآن .

وفى المساء زارنى سكرتير نادى القصة، ومعه باقة من الزهور، وقدم لى باسم النادى تهنئة ضيوف الحفل ، وعلى رأسهم السيد

وزير التربية والتعليم والدكتور طه حسين والأستاذ يوسف السباعى، الذى اعتذر عن زيارتى لانشغاله فى الحفل. ثم قدم لى مظروفين فى أحدهما ستون جنيهاً ، وفى الثانى خمسة جنيهات . وعلمت أنه حدثت مفاجأتان .

لم تكن الجائزتان هما الثانية والخامسة.. كما أخبرنى من قبل.. بل الأولى . . والسابعة . فان الخامسة تقهقرت إلى السابعة رغم أنها خامس درجة فعلا ، وذلك لوجود ثالث مكرر وخامس مكرر . أما الجائزة الثانية ، فقد أمر السيد وزير التربية والتعليم أن تعتبر الأولى الشرفية ، بعد أن علم بفوزى بجائزتين رغم كفاحى فى ظروف معوقة . كذلك كان الفارق بين مجموع درجاتى فى القصة الثانية يقل نصف درجة عن الأول ، مع العلم بأن الدرجة النهائية كانت من ستين ، وهى حصيلة تقدير ستة من الأدباء والنقاد .

ولما كانت الجائزة الأولى قدرها ستون جنيها ، أى ضعف الجائزة الثانية ، فقد أمر السيد الوزير بتكملة جائزتى إلى ستين جنيها . أما الجائزة السابعة فكانت قيمتها خمسة جنيهات فقط .

كانت هذه الستون جنيه هى أول مكافأة تناولتها عن قصة من تأليفى ، وهى قصة « يستر عرضك » التى صدّرت بها أول كتاب صدر لى فيما بعد سنة ١٩٦٠ ، وتفاءلت بأن أسمى الكتاب « يستر عرضك » تيمناً باسم القصة الفائزة التى كانت بمثابة أقوى

طرقة فى تاريخ كفاحى انفتح لها باب السعادة والشهرة والرزق المتزايد ، الذى عوض سنوات الجدب الغابرة .

وإذا كانت أول مكافأة نلتها عن قصة من تأليفى قد قفزت إلى ستين جنيهاً ، بخلاف أجر نشرها فى مصر ولبنان ثم فى كتاب . فان آخر مكافأة تناولتها عن آخر قصة بقلمى قفزت إلى حوالى ألف وأربعمائة جنيه ، هى جملة ما تقاضيته من وزارة الثقافة خلال عامين من التفرغ لتسجيل « قصة حياتى » التى بين يديك ، هذا بخلاف أجر نشرها

ألا ترى — يا أخى القارىء — أن السماء أكثر سخاء من طموح المتفائلين ؟ !

عاصفة من التقدير :

لم أكن أتصور أن فوزى بجوائز القصة سيحدث مثل هذا الدوى والتهليل ، ولقد كان بمثابة عود من الكبريت ألقى فى حقل من الألغام ، فراحت تنفجر واحداً بعد الآخر بطريقة تلقائية لم أتدخل فيها إطلاقاً . بل كنت أرقب الأحداث المتوالية فى ذهول وسعادة .

إنطلقت أول شرارة من جريدة الأهرام الصادرة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ ، أى قبل توزيع الجوائز بعدة أيام . وفى صفحة كمال الملاخ برز عنوان كبير على أربعة أعمدة يقول :

« لن يكون هناك .. عندما ينادون عليه ! »

ثم راح يتخيل ماسيحدث فكتب :

« بعد أيام .. يسلم كمال الدين حسين الجوائز للفائزين فى القصة القصيرة . سينادى الوزير إسم « صبحى الجيار » مرتين ، مرة فى الجائزة الثانية ، ومرة فى الجائزة الخامسة ، لن يرد « صبحى الجيار » .. لن يكون هناك .. لن يستمتع بدفء التشجيع . لن تلمع له آلات التصوير .. لن يصافحه طه حسين .. »

ثم تكلم عن القصة الثانية ، وكيف تدور حول طبيب يعمل فى الريف ، والقصة الأخرى وكانت حول تلميذ فقير يخجل من أبيه الحلاق ، وكانت بعنوان « أنكرت أبى » . ثم تكلم عن كفاحى وآرائى إلى آخره ، وذيل المقال بصورة لى .

وفى أول أكتوبر ١٩٥٨ ، وكانت الجوائز لم توزع بعد . فوجئت بخبر صغير فى جريدة الأهرام أيضا جاء فيه أن السيد وزير التربية والتعليم سأل عن عنوانى !

دهشت لهذا الخبر ، لماذا يسأل الوزير عن عنوانى ؟ ولماذا نشر الملاخ هذا الخبر . ؟ وقالت لى أفكارى المتفائلة .. لا شك أن هذا الخبر وراءه مفاجأة سعيدة !

وبعد يومين زارنى فى بيتى اثنان من كبار موظفى وزارة التربية والتعليم ، وأبلغانى تهنئة السيد الوزير ، وسألانى باسمه إذا كان لى أى طلب ، فلم يسعنى إلا تقديم الشكر ، ولم أحدد طلباً معينا .

وفى اليوم التالى لتوزيع الجوائز نشرت الأهرام فى ٩ أكتوبر ١٩٥٨ وصفاً للحفل ، وقرار الوزير الذى اعتبرنى الفائز بالجائزة الأولى الشرفية مع زيادة المكافأة إلى ستين جنيهاً .

وفى ١٣ أكتوبر ١٩٥٨ كتب الأستاذ يوسف السباعى فى جريدة الجمهورية مقالا عن مسابقة نادى القصة بعنوان « برغم أغلال المرض .. وقيود السجن » كان يقصدنى بقيود المرض ، ويقصد الدكتور نجيب الكيلانى بقيود السجن ، فقد فاز بالجائزة العاشرة وهو نزيل سجن مصر ، ومن كلماته التى أعتز بها :

« ... والأديب صبحى الجيار لا يستحق تهنئتنا له كفائز فى مسابقة القصة وإنما يستحق تهنئتنا له لما يعطيه لشبابنا من نموذج طيب للكفاح وعدم اليأس ، فلقد أصيب بالشلل منذ ثمانية عشر عاما . ولم تستطع هذه الرقدة الطويلة أن تطفىء فى نفسه ذبالة الأمل . ولم يدع المرض الذى أقعد قدميه يقعد ذهنه ويديه . وبدأ كتابة القصة ، واستطاع أن يفوز عامين متتاليين فى مسابقة النادى . وهو على وشك إجراء العملية التى أصبحت أمله الوحيد فى عودته إلى الحياة . أدعو له معى بالشفاء ... »

ولم تكن العملية التى قصدها الاستاذ يوسف السباعى هى التى تمت فى لندن . فإن فكرة سفرى لم تكن قد تقررت بعد . لكنه كان يقصد العمليات التى كنت سأجريها فى مستشفى الجمهورية .

ثم توالى التصفيق على صفحات المجلات .

فى ١٣ أكتوبر ١٩٥٨ نشرت مجلة الاثنين عن الاديب الذى صفق له الوزير طويلا .

وفى ١٤ أكتوبر ١٩٥٨ نشرت مجلة التحرير تحقيقاً كبيراً عن المسابقة ، كان لى فيه نصيب الاسد ، مع صورتى فى السرير . وجاء فى الفقرة الخاصة بى « ... إن قصة صبحى الجيار نستطيع أن نهديها إلى كل الشبان .. الادباء وغير الادباء .. قصة الثقة .. والأمل .. والموهبة . لم يتخذ صبحى الجيار من مرضه طريقاً لليأس . وإنما اتخذ منه وسيلة الأمل . إن صبحى الجيار تجربة زمنية يمكن للشبان أن يطلوا من نوافذها على قصة بطولية يكتبها مريض .. بالثقة والأمل والتفاؤل .. حيوه معى .. وادعوا له بالشفاء » .

وفى ١٥ أكتوبر ١٩٥٨ كتبت مجلة « أخبار الشباب » بعنوان « الأمل الذى هزم ١٧ عاما من المرض » قالت :

« . . . وعندما نودى على صبحى الجيار الفائز الثانى ، تحركت الأضواء فى سرعة لتلحق به . . ولكن دون جدوى !! فقد أعلن السيد السكرتير أن الفائز الثانى فاز أيضاً بالجائزة السابعة . لكنه مع ذلك لم يحضر . . . والسبب أنه مريض يلازم فراشه منذ سبعة عشر عاماً . . وعندها دوت القاعة بالتصفيق . . صفق الجميع طويلا ، وكأنما يبعثون له بدعائهم الحار بالشفاء والعافية . . »

صرخة إنسانية :

كان تهليل الصحافة حتى هذا الوقت يتخذ طابع العرض السلبي لنموذج من الناس ، تفضل الصحفيون مشكورين بتمجيد كفاحه المتفائل ، ثم كانوا يختمون تصفيقهم بالدعاء له بالشفاء .

لكن واحداً منهم لم يكتف بمجرد العرض والدعاء . بل كتب فى جريدة « الشعب » الصادرة فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ ، مقالا حماسياً ، كان بمثابة الصرخة الأولى التى لفتت أنظار المسئولين ، وفتحت لى الطريق للعلاج فى الخارج .

إن صاحب هذا النداء الحار هو الكاتب الإنسان عبد الرحمن الشرقاوى . الذى كان قد زارنى لأول مرة برفقة الأخ محمد الطوخى الممثل المعروف . وكنت أتوق لرؤية هذا الكاتب العظيم الذى التقيت به كثيراً على صفحات كتبه ، خاصة رواية « الأرض » التى هزتنى بروعتها ، فقرأتها مرة ومرات مستمتعاً بمضمونها الإنسانى الكبير ، وأسلوبها الصادق المعبر ، وحوارها المذهل الذى يحمل كل تعبير فيه شحنة صادقة تنبض بالحياة . وإنى لأعترف بأنها كانت إحدى العلامات البارزة على طريق حياتى الأدبية ، والتى كان لها الأثر المباشر فى تحولى إلى كتابة الحوار بالعامية ، وكنت فى إنتاجى السابق قبل قراءتى للأرض سنة ١٩٥٦ ، أحرص على كتابة الحوار بالفصحى . ولعل لرواية

« الأرض » أيضا أثراً بعيداً فى التحول الجذرى فى إنتاجى القصصى الذى أشرت إليه ، والذى تلى فترة اللامبالاة التى أمضيتها فى القراءة دون أن أمسك القلم . ثم تحولت بعدها إلى الطابع الإنسانى ملتزماً بالمـــذهب الواقعى الذى تأثرت فيه برواية « الأرض ». وعدلت بعده نهائياً عن الأدب البوليسى الذى كنت متأثراً فيه بقراءاتى الأولى لمؤلفى القصص البوليسية أمثال موريس لبلان وآرثر كونان دويل وإدجار ألان بو .

إنى مدين لعبد الرحمن الشرقاوى بكثير من الفضل ، رغم أنى لم ألتق به سوى مرة واحدة ، كانت كافية لشحن نفسه الشفافة النبيلة بكل آلامى وآمالى . وكانت كافية لتنطبع ملامحه الطيبة فى نفسى إلى الأبد . ولا زلت أذكر قامته الشامخة وهو يخطو إلى حجرتى فى خطوات قصيرة متعثرة ، فقد كان يومها يعانى من كسر فى ساقه يجعله يستعين بعصا يتكىء عليها . وعندما توقفت قدماه بجوار سريرى ، راح يتأملنى فى انفعال حميم ، وهو يهز يدى فى ود صادق ، ثم حاول أن ينحنى ليقبلنى ، فآلمته ساقه وهو يقطع المسافة الطويلة بين رأسه السامقة وسريرى المنخفض . وكاد يتعثر ، لكنه تمالك نفسه ، ثم نبذ العصا التى كادت تعرقله، واتكأ بركبته السليمة على حافة السرير ، وانحنى بصعوبة بالغة حتى لامست شفتاه جبينى . وعندما تأملت ملامحه المتأثرة وهو يستعيد توازنه

فوق ساقه المؤلمة ، كادت دمعة تطفر من عينى ، وقد تضاعف إعجابى واعتزازى بهذا العملاق النبيل .

إن عبد الرحمن الشرقاوى نموذج مشرف للإنسان كما يجب أن يكون . وهو واحد من قلائل أعادوا إلىَّ الثقة بالمبادىء الإنسانية ، كلما امتلأت نفسى بالمرارة لجحود الأصدقاء والمقربين . ولعل عدالة السماء تعوضنى بأمثاله الذين يغدقون بلا مقابل ، عن النفوس الضعيفة العاقة .

وهذه بعض فقرات من مقال عبد الرحمن الشرقاوى ، الذى غلبه فيه الحماس ، فذكر اسم « صبحى الجيار » سبع عشرة مرة فى مساحة لاتزيد عن نصف عمود من الجريدة .

« فى بيت متواضع يعيش صبحى الجيار مستلقياً على ظهره منذ ثمانية عشر عاماً ، بعد أن تآكلت عظام مفاصله لسبب مجهول . ومنذ ثمانية عشر عاماً وصبحى الجيار يتأمل ذكرياته والحياة ، ونفس الرقعة التى لا تتغير من السماء . . من شباك صغير .

ومنذ ثمانية عشر عاماً بدأ صبحى الجيار يعبر بالكلمة والخطوط عن حياة البشر وآمال البشر .. وكما يصنع أصحاب الطاقات الكبيرة الخلاقة إستحالت مأساة صبحى الجيار الخاصة إلى ألوان وتعبيرات تحكى مأساة الإنسان كله . الإنسان القلق الممزق . الذى لا يملك مصيره مع ذلك . وينسج من خيوط عمره حلمه الخالد بالأمن

والحب والسلام والسعادة والصداقة بين الجميع .

إن صبحى الجيار أديب يملك صفـــاء النفس وثقة لا حد لها بالإنسان ...

لقد أتيح لى أن أزور صبحى الجيار . . وعلى فراش بسيط وفى حجرة تزينها رسومه . . وجدت إنساناً ينبض بالحياة وكل ربيع العمر وازدهار الثقة ، وكل الأمل فى المستقبل يشرق على وجهه الذى لم تتخل عنه الرغبة فى الحياة على الرغم مما يعانيه .

إن صبحى الجيار يثق فى العلم . . يثق أن العلم سيجد حلاً لمرضه ... ومن حق الرجل الذى يعبر عن وجدان الشعب بالأدب والرسم أن يجد العلاج .

إن نفقات العلاج فى الخارج تتكلف نحو ثلاثة آلاف جنيه.. وهذه هى المشكلة . فصبحى الجيار لا يملك غير قلمه وفرشاته وثقته فى المستقبل . وهو يرفض أن يعلن عن اكتتاب لتغطية نفقات علاجه . ولقد آلمه ذات يوم أن نشرت إحدى الصحف قصته وبدأت حملة تبرعات من أجل علاجه .

أنا أعرف أن اتحاد الأدباء مستعد للمساهمة بكل ما يستطيع من أجل علاج صبحى الجيار . ولكن إتحاد الإدباء لا يملك مع الأسف ما يكفى لأن يتحمل وحده نفقات العلاج .. ألا يمكن للهيئات الثقافية والصحية فى وطننا أن تتعاون مع إتحاد الأدباء لإنقاذ صبحى الجيار ولاعادة الحياة الطبيعية إلى بدنه المعذب ؟

إننا بلد متحضر يعتز بمثقفيه . . ولن نسمح بأن يبقى واحد منهم مثل صبحى الجيار يعانى مأساة العجز . إننا نملك أن نعالج صبحى الجيار ، وأن نطلقه من أسر الفراش ليغنى بالكلمة والألوان فرحة شعبنا وانتصاراته وآماله .

أكدوا الثقة بنبالة الإخاء والقيم الرائعة فى قلب صبحى الجيار ، الذى مازال يغرد بالحب والمستقبل على الرغم من كل شىء » .

ولم يكتف عبد الرحمن الشرقاوى بهذا النداء على صفحات الجرائد ، بل راح يسعى جاهداً فى جمعية الادباء ، وفى وزارة الثقافة . ورغم أنه كان يعمل فى صمت . فقد كانت تصلنى أخبار من هنا وهناك ، بأن المسئولين فى وزارة الثقافة يتحرون أخبارى ، وأنهم طلبوا من جمعية الأدباء تقريراً مفصلا عن حالتى الصحية ونشاطى الأدبى . ثم بلغنى فى مرة أخرى أن الدكتور طه حسين مهتم شخصياً بموضوعى . وأن بعض الأدباء رشحوا الأخ حسين القبانى زميلى فى المرض والأدب للعلاج معى فى الخارج . فان قصة كفاحه المشرفة لاتقل عنى ، بل إنه سبقنى إلى ميدان الآدب والترجمة ، نظراً لأنه يكبرنى بعشر سنوات .

لم أكن أعرف الأخ حسين القبانى شخصياً ، وإن كنت أقرأ له ، وأقرأ عنه . لكننا بعد هذا إرتبطنا بصداقة متينة ، بعد أن اتضح أننا نتفق فى أمور كثيرة غير المرض والأدب والترجمة . فقد

عرفت أنه جارى فى نفس الحى أى قسم مصر القديمة ، بل وأن أرقام تليفوناتنا واحدة مع اختلاف بسيط فى ترتيبها . ثم ركزت علينا الأضواء معا حتى أصبح الناس يخلطون بيننا ، فيكلمونه على أنه الجيار ويذكروننى بمقابلتهم لى على الناصية ، وهم يظنون أنى القبانى . بل إنه كانت أحياناً تصلنى رسائل باسم صبحى القبانى . وتصله رسائل باسم حسين الجيار ! ومن أطرف المفارقات فى هذا الموضوع أن مجلة « الجيل » وكنا ننشر فيها معا ، كتبت إسمى ذات مرة على إحدى قصصه فى إعلان لها !! . وفى مرة أخرى أذيعت فقرة من تأليفى فى برنامج إذاعى ، وقالت المذيعة إنها بقلم حسين القبانى !.

وفاة أبى :

عاش أبى — كما ذكرت — يائساً تعيساً متشائماً ، حتى إذا ابتسمت له الدنيا ظن أنها تسخر منه . وإذا ما حققت له السماء إحدى أمنياته العزيزة كانت تذكره المنحة بما سلبه منه القدر . وأذكر عندما نال أخى بكالوريوس الطب أن غمرتنا جميعاً فرحة طاغية ، فقد كان نجاحه هو أسعد حدث صادفنا بعد سنوات عديدة من النحس الشامل . لكن أبى — لدهشتنا جميعاً — قابل الخبر فى كآبة ، ثم انخرط فى البكاء وانزوى فى حجرته . ولما

سألوه عن دموعه ، وهل أسالتها السعادة بانفراج الأزمة التى كنا نظنها لا تفرج . قال بالحرف الواحد :

— لو لم يكن الولد الآخر مريضاً . . لتخرج قبله .

مسكين أبى . . كان يهرب من الحظ ، ويبحث عن المتاعب . وينفث تشاؤمه فيمن حوله . لكنه لم يستطع أن يطبعنا بطابعه ، بل كان يسعى تلقائياً إلى تحقيق مخاوفه ، فتحقق فيه المثل الشعبي: « الذى يخاف من العفريت يطلع له » أو المثل العربى القائل « إن الشؤم عند التشاؤم » .

ويحاول علماء الميتافيزيقا أن يعللوا هذه الظاهرة بتفسير علمى، فيقولون : « إن أحلام اليوم هى حقائق الغد ، لأن الإنسان عندما يفكر بعمق فإنه تنبعث من رأسه ذبذبات معينة لها تأثير فعال فى الكائنات الحية والجماد والمعنويات . وهى بالتالى تؤثر فى حظه ومستقبله » .

أما علماء النفس فلهم تفسير أقرب إلى المنطق والمعقول ، فيقولون إن المتشائم يكون بالتالى متردداً هياباً ، فلا يقدم على خطوة إيجابية ، وينطوى على نفسه متقوقعاً فى سجن أفكاره اليائسة . وبالتالى تنفلت فرص الحياة من بين أصابعه المرتعشة . . . ويتخلف عن ركب المكافحين المتفائلين .

وهكذا كان والدى ...

وكما انتزع نجاح أخى الدموع من عينيه . فقد انتزع نجاحى

الروحَ من جسده !! . نعم .. لقد مات أبى فى أسعد يوم عاشته عائلتنا الصغيرة .

فى مساء ٢٠ نوفمبر ١٩٥٨ زارنى الأخ محمد الطوخى ، ليزف إلىّ موافقة وزارة الثقافة على سفرى إلى الخارج للعلاج على نفقة الدولة . وكانت فرحة العمر بتحقيق أغلى أمنية كنا نحلم بها منذ سنوات طويلة ، ولا ندرى كيف تتحقق . فقد كانت كل الظواهر تؤكد أن تدبير ثلاثة آلاف جنيه يكاد أن يكون فى حكم المستحيل . وبعد أن ضاع أمل العلاج فى روسيا ، وهى الدولة الوحيدة التى كان من الممكن أن أعالج فيها مجاناً ... ضاقت حلقة اليأس حتى كادت تخنق أملنا فى أى علاج يردنى إلى صفوف المتحركين الأصحاء . ولم يصل تفاؤلنا إلى أن نتخيل أحد أجهزة الدولة يضحى بآلاف الجنيهات من أجل مواطن عادى لا يشغل مركزاً هاماً أو منصباً رسمياً . وفاتنا أن الاشتراكية نظام إنسانى يضمن الصحة والرفاهية للجميع . ولا يضن على الفقير بالعلاج فى الخارج بينما الإقطاعى يصرف الملايين هناك ترويحاً عن مزاجه المرهف !

كنا نعيش فى انتظار معجزة ، فلما تحققت رحل أبى قبل أن يجنى ثمارها . ففى نفس الليـــلة . . ذهب إلى سريره فى حوالى العاشرة مساء قبل أن ينصرف الضيف الذى زف إلىّ الخبر . وفى منتصف الليل صحوت على أنينه وحشرجته تنبعثان من

حجرته البعيدة. وجاءت والدتى تهرول هالعة لتنبئنى أنه يتنفس فى صعوبة كالمختنق، ولا يقوى على الكلام!.

شعرت برعب مفاجىء، وبكارثة تهدد فرحة عمرى. وأحسست بالقهر لعجزى عن دفعها، أو مجرد القيام إليه لعلى أستطيع أن أفعل شيئاً ..أى شىء... وآلمنى أن يموت أبى فى الحجرة المجاورة دون أن أودعه بكلمة .. أو ألقى عليه نظرة أخيرة.

أيقظنى من وجومى صوت والدتى من الحجرة المجاورة.

ــ أبوك يحتضر ياصبحى.. ألحقنى بأى دكتور حالا.

إمتدت يدى بسرعة إلى سماعة التليفون، واتصلت بالإسعاف، فأعطانى المختص رقم أقرب طبيب سهران. فأسرعت أتصل به، وفى مناقشة قصيرة وصفت له الحالة. وبعد دقائق كان الطبيب بجوار أبى المحتضر. وعرف لأول وهلة أن شرياناً إنفجر فى مخه المكدود. وأسرع يسحب نخاعاً من عموده الفقرى ويحقنه بمنشطات للقلب. لكن الإصابة كانت أقوى من مهارة الطبيب. فلفظ أبى أنفاسه الأخيرة، وتحررت روحه المعذبة من مادية الأرض التى عاش فى شقائها نيف وستين عاماً.

مات أبى... قبل أن أقرأ فى عينيه نظرة تقدير وإعجاب، بعد تقدير الدولة لمجهودى المتواضع... مات قبل أن أكسب من المال مايتيح لى أن أبدى رأيى فى محيط العائلة حسب شروطه.

مات أقرب الناس إلىّ قبل أن أثبت له أنى جدير برضائه وتقديره ..
مات أبى فى نفس الساعة التى اعتدلت فيها عجلة الحظ فى حياتى ، بعد أن ظلت تدور إلى الوراء سنوات طويلة ، كنت خلالها أحاول جاهداً وأكافح باستماتة فى أقسى الظروف ، لأثبت له أنى لست تافهاً . . وأنى جدير بحبه واحترامه الكبريائى كما كان يفعل مع أخى الأصغر بعد أن صار طبيباً !.

كنت أتمنى أن يعيش أبى حتى الآن ، لأغدق عليه من كسبى الحلال ، والرزق الوفير الذى جنيته من قلمى . . . هذا القلم الذى لم يؤمن به يوماً .

إنى لست حاقداً عليه ، ولست راغباً فى الانتقام منه . فإنى واثق أنه كان مسكيناً طحنته قسوة ظروفه ، وتكاثفت عليه المحن فلم يحتملها تكوينه النفسى . فانقلب من أب حنون إلى ديكتاتور ظالم.

إنى أتذكره الآن كلما ابتسمت لى الدنيا ، وأتمنى لو أنه عاش ليشاركنى سعادتى ، وأشعر بحنين جارف لوجوده بيننا لأعوضه عن تعاسة السنين الغابرة ، وأحقق له رغباته المادية التى كان يهفو إليها ، فهو رغم قناعته وزهده كان يعشق ثلاثة أشياء : صوت أم كلثوم ، وقطعة من الكباب ، وزجاجة صغيرة من البيرة ! وكان يعتبر نفسه محظوظاً إذا توفرت له هذه الرفاهية كل شهر مرة ! لكنى — بفضل الله — أستطيع أن أوفرها له الآن كل يوم . . وكل ساعة . . ولو أنى أعتقد أنه كان سيكتفى بجهاز التسجيل ومعه

أشرطة لأغنيات أم كلثوم . أما الكباب فسوف يزهد فيه بعد أن يتوفر لديه . وأما البيرة فلن يجد أحزانا تضطره إليها ، بعد أن أرفع عن كاهله مسئوليات الحياة وأعبائها المادية . .

لاشك أنى كنت سأحقق المعجزة بإدخال السعادة إلى قلبه ، ولكن أين هو . . ؟ فليرحمـــه الله . . وليعوضه فى الجنة عن حرمان دنياه .

ربّ البيت :

بعد وفاة والدى بساعات بدأت أباشر مسئولياتى كرب البيت. كنت أدخر حوالى خمسين جنيهاً من جوائز نادى القصة ، فدفعت منها المصاريف المبدئية للجنازة ، ورفضت أن آخذ مليما واحداً مما عرضه عمى . وحتى وصل أخى من المنيا فى نفس اليوم فقام ببقية المصروفات ، وعندما أراد أن يتكفل هو بكل المصاريف ، أصررت أن نقتسم المبلغ ، رغم أنى تكبدت فيه كل مدخراتى . وبدأت أواجه مسئولياتى الجديدة خالى الوفاض .

كانت أول مفاجأة قابلتنى أن ميزانية أبى المسكين قد نزفت آخر قطرة فيها . ولم نجد فى جيبه سوى عشرة قروش ! لم نصدق أعيننا . وأخذنا نبحث فى كل مكان ، فلم نزدد إلا يقيناً بمأساة أبى ، الذى كان يحترق ببطء ، ونحن لا نصدق أنه استنفد كل رأس ماله ، لأنه كان دائماً يدعى الخراب والفقر حتى يحد من طلباتنا . وعندما حل

به الخراب فعلا . . أنقذه الله من ذل الحاجة . . فرحل إلى عالم لا يتعامل بالماديات ، وترك لى قيادة السفينة الغارقة !

ترى . . هل كان نفاذ ماله هو السبب المباشر لموته محسوراً ؟!

لم يعد لنا مورد نعيش منه ، غير إيراد نصف البيت الذى نقيم فيه ، مخصوماً منه إيجار الشقة التى نشغلها . وهذا المبلغ لا يزيد عن عشرة جنيهات ، علينا أن ندبر أمورنا فى حدودها .

وهذا النصف البيت له قصة نبيلة . فقد كان جدى — رحمه الله — عطوفاً حنوناً ، وكان يقيم معنا فى السنوات الأخيرة من عمره . وكان يتأثر لرقدتى حتى تدمع عيناه ، كما ذكرت فى مكان آخر من هذا الكتاب . ثم أراد أن يترجم حنانه وقلقه على مستقبلى إلى أسلوب عملى ، فوضع كل مدخراته مع مدخرات أبى فى تشييد هذا البيت الصغير . وسجلا نصفه باسمى ، حتى يقينى شر العوز والحاجة فى مستقبلى الغامض . لكنى بالطبع لم أكن أكثر من « بصمجى » فى حياة أبى . وقد تكفل هذا البيت فعلا بضروريات حياتنا خلال الأزمة الطاحنة .

عرض أخى أن يساعدنا بمبلغ شهرى ، فأبت كرامتى أن أقبل هذا الوضع المهين ، لكن والدتى كانت تأخذ منه ثلاثة جنيهات كل شهر — كما علمت فيما بعد — لتكمل بها احتياجاتنا الضرورية جداً . أما إيرادى من إنتاج قلمى فلم يزد فى مجموعه عن بضعة جنيهات

لا تتعدى عدد أصابع اليد الواحـــدة . وفى معظم الشهور كانت أصابع اليد لا تكتمل !

كانت فترة عصيبة فى حياتى ، ضغطت فيها الأزمة على أعصابى. لكنى — بحمد الله — لم أقترض قرشاً واحداً من أحد . كذلك شاءت رحمة السماء ألا تطول تلك الأزمة الطاحنة إلا بضعة شهور لم تكتمل إلى عام . وبعدها تقاطر الرزق رويداً رويداً ، حتى تدفق الخير فى سخاء لم يكن يتطاول إليه تفاؤلى ، بحيث لم يعد يكفى احتياجاتنا فقط ، بل أتاح لنا حياة مرفهة ، وعوض كل جهودى المجدبة فى الأيام السود الخوالى .

أعيش مع أهلى :

ترك أبى فراغاً كبيراً فى البيت ، ولم يبق لى غير والدتى والأخت نعمات . لكن رحمة الله الواسعة التى لم تتخل عنى يوماً ، شاءت أن تدبر إنتقالى إلى هذا البيت — بيت الأسرة — قبل وفاة أبى بعام واحد ، حيث التأم شمل أسرتى مع أختى الكبريين وأبنائهما وزوجيهما فى بيت واحد ، كل منا فى شقة منفصـــلة . فنحن نسعد بالترابط والإيناس ، ولا نصطدم من الاحتكاك اليومى ، لأن كلا منا مستقل فى مسكنه .

ورغم أن معى الآن الأخت نعمات التى تقوم على خدمتى بإخلاص . كذلك يعمل عندى تابع لأعمال التنظيف والتسويق

ويساعد فى تمريضى — والتمريض هنا بمعنى الخدمات غير العادية التى لا يحتاجها الشخص السليم — ورغم أن والدتى تعيش معى فى مسكنى ، وهى التى تشرف غالباً على إعداد الطعام ، ولا تطيق أن يقوم غيرها بهذه المهمة . رغم كل هؤلاء إلا أنى أشعر بمزيد من الطمأنينة وأنا بين أختىّ وأبنائهما . كما أنى أمارس غريزة الأبوة مع أبناء أختى ، وهم خمسة فتيان وفتاتان ، إحداهما تقترب بسرعة من ليسانس الآداب ، والأخرى فى إحدى مدارس الراهبات الفرنسية . وتشاء الظروف أن أقوم بدور الأب لخمسة منهم ، بعد أن توفى والدهم « عبدالملاك » بعدأبى بعام واحد . كذلك الآخران يلجآن لى كثيراً بحكم إقامتى معهما ، ولأن أباهما تضطره ظروف عمله ألا يلتقى بهما إلا قليلا .

إن إشرافى على تربية أبناء أختىّ ، فضلا عن أنه واجب حتمى ، فإنى أجد فيه سعادة ورضا ، وأستمتع كثيراً بالأوقات التى أقضيها معهم نتحدث كأصدقاء فى شتى المواضيع . . حتى الجنس والعاطفة نناقشها فى بساطة وألفاظ علمية مهذبة . وعندما ترتفع المناقشة إلى المستوى العلمى يزول الحرج ، ويسود التفاهم . وبهذا أستطيع أن ألقنهم فنون الحياة وحقائقها ، قبل أن تتساقط إليهم فجة مشوهة من زملاء ينقصون عنهم علماً ويزيدون عنهم وقاحة وإباحية . ولا أجد غضاضة فى أن يصرح أحدهم بإعجابه بواحد أو واحدة من الجنس الآخر . طالما كان إعجاباً مهذباً فى حدود الأخوة والزمالة النظيفة .

وكثيراً ما كنت ألغى فارق السن ، وأنزل إلى مستوى تهريجهم ومرحهم . فأحكى لهم الألغاز ، وأعقد لهم مباريات أقوم فيها بدور الحكم ، وعندما تفرغ جعبتى من الأفكار قبل أن تفرغ طاقاتهم الفتية ، أضطر إلى ابتكار ألعاب عفوية. أو ارتجل لهم لغزاً معقداً يشغلون به تفكيرهم .

وفى علاقتى بأبنائى هؤلاء أتبع أسلوباً علمياً مدروساً أعوض فيه التربية الارتجالية التى عانيت منها كثيراً فى طفولتى . وقد بدأت بمنحهم حق المناقشة والنقد وحرية الخطأ بشرط أن يتحمل المخطىء عقوبته فى رضا ورجولة . وهذه العقوبات يجب أن تكون عادلة غير متهورة ، بل معظمها نكون متفقين عليه مقدماً ، ويكونون مقتنعين بعدالته ، لذلك لا يشعرون بالظلم عند تطبيقه . وهذا النظام ينطبق أيضاً على الجزاءات .

وقد وضعت إتفاقية مع أبناء أختى ذات بنود متعددة ، خاضعة للحذف أو الإضافة بموافقة الطرفين . مثال ذلك البند الخاص بالترتيب فى الإمتحانات الشهرية بالمدرسة . فالذى يحصل على الأولوية تزداد مكافآتى الشهرية له إلى خمسة أضعاف ، والذى يحصل على المركز الثانى فى فصله تزداد مكافأته إلى ثلاثة أضعاف ، والثالث تتضاعف مرة واحدة . ومابين الرابع والعاشر يعتبر عادياً . أما الذى يتقهقر ترتيبه إلى ما بعد العاشر فيحرم من مكافآتى الشهرية . وهى مبلغ إضافى خلاف مصروفه اليومى الذى

يتقاضاه من والديه . وهـــذا من الضروريات لاأحبذ حرمانه منه .

ومن رأيي ألا يطارد الأهل أبناءهم بالأوامر والنواهى فى كل شئون حياتهم . خاصة النشيد الخالدالمعروف « ذاكر يابنى.. تنفع نفسك » لذلك أتبع أسلوباً مختلفاً مع اولاد أختىّ الصغار . فأترك لهم حرية التصرف فى أوقاتهم ، بعد إنذارى بأن أفاجئهم بالتسميع فى أى وقت . ، ثم نتفق على العقاب فى حالة التقصير ، والجزاء فى حالة التفوق . وهكذا يتقبل الطفل عقوبته العادلة فى اقتناع ودون تذمر أو غضب ، لأنه مشترك فعلا فى تقدير العقوبة من قبل .

أما النجاح فى آخر العام فله تسعيره خاصة متفق عليها . وهى تتبع المجموع الكلى لدرجات التلميذ . وقد اتفقنا على أن ٦٥ فى المائة هى الحد الأدنى لما يجب أن يحصل عليه الطالب العادى دون إرهاق . ومن يحصل عليها يكون قد أدى واجبه فقط . وكلما إزداد المجموع بنسبة واحد فى المائة ترتفع المكافأة عشرة قروش ، وهو مبلغ وإن بدا بسيطاً إلا أنه بالنسبة للطفل أو الصبى يعتبر شيئاً له قيمته ، خاصة إذا ما تجاوز المجموع ٨٥ فى المائة فإن القروش تتحول حينذاك إلى جنيهات .

وحينما أردت أن أعوّد أبناء أختىّ على الإدخار ، خصصت لكل منهم « حصالة » ووعدت من يدخر تسعة قروش بأن أبدلها

له بقطعة كاملة من ذات العشرة القروش أسقطها فى حصالته ، وهكذا بدأ التنافس بينهم على قدم وساق . وفى نهاية العام الدراسى إستطاعت إبنة أختى الصغيرة أن تقتنى ساعة من مدخراتها ، وساهم أخوها فى ثمن الدراجة التى اشتراها له أبوه . . واشترى ابن أختى الكبرى آلة موسيقية . .

هكذا أطبق نظرياتى فى التربية على أبناء أختىّ . فنشأت بينى وبينهم صداقة وحب وتفاهم، فى غير تدايل أو تراخ . ولم يطمعهم تبسطى معهم فى تجاوز حقوقهم وحدود اللياقة . بل إنهم يخشون تهديد أمهاتهم بشكواهم إلىّ . لاعن رهبة أو خوف من عقابى ، فهم متأكدون بأنى لا أؤمن بالعقوبات البدنية ، بل عن رغبة فى إرضائى كصديق كبير يحرصون على علاقتهم به .

وبقدر ماكان أبى يضغط حريتى وإرادتى، فإنى أحاول الآن أن أمنح أبناء أختى حقهم فى الحرية كاملا ، حرية إبداء الرأى ، والمناقشة ، حرية التصرف ، حرية الخطأ بشرط أن يتحملوا نتائجه كاملة فى غير تسامح أو تراخ . وهنا أضطر أن أمسك زمام قلبى حتى لا يتدخل فى تطبيق العدالة فى أكمل صورها . وبذلك يستفيد المخطىء من التجربة .

تحت الأضواء

فى البداية كانت الكلمات النبيلة التى كتبها عنى رجال الصحافة والأدب بمثابة شعاعات سريعة تسلطها أقلامهم على مأساتى من وقت لآخر ، فلا أكاد أظهر فى دائرة الضوء ، حتى يبتلعنى ظلام قوقعتى من جديد ، خاصة وأن إنتاجى حينذاك كان يعانى من الإختناق داخل أدراج مكتبى .

وفجأة غمرتنى الأضواء الكاشفة . وتركزت فوقى عدة شهور ، فأذابت جدران قوقعتى ، وأصبحت — دون أن أدرى — نجماً مشهوراً ، تتسابق وسائل الإعلام على نشر أخبارى ، وتلمع من حولى أضواء « الفلاش » حيث تلتقط لى عدسات الصحافة عشرات الصور . ويهرع إلىَّ المعجبون والمعجبات لأوقع لهم فى « الأتوجرافات التذكارية » !

مجلة الهواء :

بعد وفاة والدى بأسبوع ، اتصل بى الإذاعى المعروف فهمى عمر تليفونياً على غير سابق معرفة . وسألنى إن كنت أمانع فى حديث يذاع فى مجلة الهواء . فرحبت على الفور بالفكرة . . وماذا كان يضيرنى لو أنى حظيت بمزيد من الأضواء ، تبرز مشكلتى للرأى العام والمسئولين ، خاصة وقد كانت الأخبار التى وصلتنى لا تحمل ما يؤكدها بصفة رسمية مطمئنة .

كنت أعجب بذلك المذيع الخفيف الروح ، وأحب أن ألتقى به ، وأتعرف عليه عن قرب ، لكن خجلى وقيودى كانت ومازالت تقف فى سبيل تعرفى إلى أصدقاء جدد ، مالم تكن الخطوة الأولى من جانبهم .

لم أكن قد التقيت بميكروفون الإذاعة من قبل . وإن كنت قد سمعت صوتى مسجلا على أجهزة بعض أصدقائى ، فأنكرته تماماً ، لأن الإنسان يسمع صوته من خلال عظام الجمجمة ، فيدرك نبراته على خلاف ما يسمعه الآخرون ، وكنت قد لمست فى صوتى شيئاً من الرتابة والكآبة لم أعهدهما فى نفسى . لكنه كان غليظاً عميقاً إذا ما تكلمت ببطء وهدوء ، أما إذا انفعلت أو تكلمت فى لهجة سريعة فإنى أمضغ بعض الحروف . . على العموم فلم أكن راضياً عن صوتى إلا من حيث طبقته العريضة . وعزمت على أن أتفادى

أخطاء النطق أمام ميكروفون الإذاعة .

شعرت برهبة شديدة ، وأنا أرى الأخ فهمى عمر يتقدم نحوى والميكروفون الصغير مشرعاً فى يده ، وكأنه يهددنى بمسدس سريع الطلقات . فأخذت أبتلع ريقى بصعوبة ، محاولا السيطرة على أعصابى أمام ملايين المستمعين الذين يبرزون فى خيالى من وراء تلك القطعة المعدنية الرهيبة . وشجعتنى البسمة على وجه المذيع الصبوح فقلت له :

— إسمع ياأستاذ فهمى . . هذه أول مرة أتحدث فيها أمام ميكروفون الإذاعة . ولا شك أنى سأتلعثم ، فأرجو أن تعد معى الأسئلة والأجوبة قبل أن تفتح الميكروفون .

فقال ضاحكاً :

— لا . . أبداً . . لاتخف . . بل تحدث على سجيتك ليخرج الحديث طبيعياً غير متكلف . وأعدك أن أعيد الجزء الذى تتلعثم فيه ، وأحذف الخطأ فى عملية المونتاج .

قلت متشككاً :

— صحيح ؟

فأجاب بلهجته الواثقة :

— بشرفى كلام جد .

كان قسمه الحماسى مهدئاً لأعصابى ، وبمجرد أن زالت رهبتى إنطلقت أحدثه فى بساطة ومرح دون أى تردد أو لعثمة . وقبل

أن ينصرف ، أسمعنى الحديث من خلال سماعاته الملتصقة بالأذنين، فلم أجد أنه يحتاج لأية إعادة أو حذف .

دار الحديث أثناء التسجيل عن الجوائز ، وعن المرض ، وأملى فى الشفاء ، وأجبته بأن العقبة الوحيدة هى الناحية المادية ، ثم ناقشنى يبحث فى لوحاتى الزيتية المعلقة على الحائط وماذا تعنى ، قلت إن جسم الرجل المثالى يعبر عن القوة البدنية التى أفتقدها . ثم سألنى عن لوحة الطفل الصغير ، فقلت : لعلى أحاول تعويض إحساسى بالأبوة ، فرسمت هذا الطفل واعتبرته إبنى ... ألست أنا الذى أوجدته ؟ . وقبل أن يسألنى عن لوحة الحسناء العارية التى تكمل العائلة المرسومة، حولت الحديث ضاحكاً حتى لا تحرجنى الإجابة التى تتعارض مع وقار الإذاعة . وقبل أن يختم الحديث تمنى لى تحقيق أملى بالعلاج فى الخارج .

أذيع هذا الحديث فى مساء ٢٦ نوفمبر ١٩٥٨ خلال فقرات مجلة الهواء . وقبل أن تنتهى المجلة إنطلق جرس التليفون ، فرفعت السماعة وأنا مازلت منتشياً بسماع صوتى فى الإذاعة لأول مرة . وإذا بالمتحدث صوت نسائى رقيق يفيض حناناً . وقالت على استحياء :

— حضرتك الأديب الجبار . .

— نعم .

— لقد سمعتك الآن فى مجلة الهواء .

– أهلا وسهلا .

– أنا . . تأثرت جداً من حكايتك وأرجوك أن تقبل منى هدية بسيطة .

قلت مندهشاً :

– هدية ؟ ! بأى مناسبة ؟

قالت متلعثمة أمام لهجتى الجافة :

– أرجوك . . اعتبرنى أختك . .

– مرحباً بك كأخت . . لكنى لا أقبل هدايا من أحد .

– لماذا ؟

– لأنى لا أستطيع ردها .

وكأنما زاد إيلامها المعنى المستتر خلف كلماتى ، فتهدج صوتها وهتفت تقول ، متغاضية عن إجابتى :

– أنا لست غنية . . لكننى أدخر خمسين جنيها . . لست فى حاجة إليها . . وقد يساعدك هذا المبلغ على السفر . . حقاً إنه مبلغ ضئيل . . لكنى لا أملك غيره . ويسعدنى أن أساهم به فى مشروع سفرك .

اندفعت الدماء حارة إلى رأسى ، وأحسست بالعرق يغمرنى فى أواخر نوفمبر . وصحت مستنكراً :

– ومن قال لك ياسيدتى أنى أقبل تبرعاً من أحد ؟

وكأنما ندمت لجرح شعورى غير المتعمد . فجاءنى صوتها باكياً فى حرارة وتأثر :

ـ أنا آسفة .. لم أقصد إهانتك .. لكنك ستسعدنى إذا قبلت هذه الهدية .. ولو على سبيل القرض .. أسترده منك بعد شفائك .. أرجوك .

وراحت تحكى لى من خلال نشيجها قصة أخ لها كان مشلولا ، وكانت أعز أمانيها أن يسترد صحته ، لكن الموت اختطفه قبل أن تتحقق أمنيتها .. وهى لذلك ترى فى شفائى تعويضاً عن أملها المفقود .

وسواء كانت تلك القصة حقيقية أم مختلقة لاقناعى ، فقد آلمنى نحيبها الحار ، ورحت أشرح لها أملى فى السفر على نفقة الدولة ، وأن هناك بوادر مشجعة بأن وزارة الثقافة قد وافقت فعلا على سفرى ، وإن لم يتأكد هذا رسمياً . فقالت بإلحاح وعناد :

ـ ولو .. حتى لو سافرت على حساب الدولة ، فسوف تحتاج لبعض النفقات استعداداً للسفر .. لقد زرت أوربا أكثر من مرة وأعرف أن الجو هناك بارد حتى فى الصيف ، فأنت محتاج إلى ملابس ثقيلة وبطاطين .. كذلك بعد شفائك بإذن الله ستحتاج لملابس جديدة للخروج .

كانت تتكلم بلهجة باكية متوسلة أربكتنى تماماً . وكان تفكيرها الحنون فى مشاكلى واحتياجاتى ينبض بكل معانى الرحمة والإنسانية.

وعبثاً حاولت أن أقنعها بالعدول عن عرضها أو حتى تأجيله ، فكانت تلاحقنى برجائها فى طلب عنوانى حتى ترسل لى المبلغ بالبريد . فاعتذرت شاكراً ، وأنهيت المكالمة العنيفة برفق ، مؤجلا الحديث إلى وقت آخر بعد أن تتمالك نفسها من فرط الإنفعال .

أعدت السماعة إلى مكانها بيد مرتعشة ، بينما كنت ألهث بشدة، كأنى خارج من معركة نفسية عنيفة ، وأنا لا أكاد أصدق أنه مازال على الأرض مثل هذه القلوب النبيلة الحانية .

وقبل أن تهدأ دقات قلبى المنفعل ، عاد رنين التليفون ينطلق من جديد ، حاملا صوتاً نسائياً آخر . كان صوتاً أرستقراطياً ناعماً تميزه لثغة فى حرف الراء . وكانت لهجتها الواثقة تعبر عن شخصية قوية لها آراؤها ومبادؤها التى تعتز بها فى إصرار . وأسعدنى أن لهجتها كانت خالية من التخاذل أو الاشفاق . بادرتنى فى حماس :

ــ أنا لم أطلبك من أجل أن أواسيك أو أشجعك . فإنك لست فى حاجة إلى التشجيع . . أنت قوى.. نعم . . أنت أقوى من رجال كثيرين . . يتحركون لكنهم تافهون .

أثلجت صدرى كلماتها القوية فقلت :

ــ شكراً لإطرائك .

أجابت بحماس :

— أنا لست أجاملك .. ولم أطلبك كى أخفف عنك مشكلتك. بل لأنى فى حاجة إلى روحك القوية حتى تساعدنى فى حل مشكلتى.

ظننت فى البداية أنها تحاول رفع معنوياتى. ولكن عندما استرسلت فى حديثها عرفت أنها سيدة مطلقة فى مثل سنى. تعانى من مشكلة عاطفية لا تقوى على التخلص منها رغم إيمانها بتصرفاتها الخاطئة، وأنهـا تنشد أخاً وصديقاً يساعدها على التلخص من شخص معين تدرك بعقلها أنه تافه، ويأبى قلبها أن يتخلى عنه.

كانت هذه المكالمة بداية صداقة طويلة مع هذه السيدة، وأعتقد أنى لعبت دوراً هاماً فى حياتها، وفى تخليصها من أسر عاطفتها الجامحة، ثم أقنعتها بالعودة إلى مطلقها ليستأنفا حياة زوجية سعيدة. ثم عرفتنى بزوجها، وهما الآن فى قائمة أصدقائى الدائمين.

عندما انتهت تلك المكالمة الطويلة كنا نقترب من منتصف الليل فلم أتلق مكالمات أخرى فى تلك الليلة.

وفى صباح اليوم التالى تلقيت مكالمة من نفس السيدة الارستقراطية، عرجنا فيها إلى الحديث عن علاجى وسفرى. ثم سألتنى بلباقة:

— أنا أسافر إلى الخارج كل عام تقريباً للإستشفاء، فهل لديك مانع من أن تسافر معى هذا العام ليؤنس كل منا وحشة الآخر؟

قلت بدهشة :

ـ طبعاً لدى موانع كثيرة .. أولها أنى لا أملك مصاريف السفر كما ذكرت فى حديث مجلة الهواء . ثانياً .. فإن قيودى سوف ترهقك وتعكر صفو رحلتك الترفيهية ..

قالت بحماس :

ـ إن سفرك معى لن يكبدنى ما لا أطيق ، فإنه يسعدنى أن أستغنى عن ثلاثة أفدنة من عزبتى فى نظير أن أحقق أمل شفائك .. إنى أملك بساتين فواكه قريبة من القاهرة ثمن الفدان منها ألف جنيه .. وثق أن سعادتى بشفائك أثمن من تلك الأفدنة القليلة التى لن تؤثر فى مساحة العزبة .

تلا هذا العرض السخى نقاش طويل ، بين إصرار عاتب ، وإعتذار متمنع ، ولم يتوقف حماس المناقشة إلا عندما وعدتها بقبول دعوتها ، فيما لو لم تتحقق فكرة سفرى على نفقة الدولة . وكنت بالطبع لا أنوى الوفاء بوعدى على حساب كرامتى . أما تكفل الدولة بعلاجى ، فكنت أعتبره نوعاً من التكريم لكفاحى المتواضع ، وليس بمجرد منحة غير مشروطة . حتى ولو كانت منحة الدولة دون أى مقابل ، فالمفروض أن المواطن فى الدولة الإشتراكية له حق الرعاية الطبية ، والحق لا يتعارض مع الكرامة .

***

وفى ظهر نفس اليوم ، طرقت بابنا سيدة حسناء ، فى حوالى الثلاثين من عمرها ، بيضاء ، طويله القامة ، رشيقة القوام ، تضع نظارة كبيرة سوداء تخفى جزءاً كبيراً من ملامحها المضطربة. طلبت مقابلتى ، فأدخلوها إلى غرفتى .

تقدمت نحوى فى خطوات مرتبكة ، وصافحتنى بيد باردة منداة بالعرق . ولمحت شفتها السفلى تهتز فى تأثر . ثم جلست فى صمت ، وأخيراً تكلمت بعد أن استعادت هدوءها .

قالت بصوت مرتعش ، ودون مقدمات :

ـ أنا التى كلمتك بالتليفون ليلة أمس .

وللوهلة الأولى إحترت أيهما تكون.. فقلت لأكسب الوقت:

ـ أهلا وسهلا ..لكن كيف عرفت عنوانى . ؟

قالت :

ـ سألت فهمى عمر فى الإذاعة ....

أدركت فوراً أنها السيدة الباكية التى رفضتُ أن أعطيها عنوانى. لأن الأخرى لم تبد رغبة فى زيارتى عندما كانت تكلمنى منذ ساعات .

ثم اسطردت تقول :

ـ أنا فى الواقع سيدة متزوجة ، ولى أولاد ، ولم أعتد على زيارة رجل غريب فى بيته، لكنى فكرت فى زيارتك عسانى أن أقنعك بما عجزت عنه أمس فى التليفون .

وتلفتت حولها فى قلق ، ثم فتحت حقيبة يدها ، وأخرجت منها ورقة مالية من فئة الخمسين جنيها[١] . وامتدت يدها نحوى بالورقة المطوية ، فانتفضت فى ذعر وكأنها ستلقى علىّ عقرباً ساماً . ورحت أهتف ببعض الكلمات المتلعثمة بين الإعتذار والإحتجاج واللوم . فتراجعت يدها أمام ملامحى المتشنجة . والتفتت إلى والدتى ، وقالت فى ود خالص :

— هل يصح والنبى « ياتانت » أن يرفض هدية بسيطة من أخته ؟ .

فابتسمت والدتى ، وراحت تشرح لها طبعى السخيف ، وتستشهد ببعض روايات واقعية من حياتى مع صديقتى الأولى « المليونيرة الحسناء » ،وكيف أنى كنت أشترط أن تكون هدية عيد ميلادى فى حدود مبلغ معين زهيد ، حتى أستطيع أن أرد إليها الهدية بمثلها .

وقاطعت والدتى موجهاً حديثى للضيفة الحنون :

— ولكنى لا أعرف حتى مجرد إسمك .. ومن تكونين ؟ .. وما هو رقم تليفونك حتى أرد لك المبلغ ..

ثم استطردت مستدركاً :

— .. هذا إذا قبلته على سبيل القرض .

---

(١) كان هذا فى نوفمبر ١٩٥٨ ، وألغيت هذه الفئات الكبيرة من الاوراق المالية فى صيف ١٩٥٩ .

كنت فى الواقع أستدرجها لمعرفة أى شىء عنها . خيل لى أنى إذا قبلت هديتها ، فسوف تختفى من أمامى إلى غير رجعة مثل المخلوقات المسحورة فى قصص الأساطير . وكنت حريصاً على ألا أفقد هذا القلب الكبير .. إنه فى حد ذاته كنز معنوى تتضاءل بجانبه أموال الارض جميعاً .

قالت تحاورنى :

ـ وإذا عرفت من أنا .. هل تقبل الهدية ؟ .

قلت مفكراً :

ـ ربما .. ولكن بشروط .

ـ ما هى ؟

ـ أن اشعر أولا أنك لن تقطعى صلتك بى كأخت ، ثانياً . أن تكتفى بالبلوفر الصوف الذى اقترحته أمس ، وليكن من صنع يديك .

ـ ولماذا لا تشترى أنت ما يروق لك ؟

ـ لا أدرى لماذا لا أستسيغ أن أمد يدى لآخذ نقوداً من إنسان لا أضمن أنى سأردها إليه يوماً ما .

ليكن ما شئت ..

وأعادت الورقة المالية إلى حقيبة يدها . وبدأت ملامحها تنفرج عن بسمة راضية ، وراحت تنفذ الشطر الأول من الإتفاقية ، فحدثتنى عن نفسها ، وعن إسمها ، وعن حياتها التعسة

مع زوجها الشرس الذى يضربها بالعصا التى يقود بها الحصان .
ثم تهدج صوتها وهى تحدثنى عن حبها لأبنائها الذين يربطونها بذلك الزوج الشرير .

شيئان فقط لم تذكرهما لى .. إسم زوجها .. ورقم تليفونها .
لكنها وعدتنى بأن تتصل بى كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

وفى اليوم التالى جاءتنى محملة بربطة كبيرة ، تحوى بطانية نخمة من وبر الجمل ، « وبلوفر » كحلى جاهز ، وقطعة قماش كبيرة من الصوف الأبيض ، لأصنع منها بعض القمصان الثقيلة ، وأشياء أخرى . . وكلها لوازم للسفر ، بعد أن أكدت لها أخبار سفرى من جهات موثوق بها .

دامت علاقتى عدة شهور بهذه السيدة النبيلة التى أطلقت عليها إسم « حنان » ، حتى بعد أن عرفت اسمها الحقيقى . وتوطدت صلتنا مع الأيام ، حتى بدأت تفلت منا بعض كلمات عفوية تفشى مشاعرنا المكبوتة خلف ستار الأخوة الذى أسدلناه بيننا . . وصارحتنى ذات يوم بأنها تفكر فى أن تقطع صلتها بى . . قلت : لماذا ؟ . . . فسكتت ، وكان فى صمتها أبلغ تعبير عما يساورها من مخاوف نتيجة الاندفاع وراء عواطفنا . قلت :

ــ ولكنك وعدتنى بأن نظل أخوة إلى الأبد . .

قالت :

ــ لكننا بشر . . وأبنائى يحتاجون لتضحيتى . .

ثم اختفت من حياتى . . فافتقدتها كثيراً ، وحاولت أن أعرف مكانها أو تليفونها ، فلم أوفق .

وبعد شهور طويلة ، رأيت صورتها صدفة فى إحدى المجلات ، ومعها خبر فيه اسم زوجها . وكان من السهل أن أستخرج رقم تليفونها من دليل التليفونات . . بل إنى لم أستطع مقاومة تلك الرغبة . لكنى أحجمت عن طلبها . . احتراماً لرغبتها النبيلة فى أن تتفرغ لأبنائها . . .

كم أتمنى أن ألقاها الآن ، وأرد القرض الكريم الذى ما زال فى عنقى . لقد قامت هديتها بدور فعال فى الوقت المناسب . وما زلت أحتفظ بالبطانية الصفراء لتذكرنى دائماً بأن الدنيا ما زالت بخير .

* * *

وفى نفس ذلك اليوم اتصل بى تليفونياً صوت أنثوى مرح جرىء . وطلبت صاحبة الصوت أن تقابلنى ، فرحبت بها ووصفت لها الطريق إلى بيتى . وفى المساء كانت تدخل حجرتى فى خطوات جريئة كصوتها ، وصافحتنى بحرارة وود ظاهر . ثم التفتت إلى باب الحجرة وقالت :

ــ ممكن أقفل الباب ؟ . .

رحبت بالفكرة فى لهفة ، فقد كانت الزائرة فتاة فى حوالى

العشرين ، رشيقة القوام ، تميل إلى النحافة ، ورغم هذا كان يعلو جسدها الأهيف وجه مستدير جذاب ، ذو ملامح معبرة . وكانت شفتاها المكتنزتان تنطقان الكلمات بسرعة وحماس ، وهى خليط من العربية والفرنسيةوالانجليزية بالتساوى ، حتى أنها كانت أحياناً تنطق جملة واحدة بثلاث لغات!

كانت دائبة الحركة . تجلس على الكرسى أمامى ، ثم تقفز لتذرع الغرفة ، ثم تجلس ببساطة على حافة سريرى . وهى فى كل تصرفاتها تتحرك وتتكلم وتنفعل فى غير تكلف ، وتناديني باسمى مجرداً — رغم فارق السن — وكأنها تعرفنى منذ عهد بعيد .

قدمت لى نفسها فى صراحة ووضوح ، بما معناه إذا ترجم إلى العربية :

— اسمى « ... » وأنا طالبة بالجامعة الأمريكية . . والدى الدكتور فلان ، ورغم أنه غنى فأنا لا أملك شيئاً ، لأنى لا أؤمن بمبدأ الادخار . أريد أن أساعدك بأية طريقة ، لكنى لا أستطيع أن أطلب مالا من أبى ، لذلك قررت أن أعمل فى أية وظيفة حتى أعطيك كل شهر حوالى خمسة وعشرين جنيها حتى تتجمع لديك مصاريف السفر . !

ابتسمت للفكرة الساذجة الخيالية ، رغم ما تنطوى عليه من هدف نبيل ونية صادقة . . تبدو واضحة فى لهجتها الحماسية . وراحت تشرح لى مشاريعها المرتقبة ، وكيف أنها تملك آلة كاتبة

تستطيع أن تكسب من العمل عليها مبلغ كذا ، ثم تستطيع أن تعمل سكرتيرة فى إحدى السفارات الأجنبية مستغلة اتقانها اللغات ، فتحصل على مرتب كذا .. و ...

وعندما توقفت عن الكلام لتلتقط أنفاسها ، وجدت الفرصة مناسبة للرد عليها . فقلت على الفور :

— أشكرك يا آنسة .... ولكنى أعتذر عن ...

فقاطعتنى بحماس :

— لا لا ... لا تشكرنى .. أنا مصممة على الوقوف بجانبك إلى أن يتم لك الشفاء .

بعد مناقشة طويلة إستطعت أن أقنعها بوجهة نظرى . وبأن أقصى ما تستطيع أن تقدمه لى هو صداقتها المعنوية دون أن تفسدها الماديات .

وقد اقتنعت ... بدليل أنها ما زالت تزورنى حتى الآن مع زوجها وأبنائها !

* * *

وفى الأيام التالية لحديثى فى مجلة الهواء ، اتصلت بى أصوات كثيرة ، بعضها يقدم خدماته ، وبعضها يعرض صداقته ، وبعضها لمجرد إبداء الإعجاب بصبرى وروحى المعنوية . وقد يمتد الإعجاب إلى صوتى الذى يضخمه الميكروفون سواء فى الإذاعة

أو التليفون . ومعظم الصداقات الوافدة كان أصحابها يعانون من مشاكل معينة يسترشدون برأيي فى حلها .

كانت كلها أصوات نسائية ! من مختلف الأعمار . ليس بينها صوت واحد غليظ !

رجل واحد هزه الحديث الإذاعى ، فبعث إلىّ طرداً بريدياً ، فيه زجاجة « كولونيا » كبيرة ، ومعها رسالة رقيقة . فأرسلت إليه خطاباً أشكره فيه ، وأطلب التعرف عليه . وعندما زارنى فيما بعد ، وجدت فيه شاباً خجولا رقيقاً ، ولما عاتبته على زجاجة الكولونيا ، اعتذر بأنه لم يدفع فيها ثمناً ، لأنه موظف بمؤسسة الشبراويشى للعطور ، حيث تصرف لهم هدايا شهرية من إنتاج المؤسسة .

الواقع أنه إذا كانت الهدايا تضايقنى عامة ، فإن هدايا المرضى تؤلمنى خاصة . وكثيراً ما يحاول الأصدقاء الجدد أن يجاملونى فى زياراتهم الأولى فيحملون معهم باقة من الزهور ، أو علبة من الحلوى ، أو زجاجة من العطر ، وكأنهم بذلك يعلنون صراحة أنهم قادمون لزيارة مريض ، وهذا ما أرفضه تماماً . فأنا لا أعتبر نفسى مريضاً ، وإنما أعانى نوعاً من القيد يمنعنى عن الحركة . والمريض إنسان متعطل — ولو مؤقتاً — عن العمل وممارسة نشاطه وإستمتاعه بالحياة ، فكيف يصر البعض على اعتبارى مريضاً وأنا أعيش حياتى بكل أبعادها ؟ كما أن المرض

فى رأيى نوع مع الضعف ، وأنا لا أعتبر نفسى ضعيفاً رغم القيود ، فهى موانع قهرية عن الحركة لا أستحق اللوم عليها . وهل يتهم الأسد بالضعف وهو حبيس القفص الحديدى ؟ إن الضعيف هو المتخاذل عن الحركة بينما تسمح إمكانياته بالإنطلاق .

وإذا جاز أن يعتبرنى الناس مريضاً عند بداية رقادى فى السرير ، فليس من المستساغ أن يحملوا إلى الزهور والحلوى والعطور بعد ربع قرن من الحياة الصاخبة المليئة بالحركة الذهنية . وليس من العدل أن تظل وصمة الضعف عالقة بى إلى الأبد ..

ألا فليترفق بى الأصدقاء الجدد ، ويعفونى من هداياهم المواسية ، ولعلهم يقتنعون بأنى لست مريضاً ، ولست بحاجة إلى المواساة والرثاء والإشفاق .

حول الأسرة البيضاء :

فى غمار الصداقات الوافدة ، فوجئت بالمذيعة المعروفة سامية صادق تطلبنى بالتليفون . وتسألنى إذا ما كنت قد سمعت الحلقة الأخيرة من برنامجها «حول الأسرة البيضاء» ، فاعتذرت بأنى أكون نائماً فى ساعة إذاعته أول مرة ، إذ أنه يذاع فى الثالثة بعد الظهر ، لكنى أحرص على سماعه فى الإعادة حيث تكون فى العاشرة صباحاً ، فقالت إن إحدى المستمعات الفلسطينيات بغزة واسمها لمياء الحسينى ، أرسلت إلى البرنامج رسالة حماسية ، بعد سماع حديثى فى مجلة الهواء ،

وعرضت على صاحبة البرنامج أن تقوم بجمع التبرعات لتغطية مصاريف سفرى ، وأبدت حماساً شديداً لتكون أولى المتبرعات !!
مرة أخرى يندفع الكرماء فيطعنون كبريائى عن غير قصد ! ألححت فى أن تعتذر الأخت سامية صادق عن لسانى فى الحلقة التالية ، بعد أن تورطت — فى شهامة — وأذاعت النداء فى الحلقة السابقة .

كذلك عرفت من الأخت سامية صادق أن مستمعة مجهولة من الدقى أرسلت لها كلمة موجهة لى ، وأذاعتها أيضاً فى الحلقة السابقة . وخشيت أن يكون فيها شىء من الرثاء ، فتزيد الطين بلة . لكنى عندما سمعتها فى الإعادة ، ارتحت جداً لكلماتها الحماسية الصادقة . حتى أنى طلبت من الأخت سامية صادق أن تعيرنى نص الرسالة التى جاء فيها :

« كان فى صوته عمق الثمانية عشر عاماً التى قضاها فى سريره الأبيض . وكان فى حديثه كبرياء ، فلم يعبر فى كتاباته عن مرضه وآلامه حتى لا يستدر شفقة إنسان(١) . وكانت فى حياته آمال لم

(١) هذه الفقرة جاءت تعليقا على سؤال من الأخ فهمى عمر يستفسر فيه عما اذا كنت قد كتبت شيئا عن مرضى فى انتاجى القصصى ، فاجبته بأنى لم أفعل حتى لا أستدر شفقة القارىء . كان هذا هو رأيى حتى ذلك الحين ، لكنى اقتنعت فيما بعد ان من واجب الأديب أن يكتب عن خبراته وتجاربه الشخصية . ولكن فى غير اسفاف أو استعطاف .

يدع لليأس أن يتحكم فيها . لقد تجسمت لى فائدة الإيمان بالله والإمتثال للواقع بعد سماع صبحى الجيار فى مجلة الهواء والحائز على جائزة القصة القصيرة . هذا البطل الشاب الذى عاش أكثر من نصف حياته فى سريره الأبيض ، لم يدع لليأس أو التشاؤم طريقاً إلى قلبه . فقد كان يعلم أن الله لن يظلم أحداً . وأنه حقاً سينال الشفاء بإذن الله مادامت هناك أذن تسمع وعين ترى وقلب ينبض بالإنسانية .

إليه .. إلى الروح المملوءة بالآمال .. إلى القلب العامر بتقوى الإيمان ، إلى النفس الأبية فى عزة وكبرياء ... إلى المواطن صبحى الجيار وإلى كل من تقبل مرضه بهذه الروح الطيبة والقلب الكبير أهدى أغنية « الورد » لأسمهان .

ولم أدر لماذا اختارت هذه الأغنية بالذات . حتى حينما عرفتها فيما بعد ، واعترفت لى بأنها صاحبة الرسالة ، لم تستطع أن تعطينى تفسيراً معقولا لهذا الاختيار . ولعل العلاقة الوحيدة بين الأغنية وصاحبة الرسالة هى أنها تشبه الوردة فى نقائها ورقتها. فقد كانت فتاة تعدت العشرين بعام أو اثنين ، أجمل ما فيها شعرها الأصفر الطويل ، وصوتها الملائكى الناعم الذى زادته ثقافتها وبراءتها متعة الأذن .

لعبت هذه الفتاة الرقيقة فى حياتى دور الأخت الصغرى بكل

معنى الأخوة الخالصة . وكانت رغم مرحها وانطلاقها على خلق كريم وطبع نبيل ، وبراءة محببة . وفيها من الصفاء والنقاء ما يرغم أى رجل أن يحترم أنوثتها ، ولا يجرؤ على خدش حيائها بكلمة نابية .

ظلت أخوتنا قائمة حتى تزوجت بعد سنوات . ولم يقتنع زوجها بأنه من الممكن أن تقوم صداقة نظيفة بريئة بين رجل وامرأة .. وقبل أن تنقطع عنى أهدتنى مصحفاً ثميناً فى حجم عقلة الإصبع ، ومعه عدسة لقراءته . وهو فوق قيمته الروحية والمادية ، يتضمن إحساساً قوياً من جانبها بأنى سأعتز بالهدية فى غير تعصب.. وهذا هو ماحدث فعلا .

صوت أميركا :

كان الأخ النبيل محمد الطوخى متحمساً لعلاجى فى الخارج . ورغم أنه زف إلىّ بنفسه خبر موافقة وزارة الثقافة على فكرة السفر ، إلا أنه لم يشأ أن يستكين الأمل غير المؤكد ، فراح يبذل محاولات أخرى حتى يوفر حولى أكثر من شعلة الأمل ، حتى إذا ما خبت إحداها لا أعود إلى ظلام اليأس من السفر .فأوحى إلى زميله الأخ على عيسى الذى كان حينذاك مديراً لإذاعة صوت أميركا .. ، أوحى إليه بأن يجرى معى حديثاً لصوت أميركا عله يلفت أنظار المسئولين أو العلماء هناك .

وفى أول يناير ١٩٥٩ قدم المذيع الفنان على عيسى برنامجاً من صوت أميركا بعنوان « عندما أطفئت الأنوار » . قدمت له المذيعة بقولها : « عندما أطفئت الأنوار فى نهاية عام١٩٥٨ ، أخذ الزميل على عيسى صديقه الميكروفون ، وطاف به على مجموعة من الفنانين والأدباء ليسألهم عن أهم الأحداث التى صادفوها فى العام المنتهى ، وعن آمالهم فى العام الجديد » .

وبلباقته المعهودة استطاع على عيسى أن يدس حديثى معه ضمن تلك الفقرات المرحة . ذلك الحديث الذى كان قد سجله معى فى اليوم السابق ، وسألنى متجاهلا إذا كنت قد أمضيت العام الماضى كله فى السرير ، فقلت .. بل إنى قضيت فى السرير ثمانية عشر عاماً . فأبدى دهشته فى لهجة تمثيلية متقنة . . وكأنه يسمع بالنبأ لأول مرة . وعاد يسألنى كيف إذن أكتب القصص وأصدر المجلات وأرسم اللوحات . وكنت قد اكتسبت خبرة وثقة من حديثى الأول مع الأخ فهمى عمر . فأخذت أجيب على أسئلة على عيسى فى صوت ثابت طبيعى غير متكلف ولا وجل .

ثم تسلل الأخ على عيسى بلباقة إلى هدفه من الحديث، فسألنى عن مرضى وما إذا كان له علاج . فأجبته على الفور بأن له علاجاً أكيداً فى روسيا وإنجلترا وأميركا . وتعمدت أن أذكر أميركا فى آخر القائمة حتى لا يبدو الحديث مقصوداً . وللمرة الثانية يبدى المذيع اللبق دهشته من أن لى علاجاً فى أميركا ولا أقدم على تحقيقه!!

فأجبته بصراحة أن العقبة الوحيدة هى المادة . وشاءت فطنته أن يجنبنى الحرج فى مزيد من التفاصيل حتى لاأبدو مستجدياً ، فحول دفة الحديث إلى موضوع الجوائز ، ثم ختمه بتمنياته الطيبة بأن يتحقق أملى فى عام ١٩٥٩ .

رغم الجهد المشكور الذى بذله الأخ على عيسى،لم يتردد لذلك الحديث أى صـــدى فى الأوساط الأمريكية . ولم يكتف الأخ محمد الطوخى بتلك المحاولة . فجاءنى بأجهزة تسجيل صوت أميركا مرة أخرى بعد حوالى شهرين . وأجرى معى حديثاً ليذاع ضمن « مجلة الأسبوع » التى كان يقدمها لإذاعة صوت أميركا .

بدأ الطوخى بتقديمى للمستمعين على أنى بطل لقصة تشبه قصة ايوب الذى ابتلاه الله بالمرض . ثم دار الحديث بيننا دون إعداد سابق كما يحرص كل المذيعين ، حتى لا يبدو الحوار كتمثيلية مفتعلة . وكان صوتى كما سمعته فيما بعد أكثر رسوخاً من المرات السابقة ، لكن صوت محمد الطوخى العميق الرخيم،جعل صوتى — الذى كنت أظنه عميقاً — يبدو مسلوخاً بجانبه .

ولم يكتف الطوخى هذه المرة بالتلميح الذى يغنى عن التصريح، لكنه ختم حديثه قائلا بنبرات متهدجة مؤثرة:«إلى العلماء والأطباء وإلى من يهمهم هذا الأمر ... أوجه هذه القصة الواقعية .. » .

أذيع هذا الحديث فى ٢٧ فبراير ١٩٥٩ ، الذى تصادف أنه

كان عيد ميلادى الثانى والثلاثين ، وقبل أن يؤتى ثمرته .. انفجرت فجأة قنبلة السعادة بعد لذاعته بأربعة أيام ...

قنبلة السعادة :

لست مبالغاً إذا سميتها قنبلة ، فإن تأثيرها الجارف غير المتوقع أذهلنى تماماً . وعشت بعدها أسعد أيام حياتى حوالى خمسين يوماً فى جو أسطورى لا يصدقه حتى المتفائلون ، خاصة إذا كانوا فى مثل ظروفى العصيبة . لقد امتدت يد الله الرحيمة لتبدل الكابوس الذى عشت فيه سنوات طويلة إلى حلم سعيد خرافى .

فى ٣ مارس ١٩٥٩ ، بدأ أول الغيث ، إذ صدرت جرائد الصباح الأربع « الأهرام والأخبار والشعب والجمهورية » ، وفى صفحاتها الأولى خبر القـــرار الجمهورى الذى أصدره الرئيس جمال عبد الناصر لعـــلاجى والزميل القبانى فى الخارج على نفقة الدولة .

كانت هذه أول سابقة من نوعها ، فلم يسبق أن عالجت الدولة مواطنا فى الخارج ، إلا إذا كان موظفاً رسمياً .. أصيب أثناء تأدية الوظيفة . وبعد هذا القرار الإشتراكى الرحيم توالت القرارات بسفر الفنانين المرحومين أحمد علام ، وفاخر فاخر ، وصالح عبد الحى .. وغيرهم ، بل امتدت رعاية الدولة إلى أى مواطن لا يتوفر علاجه فى الجمهورية العربية المتحدة .

جن جرس التليفون ، وراح يجلجل فى نداءات متتابعة ، حاملا إلى سمعى مزيداً من القلوب الكبيرة والأصوات الناعمة . وبعد ساعات فوجئت بمندوبى الجرائد الأربع ، يتوافدون إلى حجرتى ، ومعهم المصورون الذين راحوا يقفزون حولى فى حركات رشيقة مصوبين نحوى عدسات التصوير لترصد حركاتى المحدودة . وبين لحظة وأخرى تنبعث أضواء « الفلاش » المتوهجة لتمنح العدسات المتلصصة مزيداً من تفاصيل وجهى وذراعى ، وهى كل ما برز من جسمى المستتر تحت الغطاء .

جلس الصحفيون حولى ، يمطروننى بالأسئلة ، وكأنى شخصية خطيرة تعقد مؤتمراً صحفياً . كان كل منهم يلقى بأسئلته الخاصة ، لكن إجاباتى كانت مشاعاً بينهم ، يسجلون منها ما يحلو لهم ، ويستوحون منها مزيداً من الإستفسارات . وكان بعضهم يتلعثم حرجاً من بعض الأسئـــلة التى تتعلق بأحاسيسى الخاصة حتى لا يتسبب فى إيلامى . لكنى فى غمرة السعادة ، طمأنتهم إلى أنى لا أتحرج من أية إجابة . فقد كنت أحس حينذاك بأنى قد خرجت تماماً من المأساة كلها ، وأن الخطوة الأخيرة متوقفة على الوقت ليس إلا . وأن صاحب المأساة الذى ينشدون أخباره شخص آخر يختلف عنى تماماً . . ويمكننى أن أتحدث عنه فى صراحة دون حرج . وقد انسقت وراء فرحتى الطاغية بتصرفات ندمت على بعضها عندما أفقت من نشوتى .

فقد أراد أحد مصورى أخبار اليوم — وكان صديق — أن يلتقط لى منظراً وأنا عارى الساقين ، ليسجل صورة واضحة لآخر مراحل المرض كى يقارنها بساقى بعد العلاج . ولا أدرى كيف سمحت له بالتقاط هذا المنظر الكئيب الذى لم يشاهده إلا القائمين على خدمتى أو علاجى . لقد كان المصور خبيثاً ذكياً ، لأنه اختار لحظة نفسية مواتية ، فتلكأ فى الانصراف بعد خروج الجميع ، همس لى برغبته الفضولية . ولم يسعنى أن أخيب أى رجاء فى تلك اللحظة ، حيث أسكرتنى الحوادث بلذة الانتصار على نحسى التقليدى . وأذهلتنى الطفرة الخرافية ، عندما وجدت الصحف جميعاً تغمرنى بأضوائها الباهرة ، بعد أن عشت سنين طويلة فى ظلام قوقعتى الخاوية !!

وبعد انصراف مندوبى الصحافة ، زارنى الأخ فهمى عمر ، الذى هنأنى فى الصباح بتحقيق الأمل الأكبر بعد صبر طويل ، وطلب أن يسجل معى لقطة بهذه المناسبة . ورحبت بالطبع ، فقد كان الأخ فهمى هو أحد الذين كافحوا فى نبل وإخلاص لإخراجى من السجن الضيق ، إلى عالم الأحياء ، وساعد فى لفت نظر المسئولين إلى كفاحى المتواضع . وهو صاحب الفضل الأول فى سيل الأصدقاء الذين ملأوا فراغ حياتى بعد حديثى الأول معه فى مجلة الهواء .

كان فهمى عمر يصطحب معه صديقه العتيد « الميكروفون » ، وأجرى معى حديثاً مرحاً ، ختمه متمنياً لى العودة ماشياً على قدمى

حيث يستقبلنى « بالميكروفون » فى المطار . فأجبته ضاحكا :
« لكنك عندئذ ستضطر أن تجرى خلفى لتلحق بى » .
ثم ضحكنا سوياً من القلب . وكان القدر أيضاً يضحك منى حينذاك . فقد شهد المطار يوم عودتى صورة أخرى تختلف تماماً عما تخيلناه فى غمرة الأمل العريض .

* **

وفى صباح اليوم التالى صدرت الجرائد الثلاث وكل منها تحمل على صفحاتها صورة كبيرة لى مع تحقيق صحفى طويل .
كان تحقيق « الأهرام » يحمل عنواناً كبيراً . أراد المحرر أن يجعله مرحاً ، لكنه لم يرق لى . فقد كان العنوان يقول :
« ١٨ سنة على سرير وحلمه الوحيد أن يذهب إلى السينما » .
ما أتفه هذا الحلم ، الذى جعله المحرر أمنيتى الوحيدة ، حقاً لقد كنت شغوفاً بالسينما ، وازداد تلهفى عليها عندما حرمت منها لسنوات طويلة . وحقاً أنى ذكرت السينما ضمن الأماكن التى حددتها فى إجابتى على سؤال المحرر « ماهى أول أماكن تريد زيارتها بعد رجوعك ماشياً » . ولكن الذهاب إلى السينما ليس حلمى الوحيد ، وليس ضمن أمنياتى الرئيسية . لكن الصحافة أحياناً لا تقنع بالواقع ، ولو كان مثيراً ، بل تطعمه ببعض « الفبركة » حتى يبدو أكثر إثارة .
ومن المضحك أنه كتب تحت صورة زميلى القبانى « ١٨ سنة

على كرسى وأمله أن يضع ساقاً فوق ساق ، ولا شك أن طموح الأخ القبانى ليس بمثل هذه السذاجة .

أما جريدة « الأخبار » فقد جاءت عناوينها معقولة . كان العنوان الخاص بى على أربعة أعمدة تحت صورة بنفس العرض ، ويقول العنوان :

« الجيار سيمشى بعد ١٨ سنة بمفاصل من المعدن » .

كان المحرر « عبد السلام داود » بارعاً فى وصفه وتحليله ، فقد بدأ التحقيق بقوله :

« تخيل أى شىء وكما تشاء . تخيل أنك تستحم بأشعة الشمس على قمة جبل من الذهب . تخيل أنك توجت على عرش العالم . . . تخيل أنك تسبح بجناحى ملاك بين النجوم . . تخيل أى شىء ! ثم تصور أن خيالك قد ولد بين يديك حقيقة . . .

عندئذ أنت واحد من اثنين . . إما صبحى الجيار أو حسين القبانى ! » .

حقاً لقد كان تعبير المحرر رائعاً ، ورغم التشبيهات الخرافية التى ذكرها ، فإنى لم ألمس فيها مبالغة عما كنت أشعر به فعلا ، كذلك كان صادقاً فى سرده عندما بدأ يصفنى بقوله :

« قابلت الأول على فراشه ، وهو كل دنياه منذ كان عمره أربعة عشر عاماً . كان مستلقياً بلا حراك . مرتدياً ملابسه كاملة « بلوفر » من الصوف الأبيض وكوفية حمراء أنيقة . إنه يضحك

ملء قلبه . . ويفكر فى صفاء ، ويحب الناس . ويسخر من المرض .!

قال لى : « إننى أرتدى ملابسى دائماً كاملة حتى لا أشعر أنى مريض . . إننى لا أرتدى « البيجاما » أبداً . إن تغيير ملابسى هو المظهر الوحيد الذى يشعرنى بأن يوماً جديداً قد بدأ . إن استقبال اليوم الجديد لا يكلفنى أكثر من أن أرفع جفنى . إن جفونى ويدى هى الأعضاء الوحيدة التى تتحرك فى جسدى . . »

ثم تعرض المحرر لحكاية حبى للسينما ، وكان حاضراً مع مندوبى الأهرام والجمهورية كما اسلفت ، لكنه كان أميناً فى نقل حديثى فقال :

« سألته : إذن فأول شىء تفعله عندما تشفى هو أن تذهب إلى السينما .

ــ لا . . سأذهب أولا اشكر الرئيس جمال عبد الناصر ، ثم ثروت عكاشة . . ثم أقاربى الذين لازمونى طوال هذه الفترة » .

لقد كان حديثى واحداً . . وشتان بين الروايتين ! لكن شيئاً واحداً جعلنى أعتب على الأخ عبد السلام داود . فقد سألنى عن « المواصفات » التى أرجوها فى الزوجة المنتظرة ، فأجبته بصراحة وكتب كلماتى فى صدق لكنه أضاف على لسانى :

« ــ دعك من هذا السؤال . . فإنى أخشى أن أغضب صديقاتى الاثنين والأربعين ، إن كل واحدة منهن تظن أنى أحبها وحدها . . وتحديد الأوصاف سوف يغضب من لا تنطبق عليها الأوصاف »

لقد ذكرت فعلا رقم الإثنين والأربعين ، وهو حقيقى » لكنى قطعاً لم أتحدث عن خشيتى من إغضابهن ! أو أنى أوهم كلا منهن أنى أحبها وحدها . وعلى العموم فإن هذه « التشنيعة » لم تؤثر فى صديقاتى لسبب بسيط . وهو أن كلا منهن تعرف جيداً أنى لم أصارحها بحبى .. كانت كلها مجرد صداقات تتفاوت فى درجاتها . أما قلبى فكان لايزال مع الحبيبة الأولى « المليونيرة الحسناء » .

والحق أن الأخ « عبد السلام داود » من أصدق الصحفيين الذين كتبوا عنى . رغم الهفوة السابقة ، التى كانت نتيجة خلط غير مقصود بين أقوالى .

* * *

أما جريدة الجمهورية فقد نشرت صورتى وأنا أضحك مع والدتى . وجاء عنوان تحقيقها الكبير :

« بدموعى أقبلك ياجمال .. ياكبير القلب » .

كانت المحررة من الجنس اللطيف ، لذلك ركزت الحديث حول والدتى ، وأصرت أن تلتقط لى صورة معها .

وكتبت تقول :

« . . إنه يترجم آلامه وأحزانه على قيثارة الأدب .. أخرج روائع القصص وهو راقد فى فراشه . . إنه يسعد الناس ويحترق ليضىء لهم الحياة التى لم يعرفها . . . لينير لهم الطريق الذى لم يره .

وفى حجرة أنيقة .. قابلنا صبحى الجيار . إستقبلنا . . بابتسامته

الحلوة .. لم نصدق أبداً أن هذا الشاب مكث فى الفراش ١٦ سنة .. ! ..

خطأ واحد وقعت فيه المحررة ، هو أنها اختصرت عامين من مرضى وعمرى . وهذه ظاهرة « للأسف » متفشية فى الاخوة الصحفيين . إن بعضهم لا يهتمون بالحقائق ولا يكلفون أنفسهم عناء البحث والتقصى . فقد كانت تصدر فى الأسبوع الواحد عدة مجلات تحكى قصتى ، وكل منها يصف مرضى بشكل يختلف عن غيره ، ويحدد فترة مرضى كما يتراءى له ، ويضيف أحداثاً من عنده ، ويحذف حقائق هامة . كل هذا كفيل بأن يبلبل أفكار القارىء ، ويحمله على الظن بأن الموضوع أساساً من وحى الخيال ..

إننى — بحكم احترافى لمهنة القلم — احترم الكلمة المكتوبة ، وأشعر بمسئولية ضخمة أمام كل تعبير يخطه قلمى . إن الكلمة المكتوبة عمل خالد ، تتداولها الأيدى على مختلف المستويات الثقافية ، ومختلف الأزمان . ومن واجب صاحب القلم أن يحترم قراءه ، ولا يستهين بعقلياتهم . وأن يحترم إسمه وقلمه . فإن « الفبركة » والإستهتار إذا خدعت بعض الناس فإن معظمهم سيكشفون زيفها .

إنى لا أقصد مهاجمة أشخاص معينين . ولعله من الملاحظ أنى لا أذكر الأسماء الصريحة إلا فى مجال المديح ، وإرجاع الفضل إلى أصحابه . أما السيئات فإنى أتغاضى عن أسماء

أصحابها ، فلست أبغى التشهير فى هذا الكتاب، ولست من أنصار الإنتقام . وإنما أكتفى بذكر الأحداث المجردة ورأيى فيها . وإذا كنت قد نوهت إلى إستهتار « بعض » الصحفيين الذين قابلتهم ، فذلك لأنى قاسيت الكثير من أقلامهم التى لم تتحر الحقائق .

* * *

أما جريدة الشعب ، فلم تشترك فى هذا المهرجان يوم ٤ مارس ١٩٥٩ ، فقد سبقت هذه الجرائد بنشر قصة حياتى فى ثلث الصفحة الأخيرة ، ثم قدمتنى للقراء بطريقة عملية ، فملأت ثلثى الصفحة الأخيرة بإحدى قصصى ، وكان عنوانها « صفعات » .

حدث هذا بإيحاء من الكاتب الإنسان عبدالرحمن الشرقاوى الذى كان يشرف على الناحية الأدبية فى الجريدة . ولما شكرته تليفونياً على هذا التشجيع المادى والأدبى ، فقد قررت لى الجريدة عشرة جنيهات عن هذه القصة ، قال لى جملة لا أنساها ، لأنها هزت قلبي :

ــ إن جريدة « الشعب» هى التى تشرفت بنشر قصتك .

وبعد ذلك نشرت لى جريدة الشعب عدة قصص من تأليفى حتى بعد أن سافرت . . كانت تنشر من رصيدى القصصى عندهم .

كذلك بدأت مجلة « الكواكب » تنشر إنتاجى القصصى إبتداء من عددها الصادر فى ٢٠ يناير ١٩٥٩ . وكنت أتقاضى أربعة جنيهات فقط عن كل قصة .

وكانت مجلة « التحرير » قد نشرت قصة « يستر عرضك » مجاناً لأنها ضمن القصص الفائزة فى مسابقة نادى القصة . ولم يضايقنى هذا الاستغلال المجانى . فقد كانت هذه أول قصة تنشر لى فى مجلة كبيرة دون أن تربطنى بصاحبها أية صلة أو معاملة تحمل شبهة المجاملة .

أول قصة إذاعية :

قبل أن أسافر بأيام قليلة ، زارتنى الأخت سامية صادق مع زوجها الصحفى عادل شريف ليودعانى قبل السفر ، وطلبت منى قصة قصيرة لإذاعتها فى برنامجها المعروف « حول الأسرة البيضاء » فأعطيتها قصة بعنوان « شمهورش » . حرصت أن تتناسب مع طابع البرنامج ، فقد كانت القصة تدور حول الدجالين وأدعياء الطب . وقد تقاضيت عنها جنيهين وربع فقط . لأن الإذاعة كانت تعاملنى على أساس خمسين قرشاً للدقيقة ، وهذه أقل فئة للمبتدئين بالإذاعة مهما كان ماضيهم .

لكن أجرى إرتفع فى العام التالى إلى خمسة وسبعين قرشاً للدقيقة . ثم إلى جنيه كامل الدقيقة وهذه أعلى فئة .

كانت قصة « شمهورش » هى أولى خطواتى بين أروقة الإذاعة .

فلسفتى فى الحب والصداقة والجنس

من المعروف أن عاطفة الحب تتشكل فى صور عديدة ، منها حب الوالدين لأبنائهما ، وهذا أسمى مراتب الحب فى نظرى ، إذ أنه عاطفة قوية تتنزه عن الأغراض ، وتتسم بالتضحية والإيثار ، ولا تفرض شروطاً ، وتمنح بلا مقابل . فالأم تحب فلذتها دون هدف من منفعة شخصية . وهى لا تشترط أن يكون وليدها جميلا حتى تحبه ، بل إن دمامة إبنها أو مرضه أو تخلفه خلقياً « بكسر الخاء » قد يستدر مزيداً من حنانها وحبها. وأنا أتكلم هنا عن الأم العادية، وإن كان الشواذ عن القاعدة قليلون نتيجة ظروف بيئية أو عقد نفسية ، وليست كل من تلد تستحق لقب الأم ، لكننا بصدد تحليل عاطفة الأمومة السوية الغريزية .

ثم يجىء فى المرتبة الثانية حب الأبناء لوالديهم . ومن المألوف أن نلمس جحوداً نسبياً من الأبناء ، وقلما تتسامى مشاعرهم إلى

مستوى عواطف الآباء . وهذا يرجع إلى حكمة الخالق عز وجل ، إذ شحن قلوب الوالدين بطاقة ضخمة من الحب والحنان والإيثار ، لربطهم بأبنائهم الصغار الذين يحتاجون إلى الرعاية والمساعدة . ولولا هذه العاطفة الجياشة المضحية لانقرض الجنس البشرى فى سنوات معدودة .

وإذا طبقنا هذه القاعدة على حب الأبناء لوالديهم نجد أنها صحيحة . لأن الكبار عادة يكونون فى غنى عن صغارهم ، ومن ثم لم تتدخل رحمة السماء لاستدرار عطف الأبناء على والديهم بنفس الدرجة .

ثم يجىء فى المرتبة الثالثة حب الأصدقاء من نفس الجنس ، وكذلك الحب العذرى بين الجنسين ، أو الصداقة الروحية . وأنا أؤمن بأنه من الممكن — حسب خبرتى الخاصة — أن تقوم صداقة أخوية وطيدة بين رجل وإمرأة ، ومن الممكن أن تبقى وتزدهر مع الأيام دون أن يعتريها ملل أو يلوثها دنس بشرط أن تتوفر لها صفات أخلاقية معينة فى كل من الطرفين .

إن الصداقة الأخوية البريئة التى أعنيها ، أساسها الود والتعاطف والتفاهم والمشاركة الوجدانية . وهى دعامات قوية قد تربط بين رجلين أو إمرأتين . وهى عواطف إنسانية سامية ، تعلو فوق الغرائز والشهوات ، وتتضاءل بجانبها الرغبات الجسدية بما فيها من

غيرة انانية ، وحقد مدمر . أى أنها بمعنى أوضح صورة كاملة لعلاقة الأخ بشقيقته الشرعيه .

صداقات روحية :

إن فى حياتى أخوات كثيرات لم تلدهن أمى . ولعل أبرز نموذج ناصع بينهن هى الأخت الرقيقة نوال أبو شوشة ، التى تعرفت عليها فى حدود تلك الفترة ، ومازالت تربطنى بها وشائج أخوية متينة حتى الآن .

إنها مثال رائع لما يجب أن تكون عليه الفتاة المصرية ، من خلق كريم ، وثقافة واسعة ، وحرية كاملة لا يحدها إلا ضميرها اليقظ . ونفس صافية طاهرة ، تذوب أمامها شرور الأبالسة . ولسان عف لم تعبر عليه كلمة نابية .

مثل هذه الصداقة الروحية العفيفة فى أسمى صورها ، لا يمكن أن تنحدر عن مستوى الأخوة الخالصة مهما طال بها الزمن . وهى عادة تبدأ بفرد واحد . ثم يقدمنى إلى أعضاء أسرته واحداً بعد الآخر ، حيث تنمو العلاقة الفردية إلى صلة عائلية شاملة . وهكذا تتسع دائرة أصدقائى ويرتفع رصيدى فى قائمة العلاقات الإنسانية ، وهى ثروة لا تقدر بمال .

ومن أبرز شخصيات هذه الثروة البشرية ، المرحوم المأمون

أبو شوشة الفنان العبقرى . . والذى قدمتنى إليه أخته وأختى . . نوال أبو شوشة .

وإذا كان لكل إنسان أم واحدة ، فإن لى أكثر من عشر أمهات ، ومن أبرز أمهاتى الروحيات، الأم الحنون والدة المرحوم المأمون أبو شوشة، التى لاتنادى إسمى إلا مسبوقاً «يابنى الحبيب».

كذلك من أمهاتى المقربات السيدة الحنون والدة الشاعر المعروف حسين السيد، وهى أولى من لقبت بإسم «ست الحبايب» عندما استوحى إبنها من حنانها أغنيته المشهورة بهذا الاسم . وكثيراً ما يفيض قلبها الكبير بعبارات الدعاء متبوعة بلقب « ياحبيبى يابنى » .

وإذا كنت أعتز بأمى الروحية ست الحبايب ، فالفضل فى معرفتى بها يرجع إلى إبنتها الرقيقة الأخت هدى السيد . وهى تكاد تكون صورة طبق الأصل خلقاً ، وقلباً ، وعقلاً ، من الأخت نوال أبو شوشة . وليست الأختان نوال وهدى إلا نماذج من علاقات أخوية عديدة عفيفة أعتز بها .

وإذا كانت علاقاتى الإنسانية لم تقف عند سن الستين فإنها أيضاً لم تتقيد بحد أدنى . فقد انضمت إلى قائمة صداقاتى الروحية مجموعة من البنات الرقيقات ، كنت لهن بمثابة الأب الروحى . . ومنهن براعم لم تكمل العقد الأول من عمرها .

كانت أولاهن هى إبنة صديقتى « المليونيرة الحسناء » التى

تحدثته عنها من قبل . وكم كان نداؤها يسعدنى عندما تقول .. « بابا صبحى » .

ثم دخلت حياتى زهرة أخرى عن طريق التليفون . طلبتنى فى جرأة وحماس ، وراحت تبدى إعجابها بحديثى فى الإذاعة ، وتعرب عن رغبتها فى زيارتى ، وعرفت منها أنها فى نهاية المرحلة الإبتدائية ، وأنها متفوقة فى دراستها .

كانت تناديني بلقب « أنكل » ، وتناقشنى فى بعض شئون حياتى فى وعى ونضوج رغم سنوات عمرها التى تجاوزت بالكاد أصابع اليدين . وبعد بضعة أيام طلبتنى سيدة مهذبة ، قدمت نفسها فى حياء على أنها والدة الطفلة إياها .وقصت على حكاية مؤثرة عن مشاعر ابنتها ، التى انفجرت فى البكاء بعد سماعها لحديثى فى الإذاعة،وعن إلحاحها على أمها حتى تسمح لها بطلبى فى التليفون. وكيف أنها تنهدت فى حسرة وهى تقول :

— ليتنى كنت ابنته ... حتى أعيش بجانبه طول العمر وأتفرغ لخدمته !!

تأثرت من حديث الأم ، وأدهشنى أكثر أن تلك الدموع والتنهدات لم تكن تظهر فى حديث الطفلة معى ، فقد كانت من الإدراك السليم بحيث لم تشأ أن تؤلمنى بكلمات مشفقة أو معزية .

وأظهرت الأم خشيتها من أن تضايقنى الإبنة بأحاديثها المتكررة ، لكننى أبديت ترحيبى التام بمكالمات الصديقة الصغيرة،

وبزياراتها كلما سمحت ظروف دراستها . وبدأت تزورنى فعلاً مع جـــدها ، حيث كانت تجلس أمامى محملقة كالمتعبدة فى محراب مقدس .

ومن صديقاتى وأصدقائى الصغار من يحرص على زيارتى من وقت لآخر ، ولهذا خصصت ، منذ سنوات ، مساء الخميس من كل أسبوع لأستقبل فيه أصدقائى الصغار . حتى أتفرغ لهم تماماً حينما تمتلىء بهم حجرتى . ومعهم أبناء وبنات أخواتى . وفى هذا المساء اندمج معهم فى جلسة صاخبة ، أناقشهم فى مشاكلهم أحياناً ، ونروى الفكاهات والألغاز أحياناً أخرى ، وقد أتبارى مع الكبار منهم فى لعبة الشطرنج ، أو نتفق على مشاهدة برامج التليفزيون ، الذى أضع قنواته الثلاث تحت تصرفهم حسب رأى الأغلبية ، وأحياناً يحاول أحد أفراد العائلة الكبار أن يبدى رغبته فى برنامج معين . لكنى أحرص على أن يكون الاختيار للصغار فقط فى يومهم الخاص . عندئذ ينسحب الكبار هاربين من الضجيج ، ويدهشون من اندماجى فى هذا الجو الصاخب .

الحب الإنسانى :

نعود إلى الحديث عن درجات الحب بعد أن وضعنا الصداقة أو حب الأصدقاء فى الدرجة الثالثة ، وإن كنت أرجح كفة الصداقة الروحية بين الجنسين المختلفين ، لأنها أقوى من الصداقة

بين الجنس الواحد . وذلك للتجاذب الغريزى ، الذى كلما تهذب وسما كانت الصداقة أقوى وأبقى .

وأخيراً نصل إلى الحب الشهوانى ، وهو ما اصطلح على تسميته بالغرام والعشق والهيام . وهذا فى رأيى أرخص أنواع الحب ، بل لعلى لاأبالغ إذا أعتبرته عاطفة شريرة أنانية هدامة .. !

وهنا قد أختلف مع الكثيرين ، خاصة الأدباء والشعراء الرومانسيين، الذين يمجدون الحب ، ويتغزلون بألفاظه المعسولة ، وهم فى ذلك كالمريض « بالماسوشيزم » يستعـــذب المهانة والألم والعذاب .

ولست أسوق العبارات الحماسية لمجرد المعارضة والتحدى أو المغالطة كما سيتهمنى البعض ، لكنى أؤمن بما أقول . وقد بنيت رأيى هذا على مئات الحالات التى درستها عن كثب، وتابعت أحداثها ، وعشت مع أصحابها شهوراً وأعواما . ومن تجاربى الخاصة ، خرجت باعتقاد راسخ بأن هذا الأسلوب من الحب هو نوع من المرض أو الضعف لا أرتضيه لنفسى أو لمن يهمنى أمره . ولا يعنى هذا أنى إنسان متحجر القلب ، أو فاتر الإحساس . بالعكس ، فإنى أربأ بقلبى الكبير الذى يتسع لحب البشرية جمعاء ، من أن تملأه الأنانية والحقد والغيرة المدمرة .

تعالوا نستعرض معاً أحاسيس الشخص الذى يقع فريسة

لهذا الداء الهدام الذى يسمونه — تجاوزاً — بأسمى كلمة عرفتها البشرية وهى « الحب » .

إن أول أعراض هذه العاطفة الجامحة، هو القلق واللهفة والإنتظار المستمر ، طوال ساعات اليقظة .وبالتالى تؤدى بصاحبها إلى الكآبة والسرحان وحدة المزاج ، والعزوف عن أى إنتاج جدى ، مادامت كل إهتماماته محصورة فيمن يحب .

ثم تتملك العاشق رغبة جامحة فى إمتلاك حبيبه ، والاستحواذ على جسده وتفكيره . ومن هنا تتولد الغيرة الأنانية البشعة فى أسخف صورها . فهو يتألم إذا جامل حبيبه شخصاً آخر ، ويفقد صوابه إذا اهتم بهذا الشخص ولو كان اهتماماً بريئاً ، ثم يكاد يجن إذا أعرض عنه من يحب ؛ ولم يبادله نفس اللهفة وحرارة الشوق ، ثم يتحطم تماماً إذا خانه هذا الحبيب ! .

كما أن العاشق الولهان قد يرتكب أية حماقة ، وهو واقع تحت تأثير هذا المخدر الذى يسمونه الحب . فهو يعمى عن الحقائق، ويرى حبيبه خالياً من العيوب . وقد يبنى على أحاسيسه الخاطئة مستقبل حياته . وبعد أن تفتر العاطفة على مر الأيام ، يفيق إلى رشده، ويندم حيث لا ينفع الندم . لذا لا أحبذ اختيار الزوج وشريك الحياة إعتماداً على ترمومتر القلب الذى كثيراً مايخدع ، بل يجب أن ندع الكلمة الفاصلة للعقل أولاً فى مثل هذه الأمور الحيوية . فميزان العقل لا يخطىء كثيراً ولا تتغير مقاييسه للأمور على مر

الزمن ، لأنه تقييم مبنى على حقائق واضحة ثابتة ، أما القلب فهو ساذج هوائى النزعة لا يثبت على مبدأ .

ولعله من حسن حظ البشرية ، أن هذا المرض قابل للشفاء ، لأن هذه العاطفة الجامحة لا تدوم ، فسرعان ما تطفىء الأيام جذوتها ، ويعلوها تراب النسيان . ولو دامت هذه الحمى من طرف واحد لأدت إلى شقاء الإنسانية ، وهـــذا ما لا ترضاه عدالة السماء .

ألست محقاً بعد هذا فى أن العاطفة التى تؤدى إلى هذه الأعراض والإرتباكات الذهنية هى عاطفة مدمرة يجب أن نتحاشاها ؟

أعرف تماماً أن التخلص من هذا الداء أمر عسير ، فهو قيد ليس من السهل تحطيمه ، وأعرف زوجة مخلصة وأماً لأبناء سعداء، ضحت ببيتها المرفه الذى تتوفر فيه كل أسباب السعادة، وانقادت لنزوة قلبها الأرعن ، وبعد شهور قليلة ندمت على تضحيتها بعد أن حطمت كل شيء . فهل هناك أسوأ من إحساس مدمر يطغى على أسمى عاطفة فى الوجود . . وهى عاطفة الأمومة ؟

وأعرف رجلا وقوراً تعدى الحلقة الرابعة من عمره ، ويحتل مكانة سامية فى المجتمع ، اشتهر بالوقار والرزانة بين مرؤسيه . لكنه انقلب إنساناً آخر بعد أن أصابه هذا الداء اللعين . . داء العشق . فأذل كبرياءه ، وحطم وقاره ، وجعله يركع مستجدياً

تحت أقدام امرأة لعوب ، يعرف أنها تعطى نفسها لمن يدفع الثمن ، ومع ذلك داس على كرامته وسمعته ، ودخل فى مزايدة مع غرمائه حتى تزوجها ! وبقية القصة يمكن أن يتخيلها أى عاقل يحكم بعقلية لم يطمسها الحب . . أقصد العشق !

وأعرف فتاة عاقلة متدينة متزنة ، سقطت فريسة هذا الوحش الفتاك ، فوقعت فى صراع محتدم بين عقلها وضميرها فى جانب ، وقلبها وغرائزها فى جانب آخر . والمرأة — فى تصورى — أكثر عفة من الرجل ، لكنها إذا أحبت ، فإنها تمنح كل شىء بسخاء ، وقد لا ترى فى تصرفاتها ما يشين . بل قد تحس الزجة بخيانتها لحبيبها عندما تكون فى أحضان زوجها ! لهذا كان صراع تلك الفتاة رهيباً بين مبادئها ورغباتها . وكانت تقاوم بشدة حتى لا يجرفها التيار . فأحياناً تتلف التليفون حتى يمنعها قسراً عن الإتصال بمن تعشق ، وأحياناً عندما تستبد بها الرغبة فى لقائه كانت تصحب معها أخاها الأصغر إذا اضطرت إلى الخروج حتى لا تغريها قدماها بزيارة حبيبها . . .

لكنها كانت كثيراً ما تهرب من ضميرها تحت سياط اللهفة للقائه ، ثم تعود بعد مقابلته لتروى وسادتها بدموع الندم . وأخيراً أنقذتها العناية الإلهية ، وكأنما استجابت السماء لتوسلاتها ، فنقلت بحكم عملها إلى بلدة أخرى، حيث دفنت قصة حبها فى زوايا النسيان .

ولو لم أكن أخشى الإطالة والتكرار، لذكرت عشرات من الأمثلة الحزينة لضحايا هذه العاطفة المدمرة.. التي يسمونها الحب.!

الواقع أنى أتألم من إطلاق هذا اللفظ السامى المقدس على مثل هذه العواطف المخربة. والأصح أن نسميها نزوة، أو شهوة، أو عشق، أو رغبة. لأنها فعلا تعبر عن رغبة مادية فى إصرار أنانى بغيض. ولنقصر كلمة الحب على معناها الإنسانى الشامل الكبير.. حب الإنسانية جمعاء فى إيثار وتضحية، وبلا هدف إلا وجه الخير والسلام على الأرض.

أعتقد أن الإنسان يستطيع أن يتجنب مزالق رغباته الجامحة قبل أن تستبد به، ومن الخير له أن ينعم بالصداقة الجميلة المفعمة بالود والتعاطف والحنان والأخوة الصادقة. فإن فيها كل ميزات العشق دون سوءاته.

وما دمنا قد استعرضنا الجانب المظلم من الحب، فمن الإنصاف أن نذكر منه الجانب المشرق. فلا شك أن هذه العاطفة الطاغية التى تأسر القلوب وتسبى العقول، وتتحطم أمامها كل القيم والأخلاقيات، لاشك أنها تمنح الإنسان طاقة ضخمة من السعادة. وفى الواقع أن الحب المتبادل فى ود وإخلاص وتضحية وثقة، لهو من أعظم نعم الخالق على عباده. لكن هذه الصفات المكملة لأركان السعادة قلما تتوفر فى علاقة قوية إلا إذا ساندها العقل ودعمها بالثقة والإيثار والتسامح.

وهنا نعود من حيث بدأنا . فالعشق الجامح ، أو الرغبة كما أسميها لا يمكن أن تسعد إنساناً إن لم تساندها مميزات الصداقة التى ذكرتها . وإلا فكيف يمكن أن يجتمع الحب والأنانية فى قلب واحد ؟

إننى أؤمن بالعقل ، ووجوب سيطرته على كل تصرفات الإنسان ، حتى عواطفه ، والحب الشهوانى يطمس العقل ، كما تطمسه الخمر والغضب . والإنسان غالباً ما يندم على تصرفاته إذا ما أفاق من سيطرة الحب والخمر والغضب .

وحتى أجنب نفسى حسرة الندم أحاول دائماً أن أمسك بزمام عواطفى ، وأفضل أن تكون إرتباطاتى العاطفية والإجتماعية على مستوى الصداقة فى شتى صورها ومختلف درجاتها وأساليبها الخيرة .

وأكبر دليل على صحة هذه النظرية ، هو علاقتى الوطيدة بنعمات ، التى وصلت إلى أعلى درجات الإنسانية والتضحية والإعزاز والتفاهم المتبادل ، رغم خلوها من الغرام والجنس ، بل بفضل خلوها من هذه الإنفعالات الغريزية الزائلة .

ولست أدّعى أنى لم أتورط فى علاقات من هذا النوع ، فإننى لم أعتنق مبادئى الحالية إلا بعد تجارب شخصية ومعايشة لتجارب الآخرين .

تحقيق في قلبي :

في ذلك الوقت ، أي في فترة ما قبل السفر زارتني صديقة صحفية ، كانت تتسم بالذكاء والجرأة ، وسألتني في تحد :

ـــ هل أنت شجاع ؟

قلت :

ـــ أي شجاعة تقصدين؟ إذا كانت الشجاعة المادية ، فأنا لست من أربابها ، لأن حالتي الصحية تتيح لأصغر طفل أن يهزمني في معركة جسدية . وأعتقد أن الشجاعة مسألة نسبية ، فأنا مثلا أخاف من فأر صغير ، ولا أخاف من كلب ضخم . . .

فقاطعتني قائلة :

ـــ بل أقصد الشجاعة الأدبية . .

ـــ أما هذه فتوفرة والحمد لله .. إلا فيما يمس إحساس الآخرين . . كذلك في الناحية المالية لا أجد في نفسي الشجاعة على المطالبة بحقوقي .

ـــ دعك من هذا كله .. هل لديك الشجاعة الكافية للرد على أي سؤال يوجه إليك ؟

ـــ في هذا أنا أتحداك أن تستطيعي إحراجي بأي سؤال بحيث أعجز عن الرد عليه ..

— بصراحة . . ؟

— بمنتهى الصراحة ، طالما لا يمس إنساناً آخر ،لأنى لا أفعل ما أستحى من البوح به .

وراحت تفرك يديها مفكرة ، وهى تحدجنى بنظرة خبيثة ، محاولة كشف أغوار نفسى ، ثم قالت :

— ما رأيك فى المرأة ؟

قلت :

— أروع هدية منحها الله لآدم . . لولاها لأصبحت حياته خاوية . . مملة .. لا طعم لها .

— إذا خيرت بين المال .. والبنين . . والمرأة . . فأيها تختار؟

فقلت على الفور :

— المرأة . . بشرط أن تكون مخلصة . . وأن أكسب من المال ما يكفى لسد رمقنا ، حتى لا نكون عالة على غيرنا . .

وعادت تسأل بعد أن شجعتها صراحتى .

— هل جربت الحب ؟

— نعم ، وذقت حلاوته . . وقاسيت من مرارته .

— وما رأيك فى الحب ؟

— مرارته تغلب على حلاوته . والحب عاطفة يغلب عليها الحزن والقلق ، وأنا أميل بطبعى المرح والاستقرار .

قالت بخبث :

— يظهر أنها أتعبتك كثيراً .

— من إجابتي السابقة تعرفين أني سعدت وشقيت بها . فقد منحتني أسعد أيام حياتي . . وشربت معها كؤوس العلقم .

— وهل تؤيد الرأي القائل بأن الحب الأول أقوى حب ؟

— بالعكس . . إن الحب الأخير هو الأقوى دائماً . . لأنه يكون مستحوذاً على تفكير صاحبه في حينه .

ثم استمرت توجه أسئلتها العامة :

— ما أجمل شيء في الحب ؟

— أن يكون متبادلا . . وليس فيه حرمان .

— وما هو الشيء الذي يقتل الحب ؟

قلت على الفور :

— الغيرة . . إني أمقت المرأة الغيور ، التي تضرب حول رجلها حصاراً من الشك ، وتطارده بالتحقيقات السخيفة . . إنها قطعاً بغيرتها الحمقاء ، تدفع أكثر الرجال حلماً إلى الإنفجار أو الهروب بجلده من سجن أنانيتها .

فسألت محتجة :

— تقصد بهذا أن تسمح الزوجة لزوجها بعلاقات نسائية أخرى ؟

— لا طبعاً . أنا أقصد الزوجة التي تغار من مجرد أوهام مستوحيها من طبيعتها الأنانية .

— إذن ما رأيك فى الزوج الخائن ؟

قلت بحماس .

— الخيانة تمس شرف الزوج الخائن كالزوجة تماماً .

— هل معنى هذا أنك تبيح للزوجة أن تخون زوجها إذا خانها ؟

— كلا .. لأن الكلب إذا عضك فهذا لا يبرر أن تردى له العضة .

وأخذت تسترسل فى حوارها حول الخيانة فقالت ؟

— أيهما تعتقد أنه أكثر وفاء .. الرجل أم المرأة ؟

— فى المتوسط أعتقد أن المرأة أكثر وفاء . إن المرأة إذا أحبت من أعماقها فإنها تخلص بقلبها وعقلها وجسدها .

وهنا إرتسمت على ثغرها ضحكة عريضة وقالت .

— والرجل ؟

— الرجل يخلص بقلبه وعقله . لكنه أحياناً يفرق بين القلب والجسد .

— وبماذا تعلل هذه الظاهرة ؟

قلت :

— لعل مرجعها إلى طبيعة المرأة وتكوينها البيولوجى .

— ماذا تقصد بطبيعة المرأة ؟

— أقصد أن المرأة عموماً مفطورة على الحياء الذى يدفعها

بالتالى إلى كبت مشاعرها . وتقاليدنا الشرقية تروض المرأة على العفة والكبت ، وبالتالى تستطيع مقاومة غرائزها أكثر من الرجل . . .

ويبدو أنها لم تقتنع تماماً بتعليلى هذا ، فقالت :

— وما دخل التكوين البيولوجى لجسم المرأة فى ترفعها عن الخيانة ؟

قلت :

— لقد أثبت العلم أن شهوة الرجل سريعة الإستجابة للجنس الآخر ، وهى كذلك سريعة الإنطفاء . . بعد أن تصل إلى قمة الإرتواء . أما غريزة المرأة . . فهى تستجيب ببطء . . وكذلك تنطفىء ببطء .

— وما فائدة هذا فى موضوعنا . . ؟

— أعتقد أن الخالق عز وجل قد أوجد فى الرجل والمرأة هذا التفاوت حتى ينفعل الذكر قبل الأنثى ، فيبدأ فى التقرب إليها والتودد لها . وتتأخر إستجابة الأنثى فتتدلل . . وبهذا تحفظ الطبيعة على المرأة حياءها ودلالها .

فأشرق وجهها كأنما بدأت تفهم وقالت :

— . . وبهذا تكون الأنثى أقدر على الكبت ومقاومة الإغراء ولا تستسلم لغرائزها بسهولة . .

— هذا ما أقصده فعلا . .

وأردت أن أستفزها فقلت مشاكسا :

ـ وهكذا ترين أن المرأة ليس لها فضل فى إخلاصها . .

قالت مقاطعة :

ـ وأظنك ستقول إن الرجل معذور فى خيانته ؟

ـ كلا . . ألم أقل لك فى أول المناقشة إن الخيانة تمس شرف الزوج كما تمس زوجته . . ؟

فابتسمت ، وعادت إلى الأسئلة الشخصية ، فقالت ؟

ـ لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟

ـ الواقع أن ظروفى الخاصة غير عادية وتتطلب شروطاً معينة فى زوجة المستقبل حتى لا أندم على الزواج .

واستطردت أقول ضاحكا :

ـ . . . وعندى من المتاعب ما فية الكافيه ، ولست بحاجة إلى المزيد .

قالت :

ـ معنى هذا أنك مضرب عن الزواج ؟

ـ . . إلى أن أجد الإنسانة التى تخفف عنى بعض متاعبى ، ولا تشغلنى بمزيد من المشكلات .

ـ إذن ما هى الصفات التى يجب توافرها فى المرأة المثالية ... فى نظرك ؟

ـ أولا . . أنا لا أطمع فى زوجة مثالية ، لأنى لست رجلاً

مثالياً . . أما إذا كان الكلام بصفة عامة ، فالمرأة المثالية فى رأيى ، هى الحنون ، المتسامحة ، المتعاونة ، المخلصة ، النظيفة فى بيتها وجسدها ولسانها .

— ومن حيث الشكل ؟

— أنا كرسام أميل إلى المرأة الرشيقة ، ذات الخصر النحيل ، والصدر الناهد ، والبطن الضامر ، كذلك الشعر الناعم الطويل صفة أساسية من صفات الجمال الأنثوى ، وتعجبنى العيون المعبرة ذات الأهداب الطويلة ، والأنف الدقيق المسحوب ، والشفاة الممتلئة ، والبشرة الناعمة النضرة .

فهتفت فى دهشة :

— ألا ترى أنك غاليت كثيراً فى شروطك ؟

— هذه ليست شروطاً ، بل مجرد صفات مثالية . كذلك تلاحظين أنى لم أهتم كثيراً بالطول الفارع مثلاً ما دام الوزن متناسقاً مع طول القامة والمواصفات السابقة ، ثانياً : لم أهتم بلون البشرة سواء كانت سمراء أو شقراء ، أو لها عيون زرقاء أو سوداء ، المهم هو التناسق والإنسجام العام .

ثم قالت صديقتى الجريئة فى تساؤل ودهشة :

— سمعت أن لك كثيراً من المعجبات ، فهل هذا صحيح ؟

فأجبت فى حياء ، ولو أنى لا أخجل عادة من النساء ، إلا أنى أخجل من الثناء ، قلت :

ـــ أفضل أن أسميهن صديقات ، ومن نعم الله عليّ أن لى أصدقاء كثيرين من الجنسين أبادلهم الود والإعجاب .

عندئذ قالت فى تحد :

ـــ على هذا فأنت هارون الرشيد العصرى ؟

فأجبت بمزيد من التحدى :

ـــ أنا لا أحب أن أكون كهارون الرشيد . . لأنه كان يشترى النساء بماله ، ويمنحنه الحب نفاقاً . . وهكذا تجدين أنى أفضل منه .

ـــ ألم تجد واحدة من صديقاتك تتمتع بصفات الزوجة المنشودة؟

ـــ طبعا الصفات المثالية موجودة بكثرة ، ولكن قلما تتكامل فى إنسانة واحدة ، وإذا اكتملت قامت عقبات أخرى تحول دون الزواج .

ـــ أية عقبات هذه ، ما دامت تحبك وحائزة لمعظم طلباتك ؟

ـــ عقبة إختلاف الدين . . مثلا . . أو معارضة الأهل . أو أو صغر سنها . أو أن تكون متزوجة فعلا . . أو

فقاطعتنى فى استنكار :

ـــ وكيف تبيح لنفسك صداقة بسيدة متزوجة ؟

ـــ إن فى خانة الصداقة الروحية متسعاً الأخوات المتزوجات . وغالباً ما أكون على صلة عائلية وثيقة بأهل صديقتى ، وأخوتها ووالدتها . . وأحياناً تعرفنى بزوجها إذا كان تفكيره سليماً ،

فتنشأ بينى وبينه صداقة وطيدة ، بعد إيمانه بأخلاقى وتصرفاتى .

وعادت تسألنى :

ـ إذا وفقت إلى الزواج . . فهل تتخلى عن صديقاتك ؟

ـ مستحيل . . فالمفروض أن زوجتى ستكون عاقلة مترفعة عن الغيرة الحمقاء . وهكذا ستفهم أن هذه الصداقات بريئة وشريفة . بل ستنافسنى هى فى صداقاتهن . وسوف أمنحها قلبى . . وجسدى فقط ، أما عقلى وصداقتى . . فللجميع . .

قالت :

ـ ألن يكون لها نصيب فى عقلك وصداقتك ؟

ـ بالطبع . . فهى من ضمن الجميع . . إن لم يكن لها النصيب الأوفر .

ويبدو أن إجابتى لم تعجبها ، فقالت باستنكار :

ـ وأين ستجد هذه الفدائية ؟

قلت :

ـ أعتقد أن أية إنسانة نبيلة مجردة من الأنانية تقبل هذا الوضع .

إنتهت مناقشتى مع الصديقة الصحفية . . .

ولعله يبدو غريباً أن تستوعب ذاكرتى هذا الحوار بتفاصيله . والحقيقة أنه مسجل على شريط أحتفظ به . وقد نقلت هنا مضمون

الحديث بعد أن حولته إلى حوار بالفصحى . وبعد أن حذفت منه مالا يجوز نشره من أسئلة الصديقة الجريئة . وردودى الأكثر جرأة . ولعل هذا الجزء الأكبر من الحوار يعطى فكرة عن آرائى ومعتقداتى ، ويجلو بعض جوانب هامة من حياتى العاطفية .

أرشيف الصديقات :

حينما انهارت جدران سجنى ووجدت نفسى بين طوفان من الصديقات والأخوات والزميلات والمعجبات والأمهات والبنات. بدأت أرتبك فى التعرف على أصواتهن من خلال سماعة التليفون، رغم أن أذنى حساسة فى تمييز الأصوات . لكن توافدها متتابعة لم يدع لى فرصة لاستيعاب كل صوت ، واسم صاحبته . وبدأت أخلط بين معلوماتى عنهن فأكلم المتزوجة على أنها آنسة ، وأخلط بين أم الأطفال والطالبة . مما كان يضايقهن . فإن الأنثى يخدش كبرياءها أن تهتم بإنسان ينسى اسمها ، أو يحدثها على أنها إنسانة أخرى ، ويتحطم قلبها إذا أكتشفت بعد لحظات من الحديث الودى ، أنها لم تكن المقصودة بالترحيب الذى استقبل به صوتها فى بداية المكالمة .

ولم أجد بدآ من أن أحتفظ بمفكرة إلى جانبى ، أرصد فيها -- خفية -- إسم الصديقة الجديدة ، والمعلومات الرئيسية التى وردت فى حديثها ، ثم أعطيها رقماً مسلسلا .

ولم تعفنى هـذه الطريقة من الخلط بين الأصوات ، لـكنها كانت تفيـدنى فى الإعتذار عن الخطأ . إذ لا أكاد أتأكد من شخصية المتحدثة بعد استدراجها فى الحديث حتى ألجأ إلى المفـكرة وأهتف بمحدثتى :

— آسف إذا كان قد اختلط علىّ الأمر ، فلم أميز صوتك من أول وهلة .. لـكنى ما زالت أذكرك تماماً . ألست فلانة .؟ التى تسكن فى حى كذا ..؟ وبالأمارة أنك سمراء . . وطولك كذا . . . ووزنك كذا . . .

إلى آخر المعلومات المدونة أمام رقمها . وسرعان ما يلتئم جرح كبريائها ، عندما تتأكد أنى أيضاً مهتم بها ، وأنها ليست مجرد صوت عابر على سماعة تليفونى . والواقع أنى كنت أهتم جداً بكل من يطرق باب صداقتى . وما لجأت لفـكرة أرشيف الصديقات إلا لحرصى على مشاعرهن الرقيقة من الحرج أو الخجل . كذلك كنت أكتب تلك المعلومات بصفة مؤقتة تمهيداً لاستيعابها دون خلط أو خطأ . وكنت أحياناً اصارح بعضهن بحقيقة الموقف ، وأطلعهن على أرقامهن المسلسلة ، حتى يكون الرقم بديلا عن كلمة السر فى بداية المـكالمة .

أذكر أنى حينذاك تسلمت باقة من الورود الحمراء الرائعة ، وعليها بطاقة تحوى كلمات مجاملة باللغة الانجليزية ، أما التوقيع فكان «رقم ١٧» . ومن الطريف أن صاحبة هذا الرقم صارت فيما

بعد من أعز صديقاتى ؛ وكنا نداعبها بمناداتها بهـذا الرقم من وقت لآخر .

كذلك قامت مشكلة تشابه الأسماء . فكنت أتحدث أحياناً مع « نادية » مثلا لعدة دقائق ، ثم يتضح أنها نادية أخرى ! وكانت أسماء « نادية » و « ليلى » هى أكثر الأسماء تكراراً . فقد كان كشف صديقاتى يضم سبعاً يحملن إسم نادية ، وخمساً يحملن إسم ليلى . فكنت ألجأ إلى أسماء التدليل لتمييز إحداهن عن الأخرى ، فاسم ليلى مثلا إما أن تنادى صاحبته بكسر اللام الأولى والثانية ، أو كسر اللامين مع تخفيف الأولى .. إلى آخر هذه الاشتقاقات . وأحياناً كان اسم التدليل مشتركاً لعدة أسماء حقيقية مثل «زيزى»، التى يكون أصلها إما زكية أو زينب أو إيزيس إلى آخره، مما يضللنى عن الإسم الحقيق ، فأكلم زكية على أنها إيزيس مما يعقد الموقف !

أما أفراد عائلتى فكانوا أكثر منى ارتباكا ، فلجأوا إلى إضافة لقب آخر للإسم المشترك . وهذا اللقب إما أن يكون ماركة سيارتها أو إسم الحى الذى تسكنه ، أو اسم هدية مرموقة . فأصبحت قائمة الصديقات تحمل أسماء « ليلى مرسيدس » أو « نادية زيتون » و « زيزى ريكوردر » . وصار من الصعب علينا التخلص من هذه الألقاب حتى الآن وبعد ثمانى سنوات بالنسبة إلى الشخصيتين الأخيرتين .

أما صاحبة « المرسيدس » فقد انقطعت صلتى بها منذ سنوات.

كانت هذه الارتباكات فى البداية فقط ، حيث زاد عدد الأسماء فى أرشيف الصديقات عن المائة فى فترة تقل عن شهر ونصف ، مع أن ضيوف الأرشيف كن لا يتجاوزن الإثنين والأربعين قبل ٣ مارس ١٩٥٩. وفى بحر العام التالى إرتفع الرقم فى الأرشيف حتى تجاوز المائتين !

ثم بدأت عملية « الغربلة » ، فسقطت من القائمة صاحبات النزوات العابرة، أو من دفعها حسب الإستطلاع إلى التعرف على شخصية غريبة ، أو هاويات العبث والمشاكسة ، أو صاحبات المشاكل التى إنتهت مهمتى معهن بإنتهاء المشكلة سواء بالنجاح أو الفشل. ومعظم هؤلاء كانت القطيعة بمحض إرادتهن . وهناك فئة أخرى اضطررن تحت ضغط التقاليد أن يخترن بينى وبين الزواج فانتصر نداء الطبيعة .

أما القطيعة من طرف فكانت نادرة ، وعند الضرورة .. أمام الجامحات أو السليطات اللسان. وهذه الفئة الأخيرة لا أحتملها بأى حال ، لأنى أحب أن تقوم علاقاتى الإنسانية على الإحترام المتبادل مهما كانت درجاتها . ولا يعنى هذا أنى متزمت أو عبوس ، فليس أحب إلى نفسى من البساطة والمرح ، وعدم التكلف . لكنى أعنى بسلاطة اللسان هؤلاء الذين يهبطون إلى مستوى تبادل السباب والألفاظ البذيئة ولو على سبيل المداعبة .

ظاهرة الجنس اللطيف :

كانت نسبة الجنس اللطيف فى قائمة الوافدين ، تشكل الأغلبية العظمى بنسبة ٩٥ فى المائة على الأقل. ورغم ارتياحى لهذه الظاهرة العجيبة ، إلا أنها كانت تثير تساؤلى واهتمامى . وحاولت أن أعلل أسبابها ، فلم أصل إلى إجابة قاطعة ... !

إفترضت أولا أن قلوب النساء أرق من قلوب الجنس الخشن . بحيث هزتهن مأساتى. ولكن من أحاديثى معهن إتضح لى أن حكايتى لم تستدر شفقتهن ، فإن صوتى فى الإذاعة لم يكن شاكياً مستضعفاً ، بل على العكس كان مرحاً متفائلا . كذلك صورى فى الصحافة كان وجهى فيها يفيض بالصحة والبهجة . ولو أن بعض الصحفيين — سامحهم الله — كان يحلو لهم أن يجسموا مأساتى فى إطار من الدموع والآهات . حتى ولو افترضنا تأثر البعض بهذه الأحاديث الدامعة فإن هذا الدافع لابد أن ينتفى تماماً عند إتصالهم بى ، لأن مظهرى وتصرفاتى لا توحى بأى يأس ، أو ضعف ، أو تخاذل .

ولو اعتبرنا هذا الفرض صحيحاً ، لكان معناه أن نسبة القلوب الكبيرة فى الرجال إلى النساء هى خمسة فى المائة ، وهذا غير صحيح وفيه ظلم للرجال ، وأنا أعرف رجالا كثيرين أكثر حناناً من النساء . وأقرب مثال حى لهذه المقارنة.. هما والدى ووالدتى . وقد بينت طباع كل منهما تفصيلا فيما سلف .

كذلك كنت أضطر أحياناً أن أكون عنيفاً قاسياً حتى أصحح بعض الأوضاع الخاطئة ، وأوقف الطرف الآخر عند الحدود التى يرتضيها ضميرى ، فلم تكن هذه القسوة تؤثر فى تمسكهن بى . ولو كانت علاقتنا أساسها العطف لتلاشت تلك العاطفة المشفقة .

وكانت أحياناً بعض الساذجات يظهرن شيئاً من التأثر والاشفاق نتيجة ضعفهن شخصياً . فكنت أرفض عطفهن بشدة، وألقن المشفقة درساً حازماً حتى أقنعها بأن توفر عطفها لنفسها .

وإذا استبعدنا عنصر العطف من قائمة المغريات ، يتبادر إلى الذهن أنهن قد يكن معجبات بإنتاجى الأدبى . لكنى لا أستطيع أن أخدع نفسى بهذا الفرض أيضاً لعدة أسباب. فإنى حتى ذلك التاريخ لم أكن قد نشرت إلا بضع قصص من إنتاجى الذى أرضى عنه ، لاتزيد عن أصابع اليد الواحدة . ولا يمكن أن يصور لى غرورى أن تلك القصص القليلة قد جذبت مثل هذا العدد من المعجبات . فقد لاحظت للأسف أن كثيرات منهن لا يهتممن بإنتاجى الأدبى كثيراً . لأنهن لا يأبهن بالقراءات الأدبية عموماً. بل كانت حبيبتى الأولى تغار من انهماكى فى القراءة والتأليف ، وتتمنى أن أترك عملى الأدبى لأتفرغ لها! . كذلك كان نشر إنتاجى القصصى على نطاق واسع فيما بعد لا يجذب إلا الشغوفات بالأدب فعلا . أما الأحاديث الإذاعية والتحقيقات الصحفية، فكانت تسحب وراءها مجموعة جديدة من الصداقات .

ترى ماهو الدافع الحقيقي لهذه الظاهرة ؟

ولماذا لاأوجه لهن هذا السؤال ؟

كنت أنتهز لحظات التجلي ، وأستجمع شجاعتي لألقي هذا السؤال السخيف ، بعد أن استحلفهن أن تكون الإجابة بعيدة عن المجاملة .

قالت إحداهن :

ـ أعجبتني روحك المعنوية وصبرك على الألم ، فأردت أن أستمد منك قوة أتغلب بها على متاعبي التافهة إذا قيست بمتاعبك .

وقالت أخرى :

ـ كان صوتك عميقاً هادئاً يوحي بالثقة ، فأردت أن أشكو إليك همومي ، وأستنير برأيك في مشاكلي بصفتك أديب تكتب عن مشاكل المجتمع وتضع لها الحلول ، وتحلل النفوس البشرية وتكتشف عقدها وأمراضها ..

وقالت ثالثة ، وكانت أستاذة جامعية :

ـ عندما سمعت حديثك الإذاعي لم أصدقك وأنت تدعي السعادة رغم ظروفك القاسية . فاتصلت بك لأتأكد بنفسي من حقيقة شخصيتك ، فوجدتك فعلا تسوس حياتك وتسعد بها ، كما أعجبني كفاحك المستميت للتغلب على المتاعب والعقبات .

ثم جاءت إجابات فردية عن الصفات الشكلية ، أو المشاركة

الوجدانية من أناس متألمين يحسون بمتاعبي ، أو الإحساس بالرغبة في تسليتي وتخفيف وطأة الحياة عني .

لكني لمست بنفسي أن القسط الأكبر من الصديقات كن يعانين من مشكلات خاصة ، وبحكم ظروف المرأة في مجتمعنا الشرقي ، كن يكبتن الهموم في أعماقهن ولا يجرؤن على البوح بها حتى لصديقاتهن حرجاً من المصارحة ، أو خشية تناثر السر إلى الأخريات. ومثل هؤلاء المتأزمات إذا ما صادفن شخصاً ذا تجارب وخبرة بالحياة ، شخصاً إستطاع أن يتغلب على مشاكله الخاصة ، ويحترف معالجة المشكلات بقلمه . عندئذ يجدن أمامهن الضالة المنشودة ، والطبيب النفسي ، الذي لن يتقاضى أجراً ، ولن يفشي سراً . وقد يمعن بعضهن في التخفي ، فلا يذكرن حتى أسماءهن . وهؤلاء أحترم رغبتهن ، وأكتفي بأي إسم مستعار أميز به الصديقة الغامضة عن غيرها .

وفي قائمة صديقاتي شخصيات أعتز بها بعد أن امتدت صداقتي بهن إلى عدة سنوات حتى الآن. ولا أعرف لهن أرقام تليفونات أو عناوين ، أو أي سبيل للاتصال بهن . وهناك من تطلق على نفسها إسماً مستعاراً ، أو تترك لي هذه المهمة ، فإما أن أسميها بصفة ألمسها فيها ، مثل حنان .. أو .. وفاء . أو أطلق عليها إسماً طريفاً من باب التفكهة أو التمييز مثل مدام حنفي .. أو .. أبو سريع الـ

البحث عن المشاكل :

من أعز هواياتى الإنسانية . . البحث عن المشاكل . ومحاولة تخفيف آلام الغير . وقد أعيش فى عدة مشاكل فى وقت واحد . وأنصت لكل منها باهتمام شديد ، وأعيش فيها كأنها تخصنى شخصياً . وأتابع أحداثها مع أصحابها ، وأمنحهم الكثير من وقتى وأعصابى . لكنى أحلـِّق فى قمة السعادة عندما يوفقنى الله إلى حل مريح يخرجهم من متاعبهم . وأحوّل دموعهم إلى بسمات ، وأحياناً إلى قهقهات عالية .

لست أدعى أنى أصنع المعجزات ، فهناك مشاكل لا حل لها ، لأنها ليست فى مقدور البشر . وهناك كوارث وقعت فعلا ولا سبيل إلى تصحيحها . ويقتصر دورى فى تلك الحالات على إقناع صاحب المشكلة بنفس الأساليب التى أقنع بها نفسى للتغلب على مشاكلى الخاصة . وهى تتلخص فى عدم البكاء على مافات ، ومحاولة التعويض عن المفقود . وأحياناً يكون دورى هيناً للغاية فى إراحة شخص مأزوم ، فيكفى أن يزورنى ، ويلمس بنفسه سعادتى وانطلاقى واستمتاعى بالحياة . حتى يؤمن بأن متاعبه تافهة ولا تستحق منه كل هذا العناء ، ويخرج من عندى متخففاً من همومه راضياً بحكم الله . . قانعاً بنصيبه فى الحياة .

وقد تحولت هذه الهواية إلى مستوى الإحتراف منذ وقت

بعيد ، بدأت بردود مرحة فى باب « بريد المفتى » الذى كنت أحرره فى « روايات الأسبوع » ثم فى مجلة « قصتى » كما ذكرت من قبل ، ثم أفردت لها صفحة خاصة بعنوان « تعالوا نحل هذه المشكلة » .

ثم عهد إلىّ الأخ فهمى عمر بأن أجيب على أسئلة المستمعين فى مجلة الهواء . ومنها استفسارات عاطفية وأدبية واجتماعية وعلمية ، وأحياناً تصلنى مشاكل طبية أو قانونية ، فأسأل المتخصصين إن كانت معلوماتى لا تفى بالغرض ، أو أرجع إلى الموسوعات العالمية إذا لزم الأمر . لكنى فى النهاية لا أرتاح حتى أعطى السائل إجابة شافية .

ثم اتسع اختصاصى ، فتوليت الرد على بريد برنامج « دنيا الفنون » بدعوة من مقدمة البرنامج الأخت مديحة نجيب ، وكنت أجيب فيه على الأسئلة الفنية ، من شعر وزجل وقصة وسينما ومسرح وموسيقى ، فأوجه الهواة ، وأقيّم إنتاج الأدباء الناشئين ، وكم كانت تسعدنى كلمات الشكر من أصحاب المواهب الصاعدة ، عندما أشجع الناضج منهم بإذاعة إنتاجه وآخذ بيد المبتدىء حتى تنمو هوايته .

ثم تخصصت فى دائرة القصة القصيرة ، لفترة من الوقت ، عندما عهد إلى بالرد على رسائل الأدباء الناشئين فى مجلة الرسالة ، حيث كانت تصلنى أكداس من القصص فأختار الجيد منها لنشره

كاملا أو ملخصاً مع تقييمه ونقده ، ثم أعلق على مادون مستوى النشر بغير تثبيط للهمم .

ثم اتسعت دائرة المشاكل ، عندما طلبت منى الأخت ليلى عجرمة أن أتولى إعداد صفحة الطفل فى مجلة الأسرة الإذاعية مرتين فى الأسبوع . فكنت أقسم الحلقات الثمانية ، بين القصص التوجيهية للأطفال ، وبين المنوعات والمسابقات ، والرد على بريد الأطفال . وهكذا بدأت أعيش فى مشاكل الأطفال ، فأجيب عليها بقدر ماتسمح به الإذاعة من صراحة .

وبعد أن تركَت الأخت مديحة نجيب برنامج «دنيا الفنون» ، إلى إذاعة الشرق الأوسط ، عهدت إلىّ بالرد على بريد برنامجها الجديد « ألوان ». وهو بريد متنوع ، تدور بعض أسئلته عن معالم البلاد العربية ، قديمها وحديثها ، والإجابة عن الأسئلة العلمية ، هذا بجانب المشاكل العادية وتوجيه المواهب الناشئة .

ومنذ سنوات كنت ايضاً أشرف على مسابقة مجلة الأسرة فى برنامج « مع الشعب » بالإذاعة . وكانت المسابقة تعتمد على اختيار مشكلة عائلية من رسائل المستمعين ، حيث أعرضها على مستمعى البرنامج باختصار وتركيز ، ثم أطلب آراءهم فى حلها . ثم تجيئنى مئات الردود المقترحة من المتخصصين وأصحاب التجارب المماثلة ، وكذلك من هواة البحث عن المشاكل مثلى . ومن هذه

الحصيلة أخرج بدراسة شاملة للمشكلة ، ثم أضيف من عندى رأى البرنامج .

وكنت أحياناً لا أجد بين بريد المسابقة ، رسائل تحمل مشاكل جديدة أو هامة . وبما أن هدف الإذاعة هو خدمة المجموع ، وليست المصالح الشخصية الفردية ، فقد كنت أضطر حينئذ إلى تقديم مشكلة عامة من تأليفى ، مستوحاة من تجاربى الخاصة ، وأعرضها للبحث ، فتجد إقبالاً شديداً لأنها تمس عدداً كبيراً من الناس ، ولم أكن بذلك أخدع أحداً ، لأن المشكلة موجودة فعلاً بيننا . وإن لم يرسلها إلى البرنامج شخص معين . أما بالنسبة للمشتركين فى المسابقة ، فقد كانت الجوائز تصرف لهم بغض النظر عن المشكلة الوهمية .

* * *

هكذا ساقتنى الأقدار إلى الانغماس فى مشاكل الناس ، فكنت وما زلت ، أمارس هذه الهواية فى رضا وسعادة ، سواء أكانت مجانية فى محيط صداقاتى الخاصة أم بأجر فى أجهزة الإعلام . وكلمة مجانية لا تعبر عن الواقع فى صدق ، لأنى أتقاضى شحنة ضخمة من السعادة ، عندما أنجح فى إعادة الحياة إلى بيت كاد يتهدم ، أو إعادة أم متهورة إلى أبنائها ، أو أرسم بسمة راضية على شفاه متمردة ، أو إشاعة الإطمئنان والبهجة والأمل فى نفس حزينة قلقة .

وقد تكاتفت عدة هوايات أخرى فى إنجاح هذه الهواية

المفضلة . أولاها هوايتي القديمة في تحصيل الثقافة الموسوعية الشاملة ، مما جعلني ملماً بنواحي متعددة من العلوم والفنون والآداب ، بقدر يسمح لي بالإجابة . أو على الأقل بتتبع الإجابة في المراجع والموسوعات التي تضمها مكتبتي .

ثانياً ... هوايتي وشغفي بقراءة علم النفس والاجتماع، ودراسة الجنس بتوسع على أسس علمية من الناحية النفسية والتشريحية والفسيولوجية ، مما يجعلني قادراً على إجابة الأسئلة المحرجة التي تشكل كثيراً من علامات الاستفهام أمام معظم الناس حتى المتعلمين منهم . لأن هذه المعلومات « أقصد الجنسية » لا تدرس للأسف في المدارس أو المعاهد إلا من الناحية الميكانيكية في العلاقات الجنسية ، لكنها تغفل النواحي النفسية والإنسانية والدراسات المتكاملة في هذا العلم الخطير . . بل الفن العظيم .

وكم شاهدت من زيجات تحطمت على صخرة الجهل بهذه النواحي الجوهرية في حياة الإنسان . وكم من زوج متعلم يعامل زوجته على أنها مجرد جسد . ويجهل أن المرأة تنتظر من زوجها الهمسة الحالمة ، واللمسة الرقيقة ، والقبلة المثيرة ، قبل أن يندفع في شراهة . . ليلتهم وجبة اللحم قبل أن تنضج على أنفاسه الحارة ولمساته الدافئة .

ثالث الهوايات المساعدة هي دراسة النفوس البشرية على الطبيعة ، وتطبيق المعلومات النظرية على نماذج حقيقية ، قد تكون

هذه الهواية نتيجة احتراف الأدب القصصى ؛ وقد يكون التأليف القصصى هو النتيجة الطبيعية لرغبة الغوص فى أعماق الآخرين . المهم أن هذه الدراسات والتحليلات التى أمارسها أحياناً بطريقة عفوية ، غير إرادية ، قد منحتنى خبرة فى معالجة المشكلات الإنسانية ، وكلما عشت تجاربى الخاصة وتجارب الآخرين فى عمق وتأمل ، تفتحت أمامى سبل العلاج . فمعظم المشكلات تنبع من أصول معدودة ، لكنها تتخذ أشكالا وتركيبات مختلفة .

الهواية الرابعة المساعدة قد تبدو مضحكة إلى حد ما . وهى شغفى بحل الألغاز المعقدة . وهذه المتعة اكتسبتها فى صباى المبكر، حينما كنت أعالج مسألة حساب أو تمرين هندسة ، وأصر على فك طلاسمه ، ثم تطورت إلى الرغبة فى حل الألغاز والأحاجى ، ثم إلى الرغبة فى حل عقدة الرواية البوليسية والتنبؤ بمفاجآتها ، ثم أصبحت أستمتع بالتفكير فى حبكة قصة من تأليفى أو تكوين رسم برشتى ، أو التفكير فى اختراع أو تصميم فكرة جديدة ، مثل « المحرك الذاتى » الذى سبق أن تكلمت عنه ، أو تصميم قطعة أثاث أو « ديكور » لتجميل إحدى زوايا البيت .

ثم انضم الوازع الإنسانى إلى هذه الهواية الفردية ، فأصبحت أهتم بمشكلات الغير كما أهتم بمشاكلى الخاصة . وهكذا نمت هواية البحث عن المشاكل تلقائياً . وبتفاعلها مع الناس . صرت أمنحهم خبراتى فيمنحوننى مزيداً من تجاربهم الصريحة ، لثقتهم فى كتمانى ،

وحسن انصاتى، وعدم التجائى إلى أسلوب اللوم والمواعظ الجوفاء. بل أقبل المشكلة كأمر واقع ، وأتقمص شخصية صاحبها بإخلاص ، ثم أحاول أن أخرج منها أو أقلل من نتائجها السيئة .

الصداقات الجماعية :

كانت صداقاتى تتخذ أحياناً شكلا جماعياً ، عندئذ يحتاج الأمر إلى مزيد من الحرص واللباقة لأحتفظ بصداقتهن جميعاً. وقد حدث هذا عندما تعرفت فى تلك الفترة بإحدى الصحفيات الناشئات فى دار أخبار اليوم . فعرفتنى بزميلتها ، ثم بأخرى من موظفات الأرشيف ، ثم اتصلت بى رابعة لتكتب عنى تحقيقاً للمجلة .. . حتى ضمت قائمة صداقاتى تسعاً من صحفيات الدار ، ربطتنى بهن زمالة وأخوة وصداقة وطيدة . وكن يزرننى فى مجموعات ، فتتخذ الزيارة طابعاً ثقافياً مرحاً ، خاصة إذا كانت تضم بعض أصدقائى الصحفيين من نفس الدار .

وتكررت هذه الظاهرة الجماعية ، عندما تعرفت مصادفة على إحدى عاملات « السنترال » . وكانت لها مشكلة عاطفية ، فوفقنى الله إلى إراحتها نفسياً ، وحولت دموعها إلى بسمة مطمئنة تفيض بالأمل . فراحت تدعو لى بين زميلاتها صاحبات المشاكل والإستفسارات ، وفى أسابيع قليلة أصبح لى أنصار ومريدون بين سنترالات القاهرة .

لكن هذه الصداقات الجماعية لا تدوم طويلا ، ولا تلبث أن ينفض شملها بعد عدة شهور بالتدريج ، فلا يتبقى منهن غير واحدة أو أثنتين . لعل السبب فى هذا أن بنات حواء لا يقبلن المنافسة . ولا ترضى كل منهن أن تكون واحدة ضمن «الحريم» اللاتى يجمعهن مكان واحد . ولعل بيوت الزوجية تختطفهن واحدة بعد الأخرى ، والأزواج الشرقيون لا يؤمنون بمبدأ الصداقـــة ولو كانت أخوية عفيفة .

نقيب العابرين :

منذ أن نشرت مجلة « الجيل » أول تحقيق عنى فى سنة ١٩٥٥ ، وكشفت فيه عن حالتى الصحية ، إتصل بى بعض زملائى فى الأسرة البيضاء . وكنت أظن أن حالتى فردية ، فإذا بى أكتشف ضحايا آخرين لهذا الأخطبوط المسعور الذى لا يتغذى إلا على مفاصل البشر . ومع الوقت تجمع فى أرشيف صداقاتى عشرة من زملائى الضحايا ، الذين أفردت لهم مكانة خاصة فى قلبى ، فأنا أول من يحس بمعاناتهم وآلامهم . كانت إصاباتهم متفاوتة ، فمنهم من حبسه الأخطبوط فى سريره ، ومنهم من ثبته فوق كرسى متحرك ، ومنهم من أطلق له حرية الحركة داخل البيت على « عكازين » . ومنهم من أتاح له الخروج إلى الطريق مستنداً إلى ما يشبه « مشاية » الأطفال . أما

أنا فقد خصنى الأخطبوط الجشع بمزيد من شراهته ، فالتهم معظم مفاصلى ، حتى أصبحت أكثر الضحايا عجزاً عن الحركة . لكنى مع ذلك أكثرهم سعادة وتفاؤلا . لهذا لقبونى بالنقيب .. نقيب الصابرين .

لقد كان كل من أعضاء النقابة منطوياً على نفسه فى عقرداره . دون أن يحس به أحد . وكان من المستحيل أن نتعارف ونلتقى على أسلاك التليفون إلا بعد أن شاعت قصتى بوسائل الإعلام المختلفة ، وبهذا أصبحت المحور الذى تجمعت حوله النقابة ، ومن ثم قدمت كلا منهم إلى الآخرين . وأصبحنا جميعا أصـــدقاء حميمين دون أن نلتقى .

عضو واحد من هذه النقابة هى التى أتيحت لها فرصة زيارتنا . إنها الأخت « نادية جاد » . وهى من أكثر أعضاء النقابة شجاعة وتفاؤلا وروحاً عالية ، فضلا عما وهبها الله من وجه ملائكى وسيم ، وقد غفل الأخطبوط عن بعض مفاصلها بحيث أتيح لها أن تتحرك فى صعوبة شديدة على عصوين . وإذا جلست ظل جسمها مشدوداً دون انثناء . وهى تخرج إلى الطريق وتجوب الشاطىء صيفاً فى شجاعة نادرة أحسدها عليها . وتلتف حولها العيون والقلوب ، فلا ترتبك أو تفقد ابتسامتها السعيدة الراضية . وقد أرغمتها مضاعفات المرض فى ساقيها على ارتداء الثياب الطـــويلة الفضفاضة التى تصل إلى الكعبين .

ويشاركها فى جرأتها النادرة الأخ حسين القبانى، الذى يجوب الشوارع فوق كرسيه المتحرك ، ويقود سيارته بنفسه ، ولا يعود إلى سريره إلا ليغفو بضع ساعات كالأصحاء . والواقع أن الأخ حسين ليس من أعضاء نقابتنا لأن مرضه يختلف عنا ، ومفاصله تتحرك بسهولة ، ويستطيع أن يجلس معتدلا فى كرسيه المتحرك ، وينتقل منه إلى السرير بمفرده ، وهو — بفضل شجاعته — يستغل هذه الإمكانيات المحدودة الى أقصى مداها ،فيذهب إلى دور السينما، وإلى المقاهى على شاطىء النيل ، ويزور أصدقاءه،ولا يأبه بمصمصة العجائز المشفقات ، أو نظرات الطفيليين .

والواقع أنى أفتقد هذه الجرأة . ولا أطيق أن أتعرض لمثل تلك النظرات والهمسات المشفقة . لاسيما أن وضعى على الكرسى المتحرك يبدو منفراً، فضلا عن أنه مؤلم وغير مريح . لهذا لم أفكر مطلقاً فى مغادرة بيتى على كرسى متحرك ، لأن المتعة التى سأجنيها لاتوازى المتاعب النفسية والجسدية .

ومن أعضاء النقابة الأخ على حسن . وكانت قيوده تكاد أن تتساوى مع قيودى ، إلا أنه كان يستطيع أن يقف فترة طويلة مستنداً إلى عصاته . وكان يتمتع بجرأة عجيبة تتضاءل بجانبها جرأة القبانى ونادية جاد . فكان يجلس بجسده الصغير فى عربة أطفال تدفعها زوجته إلى أى مكان . وكان يبادر المارة بتعليقاته وقفشاته ،

ويخلق حوله جواً صاخباً . ويقول في هذا : « إذا كان الناس يتفرجون على شخصي المفرد ، فأنا أتفرج عليهم جميعاً » .

وكان يملك سيارة كبيرة ، يحمله إليها تابعوه . وقد أصر يوماً أن يصطحبني معه في سيارته لنخرج في جولة يطلعني فيها على معالم القاهرة الجديدة . ورضخت أخيراً لإلحاحه مشترطاً أن يدخل السائق بالسيارة إلى مدخل البيت ، فلا يراني الناس وأنا أدلف إليها محمولاً كالجثة الهامدة . وكان لي ما أردت . لكني عدت من هذه الرحلة الشيقة بعد ثلاث ساعات منهوك القوى لطول جلستي رغم ليونة مقعد السيارة .

كان الأخ علي حسن مرحاً نشيطاً ، يمارس بعض المشاريع التجارية في حيوية يحسده عليها الأصحاء . والواقع أنه كان جديراً بأن ينتزع مني لقب النقيب . لكنه فجأة اختفى من الميدان وانهارت معنوياته ، واعتزل التجارة والناس . بل ورفع آلة التليفون من بيته . فلم نستطع الإتصال به . ولم نعرف كنه الصدمة التي أفقدته معنوياته العالية .

والأخ جمال مدكور من أقرب أعضاء النقابة إلى نفسي . وهو أول من إتصل بي في عام ١٩٥٥ . ومازالت صداقتنا قائمة على البعد عبر أسلاك التليفون . وهو شاب وسيم ، مهذب ، شديد الحساسية ، لدرجة جعلته يعتزل الناس ولا يرحب بالزائرين . لكني

رويداً رويداً أخرجته من عزلته ، فأصبحت حياته الآن مليئة بالأصدقاء والصديقات ، أكثر من أى شاب منطلق دون قيد .

والظاهرة العجيبة فى أعضاء نقابة الصابرين أنهم جميعاً رغم قيودهم يتمتعون بالصداقة والإعجاب من الجنس الآخر . والأعجب أن هذه الظاهرة لم تلفت نظرى أنا وحدى. بل لاحظها علماء الطب الإنجليز . قرأت هذا فى كتاب أهدانى إياه مؤلفه دكتور ر . م مايسون أستاذ الأمراض الروماتيزمية ، وكان ضمن أطبائى المعالجين فى لندن . وفى إحدى صفحات الكتاب جاء تعريف تفصيلى لمرض التهاب المفاصل الإلتصاقى بالذات . يقول فيه المؤلف :

« هذا نوع نادر من الروماتيزم ، وتكمن أهميته فى أنه يصيب الشباب بصفة رئيسية ، ويبدو أنه يختار الأصحاء منهم ، ومن يتسمون بطابع الرجوله المكتملة والجسم الرياضى . وهناك ظاهرة أخرى عجيبة ، فقد لوحظ أنه — لسبب ما — يبدو عادة هذا المريض بالذات شخصاً ظريفاً ، وهذا فى الواقع من حسن الحظ فهناك مثل قديم يتداوله الأطباء يقول إن كل مريض بالتهاب المفاصل الالتصاقى تنطوى حياته على مأساة » .

هذا هو رأى علماء الإنجليز ، ولعل فيه تفسيراً للظاهرة التى رويتها . وإذا كان الأطباء الجادون لايجدون له تفسيراً علمياً .

فإنى أراها تعويضاً عادلاً من السماء لمن ابتلاهم الله بهذه المحنة القاسية .

نجوم السينما :

من الفنون التى أعشقها . . التمثيل . وأطرب الأداء التمثيلى المتقن أكثر مما أطرب للغناء . وبالتالى يضايقنى جداً التمثيل الهزيل المفتعل أو المبالغ فيه . وهناك من يقلل من شأن التمثيل كفن ، بحجة أنه مجرد ترديدلنص المؤلف وتوجيه المخرج . لكنى أعارض هذا الرأى ، لأنى كمؤلف لمست مدى قدرة الممثل على الارتفاع بالنص الأدبى وتجسيده .

وقد كنت قبل عهد التليفزيون فى مصر ، محروماً من السينما والمسرح ومشاهدة التمثيل عموماً . وكنت أشاهد صور الممثلين والممثلات على صفحات الجرائد والمجلات ، وأحفظ ملامحهم حتى أطبقها على الأفلام والمسرحيات المذاعة بالراديو . ولكن تلك المتعة الناقصة كانت تضاعف من لهفتى على مشاهدة السينما والمسرح . وكنت أستعيد ذكرياتى القديمة عن التمثيل واستجمعها فى خيالى كما يفعل الضرير الذى فقد بصره فى صباه .

قبل سفرى بأسبوع عرض علىّ أحد أصدقائى الصحفيين فى دار أخبار اليوم، أن يأتى لى بمجموعة من نجوم السينما لزيارتى، وإقامة حفل لتوديعى قبل السفر . فرحبت بالفكرة . ولم أفطن

إلى أن الصحفى الماكر أراد أن يستغل هذه الحركة فى تحقيق صحفى مثير فى فكرة « ليلة القدر » التى ابتدعتها أخبار اليوم لتلبية طلبات بعض القراء المحظوظين بتحقيق أحلامهم وآمالهم.

سألنى الصديق الصحفى عمن أريد لقاءهم من النجوم، فسحبت ورقة وقلماً، وتصورت أن خاتم سليمان فى إصبعى يوحى إلىّ بحرية الاختيار، ورحت أستعرض الأسماء والمواهب العديدة التى أتمنى لقاءها . لكنى توقفت متردداً أمام الأسماء اللامعة، وشعرت بإحساس الجائع المحروم الذى وجد نفسه فجأة أمام مائدة غاصة بأشهى المأكولات، فلم يدر ماذا يأكل.

وزاد من حيرتى أنى بطبعى لا أتحيز للأشخاص، بل لأعمالهم . لهذا لم يكن لى فى أية فترة من حياتى نجم مفضل أتحيز له تحيزاً أعمى، ولا أتحمس لسواه. بل أنعم بميزات كل فنان.

والواقع أن هذا الطبع متأصل فى نفسى، وله جذور عميقة تمتد إلى مختلف نواحى الحياة. فأنا لا أتعصب لدين معين. وأحترم الأديان جميعاً مادامت من عند الله . وأومن بأن الخالق سبحانه وتعالى لا يرضى عن التعصب والتطاحن والخلافات بين عباده على الأرض ماداموا جميعاً من خلقه وفى طاعته.

كذلك لم أكن أتعصب فى الماضى لأحد الأحزاب السياسية. وفى الحاضر لا أتعصب لأحد النوادى الرياضية، بل أحب اللاعبين الممتازين من كل ناد.

ولا أتعصب لصديق معين أخصه بكل حبي واهتمامى ، وفى قلبي متسع لمجموعة كبيرة من الأصدقاء أوليهم كل اهتمامى وحبى، كذلك لا أرفض صداقة تسعى إلىّ بمحض اختيارها .

وفى الناحية العاطفية ، باستثناء التجربة الأولى التى ذكرتها ، لم أخص إمرأة بحبى وهيامى، بحيث تطغى على اهتمامى بالأخريات. وحتى فى قراءاتى لا أتحيز لعلم معين كما اتضح فيما سبق .

هذه بعض نماذج من طباعى توضح إيمانى بالحب الكبير فى كل صوره . وأن عدم انتمائى للتجمعات الجماهيرية لا يعنى أنى إنسان غير اجتماعى ، بل على العكس ، فأنا لست معزولا عن المجتمع ، لكنى لا أخص فئة منه باهتمامى . والتعصب فى اعتقادى نوع من الأنانية . لذلك لا أؤمن بالتوحيد إلا لله وحده . ومن إيمانى بالله وحبى لذاته العلية أستمد طاقة ضخمة من الحب تتسع لكل مخلوقات الله . حتى الحيوان منها والجماد .

نعود إلى حديث النجوم ، بعد هذه السرحة التى أردت بها أن أوضح وجهة نظرى فى عدم التحيز لقلة منهم دون المجموع . ولا يتعارض رأيى هذا مع التمييز بينهم ، فأضعهم فى درجات متفاوتة تتناسب مع مواهبهم وأعمالهم . لكن هذه الدرجات قابلة للتعديل طبقاً لمستوياتهم الفنية إذا ماتذبذبت بين صعود وانحدار.

لهذا كانت مهمتى صعبة فى اختيار نجومى المفضلين ، لكثرة من أفضل منهم ، وليس العكس . كذلك اضطررت أن أستبعد

بعض الأسماء بناء على نصيحة المحرر ، لأن أصحابها عرفوا فى الأوساط الصحفية بانطوائهم وعدم ترحيبهم بمثل هذه الزيارات الصاخبة . وهكذا استبعدت ثلاثة قمم شاهقة وهم : الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب ، والفنان العبقرى زكى رستم ، وسيدة الغناء العربى أم كلثوم . ولكى أكون صريحاً أعترف بأن شغفى — حينذاك — بمقابلة السيدة أم كلثوم لم يكن إعجاباً بصوتها ، فقد كنت ما أزال أعانى من العقدة إياها التى ذكرتها فى بداية هذا الكتاب . ولكنى كنت أود أن أحظى بلقاء تلك الشخصية الفذة التى تسيطر على الملايين بآهة واحدة من حنجرتها الأسطورية ، فتذهلهم تارة ، وتطلق أيديهم بالتصفيق تارة أخرى .

فى الموعد المحدد اهتز شارعنا الصغير ، وهو يستقبل سيارات فارهة تحمل النجوم المشهورين ، ثم توقفت السيارات فى نهاية الشارع لتفرغ شحناتها الثمينة أمام بيتى .

وفى حجرتى الصغيرة تناثرت النجوم اللامعة . . فاتن حمامة ، تحية كاريوكا ، شادية ، صباح . ومن نجوم الفكاهة أبو لمعة والخواجة بيجو . وكان محمد الطوخى قد سبقهم بآلة تسجيل ضخمة ليسجل هذا اللقاء .

كنت غارقاً فى موجة طاغية من السعادة والبهجة ، ليس فقط لأنى أرى الوجوه التى أحبها وأتحدث إليها . بل لأنى أيضاً كنت أشهد جدران سجنى المظلم تلين وتتهاوى وتغمرها الأضواء المتلألئة

بعد أن كانت لا تسمح بدخول شعاع واحد من الحياة الصاخبة فى الخارج . . فى دنيا الأحياء .

وسوف أستعير قلم الصحفى المعروف عبد السلام داود ، ليصف ماحدث حتى يعفينى من الحرج . وأنا هنا أنقل بعض فقرات المقال الذى نشرته جريدة أخبار اليوم الصادرة فى ١١ أبريل ١٩٥٩ تحت عنوان كبير بعرض الصفحة الكاملة :

« ليلة القدر تنقل نجوم السينما إلى حجرة الأديب صبحى الجيار »

قال أبو لمعة :

— أنت الآن تأمر ونحن جميعاً ننفذ .

قال الجيار :

— إننى لم أشاهد رقصاً شرقياً فى حياتى ! أريد أن أرى تحية وهى ترقص .

قالت تحية :

حاضر سأرقص لك ليلة حتى الصباح . . قبل أن تسافر ، إننى لم أستعد الرقص . ولكننى أعدك أن أقيم لك حفلة هنا وقبل أن تسافر أرقص فيها حتى الصباح .

— هذا وعد ؟

— نعم وعد . . وسأرقص لك أيضاً عندما تعود بالسلامة .

وفى صوت واحد قال الجميع . .

— ونحن أيضاً . . سنشترك مع تحية فى وداعك واستقبالك .

وقال الجيار :

ــ وفاتن . . ماذا ستقدم لى ؟

وقالت فاتن ضاحكة :

ــ مش عارفه . . أناسعيدة برؤيتك لدرجة أنى لا أستطيع أن أبكى . إن دموعى لاتطاوعنى . . ولكنى سأكون معهم فى كل مناسبة يحضرون فيها عندك . .

وقال الجيار :

ــ أريد أن أسمع صباح .

وقالت صباح :

ــ سأغنى لك أغنية جديدة . . .

وهدأت الضجة . . وبدأت صباح تغنى . . والجيار يلاحقها بآهات الإعجاب والتصفيق . ثم غنت شادية : « أنا قلبى معاك ثانية بثانية . . لو حتى تروح آخر الدنيا » . وانتهت من الغناء . . وقال الجيار :

ــ لقد شعرت أنك تغنين لى وحدى .

قالت شادية :

ــ أنا فعلا أغنى لك وحدك . . وأريد أن تراسلنى من الخارج .

وأغمض الجيار عينيه ليحبس دمعتين أوشكتا أن تفلتا من التأثر . ثم وقف محمد الطوخى وقال إنه سيقوم بدور المذيع ويسجل

الحفلة ، وبدأ يوجه أسئلته للجيار :

— إننا نريد أن نعرف حقيقة شعورك الآن .

وأمسك الجيار بالميكروفون وبدأ يتكلم :

— إن دموعى التى لم تستجب للآلام سنين طويلة تغافلنى كثيراً هذه الأيام كلما تحققت إحدى أمنياتى . لقد انفعلت بالفرحة وأنا أرى أمامى نجومى المفضلين يزورونى فى حجرة نومى التى طوقتنى جدرانها ثمانية عشر عاماً . ومنعتنى من مشاهدتهم فى السينما . وأخيراً لانت أبواب سجنى الرهيب ، وانفتحت ليدخل منها نجوم الشاشة فى زيارة خاصة لى . . أنا . . أنا وحدى . . اخترتهم بالإسم واحداً واحداً ، وكلهم لبوا النداء فى سماحة وكرم ، وحملوا إلىّ الهدايا وعليها بطاقات تحمل أمنياتهم لى بالشفاء .

كنت أحســـد غيرى ممن يرونهم على الشاشة ، أما اليوم فأنا محظوظ إذ أنى عوضت حرمان السنين الطويلة فى ليلة واحدة ، بل أنى سأكون مديناً للقدر إذا تحاسبنا بالعدل .

وعاد الطوخى يسأل :

— وكيف وجدتهم ، وهل هم فعلا كما تصورتهم ؟

— بالطبع فيهم الكثير من الخيال الذى رسمته لهم . فمثلا تحية كاريوكا كانت مثالا للإنسانة التى تنفعل بمآسى الآخرين . وقد دفعتها حماستها إلى التورط معى فى وعد بأن تحيي لى حفلة وداع

قبل سفرى تحشد فيها مجموعة ضخمة من الفنانين وترقص لى كما أريد .

— وفاتن ؟

— إن فاتن العملاقة على الشاشة رأيتها دقيقة رقيقة خجولا ، أوحى لى مظهرها الوديع بقطة أليفة جميلة ، لا تمالك نفسك من أن تمسح على شعرها فى حنان وحب .

وقالت فاتن وقد تضرج وجهها :

— شكراً

— ورأيك فى شادية ؟

— شادية كذلك أرق وأدق مما كنت أتخيل . كنت أظنها أكثر امتلاء ، إذ أنها تبدو كذلك فى صورها . ولكنى رأيتها الليلة أكثر رشاقة ، وكانت المجلات والأفلام تصورها بمظهر المرأة الخطيرة المثيرة . فوجدتها فى الحقيقة كعذراء ساذجة تضحك من قلبها فى براءة على فكاهات أبو لمعة وبيجو . إن شادية تتمتع بحيوية وخفة دم نادرة تجعلك لا تمل الجلوس معها ، ولو رمتك الظروف معها فى جزيرة مهجورة سنوات وسنوات ما مللت أبداً .

— وصباح ؟

— إن صباح كما تصورتها إمرأة ناضجة ، قوام معتدل تكسوه أناقة بادية . صوتها قوى مطواع . ليست فى كامل مرحها ، ولست أدرى السبب .

وعندئذ تدخلت تحية تسأله :

— وما رأيك فى الطوخى ؟

— إن صوت الطوخى هو أفخم صوت نطق العربية حتى الآن . إن هذا الصوت العميق المليء بالرجولة ينطبق فى انسجام مع مظهر الطوخى كما رأيته . فهو فارع الطول هادىء الحركات رزين فى مشيته المتئدة ، ولكن لفتت نظرى فيه ظاهرتان لم أكن أتوقعهما قبل أن أراه ، عيونه الخضراء ذات الرموش الساحرة ، وشعره الذى لا يحظى بكثير من عنايته . إن صوت الطوخى ومظهره ورصانة إلقائه كنوز لم تستغل فى السينما كما ينبغى .

— وما رأيك فى أبو لمعة والخواجة بيجو ؟

— إننى أعتقد أنهما مدرسة جديدة فى الفكاهة ، إنهما يتراشقان الفكاهات فى سرعة ولباقة وإلقاء عجيب . لقد أضحكانى الليلة كما لم أضحك من قبل . وكنت أتوق لسماع صوتيهما الطبيعيين دون تمثيل . وأسعدتنى الروح الطيبة التى بدت منهما ، وأصبحنا أصدقاء فى دقائق معدودة .

* * *

إنتهى حديث أخبار اليوم . . ولكن صلتى بالنجوم لم تنته . كان اليوم التالى هو عيد الفطر ، فانتهزت تلك المناسبة السعيدة لأزجى التهنئة إلى النجوم الذين أسعدونى بزيارتهم . وانتهزوا هم

مكالماتى ليؤكدوا لى وعودهم بإقامة حفل الوداع قبل سفرى ، وحفل آخر عند عودتى سالماً .

لكن الظروف لم تسمح بتحقيق الوعد . فقد فوجئنا بعد يومين ببرقية من الطبيب الإنجليزى يحدد فيها موعداً للقائنا — القبانى وأنا — يوم ١٦ أبريل فى لندن . فانشغلت فى الاستعداد للسفر المفاجىء ، ولم تتح الفرصة للنجوم لإقامة حفل الوداع لضيق الوقت . حتى أنهم لم يعلموا بموعد سفرى إلا من الصحف . كذلك أحلهم القدر من حفل الاستقبال لأنى عدت من الخارج فى حالة يرثى لها مما يحتاج إلى حفل تأبين . . وهو ليس من اختصاصهم.

كان هذا هو آخر عهدى برؤية كاريوكا وشادية وفاتن ، أما صباح فقد رحبت بمكالمتى التليفونية . لأنها كانت تريد أن تعتذر لى عن وجومها يوم الزيارة ، وفسرته بأنها كانت عائدة من لبنان فى نفس اليوم ، ولم تشأ أن تتخلف عن الزيارة رغم إرهاقها ، وطلبت رقم تليفـــونى ، ووعدتنى بزيارة قريبة حتى تعوض وجوم الأمس .

وفى اليوم التالى كانت صباح تجلس أمامى بكل مرحها وانطلاقها . كنا وحدنا ومعنا جهاز التسجيل . . أسألها فى أدق أسرارها ، فتجيب فى صراحة ودون مواربة . وتخللت الأسئلة فقرات من الطرب رددت فيها مقاطع كثيرة من أغنياتها التى أطلبها . وأعترف أنى لم أطرب وأسعد بالغناء كما سعدت وطربت فى ذلك الصباح ،

رغم أن أغانيها كانت شائعة فى تلك الفترة . لكن الإحساس بالصوت المباشر يفوق الإستمتاع بنفس الصوت إذا كان مسجلا. بدليل أن عشاق صوت أم كلثوم مثلا يتزاحمون على حضور حفلاتها مضحين بالأجور الغالية والسهر خارج البيت فى ليل الشتاء، مع أن تسجيلاتها الصوتية قد تكون أكثر وضوحاً ونقاء .

فإذا كانت هذه التضحيات تبذل فى رضاء نظير مقعد واحد وسط المئات ، فإن المتعة تكون مضاعفة إلى أقصى حد إذ سعت مطربتى المفضلة إلى حجرتى ، وغنت لى وحدى كل ما أطلبه من أغانيها الشجية ، التى بدأتها بترديد أغنيتها المشهورة « شبيك لبيك» أنا ملك إيديك . بس إنت شاورلى بطرف عينيك . . . » فوجدت نفسى أغمز لها بطرف عينى وقد ملكنى الإندماج .

ثم تكررت هذه الجلسات الحالمة عدة مرات قبل سفرى رغم قصر المدة . ونشأت بينى وبينها صداقة وطيدة تكلمت عنها الصحافة فى حينها وشاعت قصتها بين سكان الشارع ، الذين كانوا يترصدونها أمام بيتى .

وظلت صلتى بها قائمة أثناء سفرى ، بالبريد والتليفون حيث اتصلت بى من مهرجان « كان » الذى زارته فى ذلك العام . وبعد عودتى من الخارج بدأ الفتور يتسرب إلى علاقتنا رويداً رويداً، حتى اقتصرنا على المكالمات التليفونية ، إلى أن قامت برحلتها الطويلة إلى لبنان .

أما الأخ محمد أحمد المصرى « أبو لمعة » فقد توطدت صداقتى به بعد ليلة القدر . ثم تعاونا أخيراً فى بعض الأعمال الفنية، ومنها تأليف مسرحية فكاهية من أربعة فصول بعنوان « الحب بالتقسيط المريح ». ثم اشتركنا معاً فى تأليف ثلاثين حلقة فكاهية مسلسلة أذيعت خلال شهر رمضان من إذاعة الشرق الأوسط فى ديسمبر ١٩٦٧.

وفى ليلة السفر فوجئت بالموسيقار فريد الأطرش يزورنى مع صباح . وكان فريد ضمن القائمة التى رشحتها لزيارتى ، لكنه اعتذر فى ذلك اليوم لارتباطه بمواعيد سابقة ، حتى ظننته متعالياً ، لكنى اكتشفت أنه أبعد الناس عن هذا الظن الظالم ، ووجدته إنساناً مهذباً لطيفاً ، يخجله الاطراء ، ويتحدث ويضحك فى براءة وغير تكلف . وكان يجيب على أسئلتى الحرجة فى بساطة ووضوح . فأسرنى برقته ونبله . وأحسست بقلبى ينفتح له على مصراعيه ، ووجدت نفسى أندفع قائلا فى صراحة ساذجة :

— هل تعلم ياأستاذ فريد . . أننى قبل أن أراك كنت أحقد عليك .

وقبل أن يفيق من « الجليطة » التى فاجأته بها ، أسرعت أكمل فى صدق :

— لأنك كنت دائماً تطاردنى فى علاقاتى العاطفية .

— أنا ؟

— بدون قصد طبعاً . . أكون منسجماً فى مناجاة شاعرية .

وفجأة يسرح منى الطرف الآخر . . وأكتشف أن فريد الأطرش يغنى فى الراديو .

واندفع الحياء الوردى إلى وجهه وهو يردد مرتبكاً :

— مظلوم والله . . وماذنبى فى هذا . ؟

عدت أسأله ، وقد ثارت فى نفسى النزعة الصحفية :

— وكيف أمكنك أن تهرب من الزواج حتى الآن . . رغم توافر كل ظروف الإغراء أمامك .

فقال على الفور ، وكأنه تعرض لهذا السؤال مراراً من قبل :

— ولماذا أتزوج . . ؟ أنا لا ينقصنى شىء .

قلت :

— قد تفتقد حنان الزوجة ولهفتها حين تنتظر عودتك ، وقد تحتاج إلى أنثى تشبع رجولتك وتبادلها الحب . . .

فابتسم فى ثقة المتخم الذى تحدثه عن الجوع ، وقهقهت صباح من سذاجة سؤالى . فعدت أضعه فى القالب الصحيح ، وقلت :

— أعنى عندما تدركك الشيخوخة ستصدأ أسلحتك الفتاكة . وتشعر بالوحدة .

فقال .

— عندئذ سأختار إحدى صديقاتى ممن تناسبنى فى السن لتؤنس وحشتى .

— والأولاد ؟ لن تلحق بالقطار حينذاك .

فأجاب فى ثقة ومرارة :

— ومتى ساعد الأولاد أهلهم فى شيخوختهم ؟ بل قد يكونون مصدر شقائهم .. يكفى أن يكون أحدهم عاقاً أو فاشلا .. أو يختطفه الموت ، فيحيل حياة أبويه إلى شقاء مقيم .

ثم أضاف : .. « وأنا فنان .. ليس عندى وقت للمتاعب والمشاكل » .

أعتقد أنها وجهة نظر جديرة بالتأمل .. لكنها إذا كانت مقنعة بالنسبة لإمكانيات فريد الأطرش ، فإنها قد لا تصلح للناس العاديين . لكنها على أية حال مغامرة أسلم عاقبة من هواية نسل الأرانب .

وقبل أن ينصرف الفنان الرقيق ، وجه لى دعوة مبكرة لزيارته فى بيته بعد عودتى سالماً ، لأقضى فى ضيافته أسبوعين يعوضنى فيهما عن الحرمان الفنى سنوات طويلة . ثم أخرج من جيبه علبة صغيرة ، قدمها لى وهو يردد فى حياء :

— هدية بسيطة .. حتى تذكرك بى فى لندن .

كانت العلبة تحوى ساعة فاخرة ، مازالت تطوق معصمى حتى الآن . لا لتذكرنى بالفنان الكبير .. فإن فنه الشرقى الأصيل وصوته العذب الحنون وشخصه المهذب النبيل .. كل هذه الصفات النادرة لا تدع سبيلا إلى نسيانه لكل من عرفه عن قرب .

ولم تكد ساعة فريد الأطرش تستقر حول معصمى ، حتى

نهضت صباح ، وكانت تجلس على حافة سريرى ، نخلعت خاتما من إصبعها ، ثم اختـــارت له إصبعاً مناسباً فى يدى وهى تهتف ضاحكة :

— وهذا أيضاً ليذكرك بى حتى لا تنسانى وأنت بعيد عنى .

كان الخاتم ذهبياً ، يتوسطه حجر كبير من الفيروز، ويحيط به صفان من الماس . ورغم أنه كان أقرب إلى الطراز النسائى ، فلم أشأ أن أخلعه من إصبعى، رغم أنى لم أكن بحاجة إلى مايذكرنى بها ! حتى بعد أن خلعته فى لندن ، ظلت صورتها تداعب خيالى وهى تردد فى دلال « شبيك لبيك . . أنا ملك أيديك » .

مبدأ الهدايا :

عندما غمرتنى الصداقات الجديدة فى تلك الفترة الصاخبة من حياتى . جرفت فى طريقها بعض العقد النفسية التى كانت تسيطر على تصرفاتى . وفى مقدمتها عقدة الخجل من الجنس الآخر ، التى كان يزيد من حدتها إحساسى بالنقص الجسدى والتخلف الاجتماعى نتيجة القيود ومضاعفاتها . وكان طبيعياً أن أقتنع وسط فيض المعجبات بأن الحطام الذى تبقى منى مازالت له سوق رائجة فى دنيا الحسان . وأمام هذه الأدلة المادية المقنعة تخليت تدريجياً عن جزء كبير من خجلى وترددى .

أما العقدة الثانية فهى نفورى من تقبل الهدايا ، بشكل مبالغ

فيه إلى حد بعيد ، وقد ذكرت من قبل كيف كنت أحدد لصديقتى المليونيرة الحسناء رقماً معيناً تحصر فيه هديتها لى فى عيد ميلادى . حتى أستطيع أن أرد لها الهدية فى حدود ميزانيتى الهزيلة . وكان هذا المثال يتكرر كثيراً مع كافة أصدقائى وأهلى المقربين ، حتى أنى كنت أحياناً أجمع أخوتى ووالدتى قبل عيد ميلادى . وأقسم أمامهم بأغلظ الإيمان أنى لن أقبل هدية من أحدهم مهما كانت . وأنذرهم بأنى غير مسئول عن غضب أحدهم إذا مارفضت هديته. وكانوا يضطرون إلى النزول على رغبتى ليقينهم بأنى لن أحنث فى قسمى .

وعندما بدأت الصداقات الجديدة تكتسح فراغى ووحدتى ، حملت فى أذيالها سيلا من الهدايا ، تبدأ من الزهور والحلوى وماء « الكولونيا » ، إلى الراديو الترانزستور ، وجهاز التسجيل ، والتليفزيون ! .

لم يكن من اللائق قطعاً أن أرفض هدايا المرضى ، التى كان يقدمها لى الأصدقاء الجدد، رغم أنها كانت تؤلمنى . ومازال مثل هذا النوع من الهدايا يضايقنى لأنه يجسم لى صورتى كمريض فى نظر هؤلاء الأصدقاء . وأحياناً أواجههم باحتجاجى فى أسلوب مرح حتى لا أكون فظاً أمام مجاملاتهم الرقيقة ، فما لاشك فيه أن إحساسى هذا لم يطرأ فى مخيلاتهم .

أذكر إنسانة نبيلة « عرفتها فى تلك الفترة . وكانت ظروفها العائلية

تمنعها من زيارتى فى بداية علاقتنا ، وذات يوم لاحظت أن صوتى مشبع بنوبة حادة من الانفلونزا واحتقان الحلق . فسألتنى بلهفة لماذا لا أستدعى طبيباً فى الحال ، فضحكت فى نفسى ، لأن ميزانيتى حينذاك لم تكن تسمح لى بمثل هذه الرفاهية . ثم ألحت فى أن أشترى أدوية البرد المعروفة. فصارحتها بأنى لست معتاداً على تعاطى الأدوية ، إلا فى الأزمات الخطيرة .

كنت أتظاهر بالقوة وعدم الاكتراث ، لكن قلبها الكبير أحس بأن وراء تبجحى سبباً آخر مادياً .

وفى نفس اليوم ، طرق باب بيتى طفل صغير من أبناء الحى ، وناول نعمات لفافة متوسطة الحجم ، قائلا إن إحدى السيدات طلبت منه أن يعطيها لمن يفتح له الباب ، ثم أسرعت تركب سيارة أجرة كانت تنتظرها قبل بيتى بخطوات . وأسرعت نعمات تطل من النافذة لترى صاحبة هذه اللفافة ، فلم تر غير مؤخر السيارة المبتعدة وهى تنعطف عند أول الشارع .

فضضنا اللفافة فى دهشة ، وإذ بداخلها عدة زجاجات وعلب تحوى الأدوية المعروفة لمثل هذه النزلات من فيتامين «ج» ومسكنات ، ونقط للأنف وشراب للسعال .. إلى آخره .

لم أكن محتاجاً إلى كثير من الذكاء حتى أربط بين حديث السيدة النبيلة ، وبين لفافة الأدوية . وبقدر ماأسعدتنى هذه اللفتة الرقيقة ، فقد ضايقنى أن أكون فى وضع يثير الشفقة والإحسان!

نعم ، تصورت أن هذه السيدة جرحت كبريائى ، وفضلت ألف مرة أن أظل بلا علاج دون أن أمد يدى إلى هذه المنحة المهينة .

وفى المكالمة التالية ، رحت أعاتبها بشدة على تصرفها الذى آذى شعورى ، فدهشت من تفكيرى . وأقسمت أنها لم تقصد شيئاً مما ظننت ، وتهدج صوتها تأثراً ، وهى تؤكد لى أنها ما كانت تفعل غير هذا مع شقيقها إذا ماأحست أنه يستهتر فى صحته أو يعاند فى علاج نفسه . وفى أسلوب رقيق أقنعتنى بأن أعتبر هذا الدواء ديناً أسدده لها فى الوقت المناسب ، طالما لا أريد أن أعتبره هدية متواضعة من أخت مخلصة .

وحتى الآن . . وقد مضت ثمانى سنوات على صلتنا الوطيدة ، لم يتح لى القدر فرصة لرد جمائلها ، وكثيراً ماأداعبها بقولى :

— كم أود أن تحتاجى لى فى خدمة كبيرة حتى أسدد دينى إليك .

فتجيب ضاحكة :

— فال الله ولا فالك . . الله الغنى عن خدماتك .

حقاً . . إن هذه القلوب الكبيرة لا تتخلى عنها عدالة السماء .

* * *

ثم تعرفت بالصديقة « حنان » ، التى أهدتنى « البلوفر » والبطانية قبل السفر . ثم اعترضت حياتى صداقة متينة عميقة مع إنسانة عاطفية ، منحتنى الكثير من المتعة العقلية والحسية . كانت سيدة أعمال جريئة فى تصرفاتها ، بدأت هداياها بمجموعة من

الـكوفيات الحريرية الفاخرة ، ثم بآلة حلاقة كهربائية ، ثم جهاز تسجيل .

وبعد عودتى من الخارج تعرفت على سيدة أعمال أخرى ، كانت أرملة تدير عدة مصانع ورثتها عن زوجها . وقبل أن يبدأ الإرسال التليفزيونى فى مصر بأيام قليلة ، فوجئت بجهاز تليفزيون كبير يدخل بيتى ، وخلفه صديقتى هذه التى قالت وهى ترى الدهشة مرتسمة على ملامحى :

— إذا كان هناك إنسان واحد جدير باقتناء التليفزيون فى مصر فهو أنت . . فكلنا نستطيع أن نذهب إلى السينما ، ونرى الدنيا ، أما أنت فيجب أن تنتقل الدنيا كلها إليك من خلال شاشة التليفزيون .

* * *

الواقع أن الهدايا الآن لم تعد تزعجنى ، بعد أن أصبحتُ بحمد الله قادراً على ردها بمثلها . ولم أعد أشعر بأن الأصدقاء يقدمون إلىّ الهدايا لأنى محتاج إليها . فإن إحساسى بأنى قادر مادياً على شراء نفس الهدية لو أردت .. هذا الشعور يريح كبريائى ويقنعنى بأن الهدية ماهى إلا مجاملة يريد الصديق أن يعبر بها عن شعوره الطيب نحوى .

لـكن هذا الإكتفاء الذاتى لم يتيسر لى إلا منذ سنة ١٩٦٠ ، لهذا عشت قبلها فى صراع طويل مع تفكيرى وكبريائى ، ومحاولاتى

المتكررة لفلسفة الواقع الملموس ، وتكييف الدوافع ، وتحليل مشاعر الآخرين ، والتطلع إليها من زواياها المشرقة . فكنت أقتنع أحياناً بالنوايا الطيبة وأحتج أحياناً أخرى إذا أسرف الأصدقاء فى عواطفهم . وكثيراً ما كنت أضطر إلى قبول الأمر الواقع لأنى لا أستطيع أن أحتج أو أرفض الهدية حتى لا أتسبب فى إهانة أصدقائى أو أقلل من شأنهم،أو أقابل مجاملاتهم بتصرفات سخيفة .

كنت أحاول مخلصاً أن أقنع نفسى بأن الذوق واللياقة يحتمان على المرء أن يتقبل الهدايا شاكراً ، وأن الناس من مختلف الطبقات والأجناس تؤمن بمبدأ الهدايا كتصرف مشروع بين الأصدقاء ، بل بين الدول وبعضها على المستوى العالمى .

وحاولت أن أتصور نفسى عندما أحب أن أجامل إنساناً ، أو أعبر له عن ودى وإعجابى . . بهدية لم يرغمنى عليها أحد ، أو يوحى بها . ثم تصورته يرفضها بعد أن أجشم نفسى مشقة شرائها . فوجدت أن رفضه يضايقنى ، ويحقر هديتى النابعة من إعزازى وشعورى نحوه . كما أنه يحرمنى من المكافأة المعنوية التى أبتغيها بعد أن دفعت ثمن الهدية فعلا . والمكافأة المعنوية أقصاها بسمة رضا وامتنان ترتسم على وجه المهدى إليه . . هذه البسمة التى كنت أشوهها باحتجاجاتى السخيفة ، التى ترفع شعار الكرامة والكبرياء ، فى غير موضعهما .

ومع تكرار الهدايا ، وتكرار المواقف المحرجة بدأت أتعود على الإبتسامة الراضية .. ثم إزدادت إبتسامتى إتساعاً، حتى إبتلعت جهاز التليفزيون مقياس واحد وعشرين بوصة !

ودعت مبي :

رغم كل هذه الصداقات الجديدة ، فقد كان قلبي مازال مخلصاً لحبيبتى الأولى « المليونيرة الحسناء » . وكانت علاقتنا قد اتخذت طابعاً عنيفاً بسبب الخلافات المتتالية ، التى لم تخرج عن محور الغيرة المتهورة ، مما جعلنى أتراجع عن فكرة الزواج رغم تعلقى الشديد بها. فإذا كنا خلال أربع سنوات كاملة لم نستطع أن نروض انفعالات الغيرة الجامحة فى كلينا . فإننا لن نستطيع أن نسيطر عليها بعد الزواج .. إن التجربة الطويلة أثبتت فشلنا معاً فى إيجاد جو من التفاهم والثقة يضمن لنا الاستقرار والهدوء .

كان هذا هو رأيي شخصياً . أما هى فكانت تؤكد أن دوافع الغيرة والخلاف سوف تزول تلقائياً عندما يجمعنا بيت واحد . حيث أظل أمامها ليل نهار ، فتضمن إخلاصى وتهدأ أعصابها . لكنى كنت أشك كثيراً فى نظريتها هذه على ضوء خبرتى الطويلة السابقة . فإن غيرتها من المكالمات التليفونية البريئة ، ومن القطة التى ترقد فى حجرى ، ومن صور نجوم السينما . وكل تلك السوابق كانت تؤكد لى أن حياتنا الزوجية سوف تكون جحيماً لا يطاق

خاصة إذا ما وضعت فى حسابى الفروق الاجتماعية والمادية الشاسعة بيننا ، وما قد تجره علينا من خلافات جوهرية لا يمكن تلافيها أو التغاضى عنها . كذلك كان زواجى منها معناه القضاء على حياتى الأدبية والصحفية التى تضطرنى أن أرحب بكل من يطرق بابى من الزملاء والقراء . وتضطرنى أن أعير أذنى لأصحاب المشاكل سواء على أسلاك التليفون أو وجهاً لوجه .

برغم كل هذه الأسباب وغيرها ، فلم يسعنى أن أتخلى عنها ، فقد كانت أول من أضاء حياتى ، وملأ فراغى ، ومنحنى الثقة فى نفسى كإنسان مرغوب فيه بعد أن أكدت لى تصرفات من حولى أنى عبء لا نفع فيه. لهذا كان تعلقى بها أقوى من أن تخلخله الخلافات. حتى ولو كانت جوهرية .

كان أهلها قد تظاهروا بمهادنتها حتى ينتزعوا سرها ، فأوهموها بموافقتهم على زواجها بمن يختاره قلبها ، حتى ولو كان فلاحاً أجيراً فى أرضهم . وبعد أن تشاورنا فى الموضوع قررنا أن نكاشفهم بالحقيقة ، وقد توهمنا أن أمانينا قد دان قطافها .

لكن أهلها كانوا يدخرون لنا ضربة قاصمة، حطمت قصور آمالنا التى بنيناها بخيالنا لبنة بعد أخرى طوال السنين الحالمة. فقد أرغموها على السفر إلى العزبة ، ليفرضوا عليها حراسة مشددة ، وحرموا علينا حتى مجرد الاتصال التليفونى . ولم يبق لنا غير الاتصال

الذهنى بطريقة « التليباثى » فى العاشرة صباحاً ، والسادسة بعد الظهر ، كما ذكرت فى حديثى السابق عنها .

ولما لجأت إلى الإضراب عن الأكل كسلاح لمقاومتهم ، كانوا يضربونها بالسوط حتى تعدل عن إضرابها . وعبثاً حاولت أن تسترحم أحدهم حتى يتشفع لها لدى مجلس العائلة الأرستقراطية ، لكن قلوبهم الصخرية لم تستجب لتوسلاتها ، فقد كان زواجى بها يعتبر عاراً يلحق بأسرة السادة الإقطاعيين .

وبعد شهور من الإرهاب والتعذيب ، تظاهرت بالإستكانة والخضوع لأحكامهم . فأعادوها إلى القاهرة مع ابنتها . ولكنهم حرموا عليها مغادرة بيتها لأى سبب إلا فى صحبة أحد رجال الأسرة .

عادت إتصالاتنا التليفونية فقط .. وبمزيد من الحرص والحذر . لكنى بدأت أفيق من جنون العاطفة ، وأفسحت مجالا لعقلى كى يضع حداً لهذه العلاقة المدمرة لكلينا . لكنها كانت مازال تتشبث بخيوط واهية من أمل كاذب . حتى لو أدى الأمر إلى أن يفترق جسدانا إلى الأبـــد . مادام كل منا قد نذر قلبه وإخلاصه للآخر .

لكن هذا الحل الرومانسى لم يقنعنى طويلا ، خاصة بعد أن تدخل عقلى فى المعركة بصفة جدية . ووجدت من الظلم أن أضيع عمرها فى سجن الوهم ، ومن السذاجة أن أبدد مستقبلى على مذبح

قلبي . وبعد تفكير طويل تأكدت أن فراقنا واجب حتمى يجب أن أحققه بأى ثمن .. ولو بمجهودى الفردى .

كنا فى ذلك الوقت قد اقتربنا من الفتره الصاخبة فى حياتى . والتى بدأت بالزوبعة الصحفية وماتلاها من الصداقات الوافدة ، التى كانت لاتعبر بسهولة من حلقة الغيرة الضيقة . وكانت بالطبع تثير المشاكل والمشاجرات ، التى ازدادت طردياً مع تزايد أفواج الصديقات ، حتى وصلت علاقتنا إلى مـــرحلة الاختناق فى عنق الزجاجة .

وهنا وجدت الفرصة سانحة لتفجير الزجاجة بأكملها مستخدماً السلاح البتار الذى لاعلاج لجراحه . وإذا كان الله سبحانه وتعالى يغفر جميع الخطايا ماعدا الشرك به . فإن حبيبتى الأولى كانت على استعداد لأن تغفر لى أى خطأ أو إهانة أو ظلم ... ما عدا جريمة واحدة . . . وهى أن أشرك غيرها فى قلبى . إن الخيانة وحدها هى الخطأ الذى يستحيل إصلاحه أو التسامح فيه . . . لكن قلبى حتى تلك اللحظة — لم يكن يطاوعنى على خيانتها ، حتى غرائزى لم تكن تشتهى سواها . فما العمل إذن ؟ !

وأخيراً لم أجد سبيلا أمامى غير افتعال قصة خيانة محبوكة .

وقبل سفرى بأيام حاولت أن أقنعها للمرة الأخيرة بأن تنسانى وتهتم بحياتها ، حتى تستعد نفسياً لتقبل آحد المتقدمين للزواج منها . ومنهم أقاربها الذين يترقبون موافقتها فى لهفة بعد أن ضيقوا

عليها الخناق. وحاولت أن أشرح لها طبيعة المغامرة التى سأقدم عليها بسفرى إلى الخارج ، وعن العلاج الخطير الذى يهدد حياتى ، أو قد يطول إلى عام كامل حسب رأى الأطباء .. لكنها أصرت على الإنتظار . وأخيراً لم أجد بداً من تفجير القنبلة التى أعددتها بإتقان ...

اسمعتها عن طريق التليفون شريطاً مسجلا يحوى حديثاً عاطفياً حاراً ، يدور بينى وبين صوت إنسانة تعرفها هى جيداً . وكان مضمون الشريط المسجل لا يدع أى مجال للشك فى خيانتى . !!

لم تصرخ .. ولم تبك .. ولم تلق السماعة فى وجهى ، وبكل تماسك ، قالت إنها مقتنعة بفكرة الإنفصال . وطلبت منى أن أعيد إليها صورها ورسائلها وتسجيلاتها . واستحلفتنى بألا أستبق أى أثر لها عندى . ورغم أن طلبها كان غالياً لاعتزازى بآثارها .. إلا أنى لبيت رغبتها فى صدق وأمانة .. حتى اللوحة الكبيرة التى رسمتها لها والتى كان وجهها الرائع يكاد ينطق فيها .. أهديتها إليها بناء على إلحاحها .

وهكذا تبخر كل أثر مادى لحبى الأول .. والأخير ، الأخير من نوعه، فقد خفق قلبى بعدها مرات قليلة .. لكنها خفقات عاقلة هادئة .. مريحة ، كان قلبى دائماً مسيطراً عليها .. ولكن فى غير جمود أو اندفاع .

ورغم كل ماحدث فى قصة حبى الأول ، ورغم الكثيرات اللاتى دخلن حياتى بعدها ، والقليلات اللاتى ملأن قلبى وأسعدنى ، فإن ذكراها العطرة الطيبة مازالت تعيش فى وجدانى . وكلما خطرت فى خيالى أشعر بحنين للقائها . لا كزوجة أو صديقة أو حبيبة . . بل كأخت طيبة حنون .

كم أتمنى أن ألقاها لأقدم لها أية خدمة أو مساعدة تحتاج إليها . فقد ترامت إلى أخبارها بمحض الصدفة ، بأن حالتها المادية قد تدهورت إلى حد كبير ، بعد أن نبذها أهلها وتخلوا عنها . لكن كبرياءها تأبى عليها أن تلجأ إلىّ فى محنتها ، وهى تعلم أنى قادر الآن على مساعدتها . وأنا لا أستطيع أن أفرض نفسى عليها . . . لأنها فى عصمة رجل آخر !. نعم لقد تزوجت بعد شهر واحد من سفرى . تزوجت من شخص أفاق كان يطاردها أثناء علاقتى بها . وكانت مطاردته تثير غيرتى . رغم يقينى من عدم إهتمامها به .

وعندما تلقت المسكينة طعنة خيانتى الملفقة . . لم تجد فى جعبتها سلاحاً ترمينى به أقسى من هذا الخنجر المسموم . فألقت بنفسها منتحرة بين أحضان هذا الأفاق الأرستقراطى . الذى بدد ماله وأموالها على ملذاته ومائدة الميسر .

مسكينة ... ترى هل أنا مسئول عن مصيرها التعس ؟

فليرحمها الله . . . ويرحمنى .

اخى القارىء

أرجو المعـــذرة إذا كنت قد أثقلت عليك بتفاصيل قصة كفاحى المتواضع ، وما كنت أفكر يوماً فى أن أنزلق إلى التفاخر بما حققته من نجاح نسبى فى ظروفى المعوقة . لكنى ما لجأت إلى هذا إلا لأثبت لك بالدليل المادى الملموس أن عدالة السماء لا تتخلى أبداً عن إنسان يؤدى واجبه . وأرجو أن أكون قد أديت جزءاً منه يرضى عنه ضميرى . .

ولم يبق الآن غير الحصاد . .

« الحصاد » . . هو الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وفيه سأحدثك عن الثمار التى أغرقتها على السماء فى رحمة وسخاء .

سأحدثك عن تحقيق أملى الأكبر وهو السفر للعلاج فى الخارج وعن الأعمال التى مارستها بعد أن عدت من الخارج ، ثم أحدثك عن خطبياتى ومحاولات الزواج ، وأخيراً نتجول معاً فى دولاب الذكريات . . .

أخى القارىء : هل مازالت راغباً فى إتمام الرحلة معى إلى نهايتها . . ؟ . . إذن . . هيا بنا . . .

صبحى الجيار

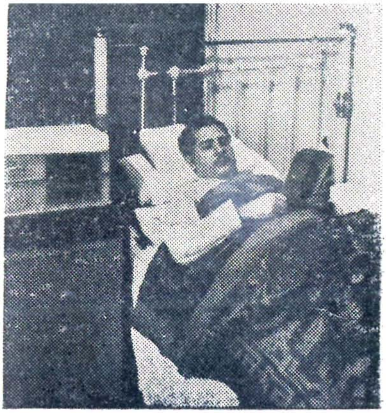
من أرشيف الصور



في العيــد الفضى
فبراير ١٩٥٢



٢٠ عاما (١٩٤٧)



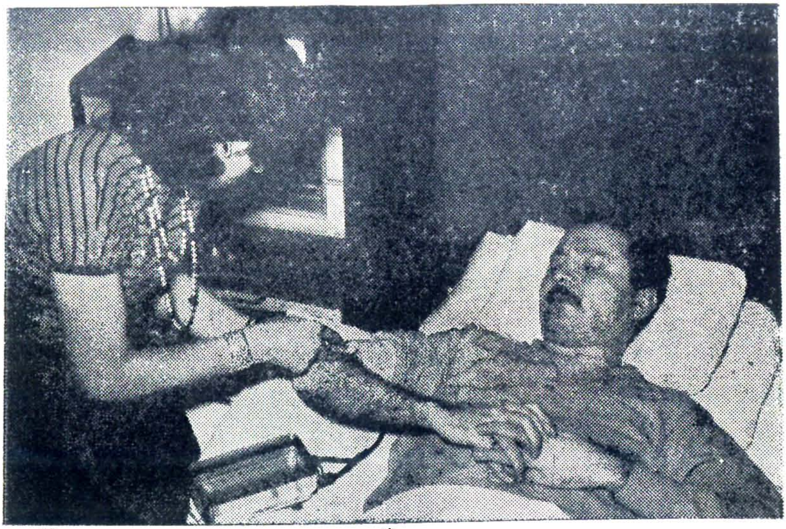
٢٣ عاما (١٩٥٠)



٢٧ عاما (١٩٥٤)



٣٠ عاما (١٩٥٧)



نعمات .. الممرضة

١٩٥٥

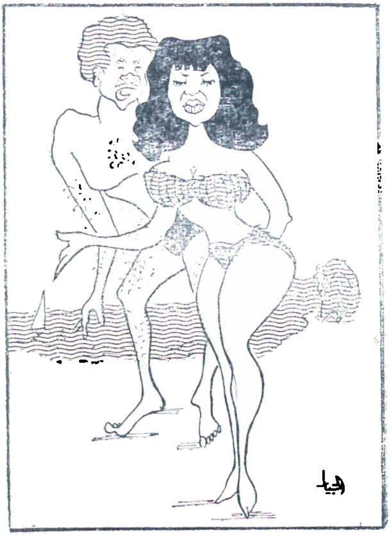


نعمات ... السكرتيرة

١٩٥٥



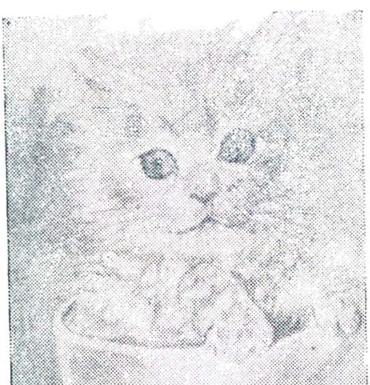
كاريكاتير متأثر باسلوب رخا
بالحبر الشينى ١٩٥٢



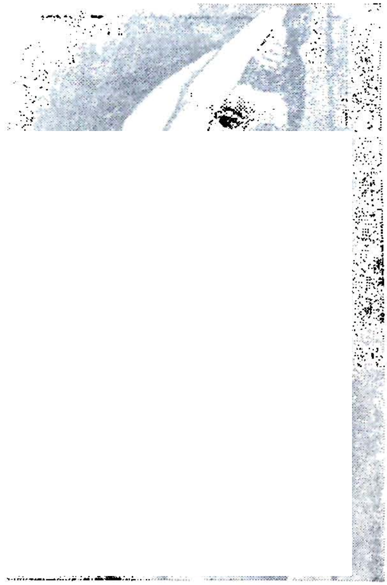
كاريكاتير بأسلوبى الخاص
بالحبر الشينى ١٩٥٨



بورتريه للفنانة كاميليا
رسم بالفحم ١٩٤٩



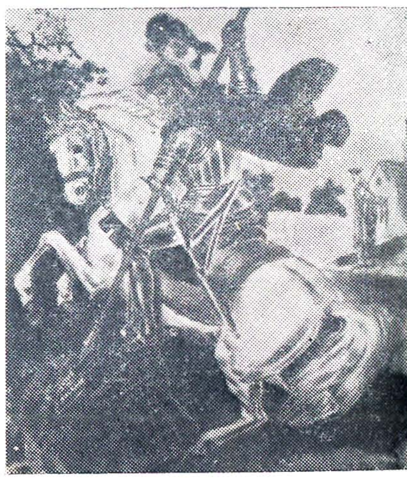
القطـــة
رسم بالقلم الرصاص ١٩٥٩



امرأة عارية .. بريشة مراهق
لوحة بالفحم (١٩٤٣)



امرأة عارية .. بريشة فنان
لوحة بالفحم (١٩٦٥)



صورة القديس مارجرجس
لوحة بالاوان المائية (١٩٤٥)



المايسترو
لوحة زيتية (١٩٥٦)



مع رسائل القراء　　　　اكتوبر ١٩٥٥



أثناء رسم لوحة بالزيت　　　　نوفمبر ١٩٥٥



مع اعداد من مجلة قصتي　　　　فبراير ١٩٥٦



مع التليفون ودوامة الاصدقاء　　　　مارس ١٩٥٩

مع نجوم السينما ـ أبريل ١٩٥٩



تحية كاريوكا ، فاتن حمامة ، صباح



مع شـــادية

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٦٨/٣٣٧



صبحى الجبار

ربع قرن فى القيود
الجزء الثانى — الكفاح

دار النهضة العربية